موسوعة الدرر الزاهرة
في الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيوني محمد الخولي

المجلد الرابع
الذات الحضارية للإسلام
(الحضارة الإسلامية)

الجزء الأول
مفهوم الحضارة الإسلامية
ونظرية نشوئها

٨

موسوعة الدرر الزاهرة
فى الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيونى محمد الخولى

المجلد الرابع
الذات الحضارية للإسلام
(الحضارة الإسلامية)

الجزء الأول
مفهوم الحضارة الإسلامية ونظرية نشوئها

٨

إشراف
أ / محمد عمر الفاروق

موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

المجلد الرابع : الذات الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية)

الجزء الأول : مفهوم الحضارة الإسلامية ونظرية نشوئها

المؤلف: أ.د. بسيوني محمد الخولي

رقم الإيداع: ٩٦٥٥ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 – 5197 – 22 – 8

الطبعة: الأولى ٢٠٠٨

تصميم الغلاف: فنان تشكيلي / حسام حنيطر

الناشر: أصيلة للتصميم والنشر (فنان تشكيلي / إبراهيم حنيطر)

٣٢ شارع د. محمد عوض – مكرم عبيد – مدينة نصر – القاهرة

ت : ٢٢٧٤٢٥٠٩ email: henetar@link.net

www.tashkila.net



البريد الإليكتروني
ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

إهداء

إلي الناس كافة

بســم الله الـرحمــن الـرحيــم

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

صدق الله العظيم

بســـم الله الـرحمـــن الـرحيـــم

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾

صدق الله العظيم

المحتـــويات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
شعار الموسوعة..	٣
الإهـداء	٤
الاستفتاح	٥
فهرس الموضوعات	٦-١٠
مدخــل	١١-١٧
تمهيـــد	١٩
الباب الأول	
مفهوم الحضارة الإسلامية	٢١-٢٣
الفصل الأول	
رؤية الإسلام لنشأة الحضارة	٢٥-٢٧
المبحث الأول : استخلاف الله للإنسان في الكون	٢٨-٣١
المبحث الثاني : تسخير الله للمخلوقات والموجودات	
لخدمة الإنسان	٣٢-٣٥

المبحث الثالث : تعامل الإنسان مع عناصر الوجود

وموجودات الكون ٣٦-٤٣

المبحث الرابع : أهم الحضارات القديمة التي وردت

في القرآن الكريم ٤٤-٦٠

الفصل الثاني

التفرقة بين الحضارة والمفاهيم الأخرى ٦١-٦٢

المبحث الأول : مفهوم الحضارة ٦٣-٦٥

المبحث الثاني : مفهوم المدنية ٦٦-٦٧

المبحث الثالث : مفهوم العمران ٦٨

الفصل الثالث

خصوصية مفهوم الحضارة في الإسلام ٦٩-٧١

المبحث الأول : عناصر نشأة الحضارة وعوامل زوالها ٧٢-٨٥

المبحث الثاني : مفهوم الحضارة في الطرح الإسلامي ٨٦-٩١

الباب الثاني

نظرية نشوء الحضارة الإسلامية " انطلاقة العقيدة الإنسانية

العالمية المكافحة " ٩٣-٩٦

الفصل الأول

إطلالة على البيئة التي انطلقت منها عقيدة الإسلام ٩٧-١٠٠

المبحث الأول : الظروف الطبيعية ١٠١-١٠٧

المبحث الثاني : الأحوال المادية ١٠٨-١٢٩

المبحث الثالث : الوضعية الحضارية ١٣٠-١٤٨

المبحث الرابع : البيئة الفكرية والثقافية ١٤٩-١٦٨

المبحث الخامس : الظروف الاجتماعية ١٦٩-٢٠٢

المبحث السادس : الحياة الدينية المعتقدية ٢٠٣-٢١٩

المبحث السابع : الدور الإقليمي والدولي لإقليم الحجاز

في منتصف القرن السادس الميلادي ٢٢٠-٢٣٢

الفصل الثاني

الظروف والتكوينات النفسية للرواد الأوائل

(المخاطبين بالعقيدة) ٢٣٣-٢٣٥

المبحث الأول : العبيد الصغار : السبّاقون إلى اعتناق

العقيدة ٢٣٦-٢٤٢

المبحث الثاني : السادة الكبار : القوة المحتملة لدعم

العقيدة ٢٤٣-٢٥١

الفصل الثالث

الانطلاقة الأولى ٢٥٣-٢٥٥

المبحث الأول : دولة الإسلامَ الأولي ومجتمعها الجديد...... ٢٥٦-٢٦٧

المبحث الثاني : الحضارة العربية الإسلامية نواة

الحضارة الإسلامية ٢٦٨-٢٧٣

المبحث الثالث : الرواد الأوائل .. العُدة والعتاد ٢٧٤-٢٧٨

المبحث الرابع : التعاطي مع البيئة والانطلاق منها ٢٧٩-٢٨٦

الفصل الرابع

الانطلاقة الكبرى .. الخروج إلى عالم الآخر ٢٨٧-٢٨٩

المبحث الأول : حمل الدعوة وتوصيلها وتبليغها ٢٩٠-٣٠٠

المبحث الثاني : العناق بين الرواد والمدد المتجدد ٣٠١-٣٠٢

المبحث الثالث : العقيدة تتغذى من داخلها ٣٠٣

الفصل الخامس

الانطلاقة الإنسانية ٣٠٥-٣٠٦

المبحث الأول : الإسلام وحضارته للناس أجمعين ٣٠٧-٣١٠

المبحث الثاني : كل الأعراق والعناصر تشيد صروح

الحضارة الإسلامية ٣١١-٣١٦

الفصل السادس

الهوية الإسلامية للذات الحضارية ٣١٧-٣١٩

المبحث الأول : مرجعيات الحضارة الإسلامية ٣٢٠-٣٢٢

المبحث الثاني : العامل الأخلاقي يصبغ مقومات الحضارة

الإسلامية ٣٢٣-٣٢٥

المبحث الثالث : السمة الشعائرية تميز أشكال الحضارة

الإسلامية ٣٢٦-٣٢٧

المبحث الرابع : خصائص وغايات الحضارة الإسلامية ٣٢٨-٣٢٩

الفصل السابع

الكفاحية من أجل الاستمرار وامتصاص الأزمات ٣٣١-٣٣٣

المبحث الأول : الكفاحية من أجل الاستمرار وتطوير الذات ٣٣٤-٣٣٩

المبحث الثاني : القدرة على امتصاص الأزمات ٣٤٠-٣٤٧

الفصل الثامن

الانقطاع لا يعنى الفناء والانتهاء ٣٤٩-٣٥١

المبحث الأول : فترة الانقطاع ٣٥٢-٣٥٥

المبحث الثاني : البحث عن الذات والتواصل معها ٣٥٦-٣٥٨

شعار الموسوعة ٣٥٩

مدخـــــل

في هذا المؤلف نعكف علي الغوص في أعماق بحر لجي ، لا يبلغ قراره إلا المهـرة مـن ذوي الخبرة والاستعداد الخاص ، وتنبـع صـعوبة الغـوص في هـذا الـيم المـتلاطم مـن أكثـر مـن سبب :

السبب الأول : أن الحـديث عـن الحـضارة والثقافـة الإسـلامية حـديث معقـد ومتـشابك ومتداخل ويحتاج إلي الإلمام بأبعاد متباينة ومختلفة .

السبب الثاني : أن تناول الحضارة والثقافة الإسلامية بالدراسة والتحليل يحتاج هو الآخر إلي أدوات خاصة وآليات معينـة ، تجمـع بـين التعمـق في الـشريعة الإسـلامية بحـساب ودقة، وفي ذات الوقت التبحر في مفاهيم وأبعاد ومحتويات الحضارة والثقافة التي تتعامـل معها الأفكار والرؤى المعاصرة بكافة توجهاتها .

السبب الثالث : أن وجود بعـض الاختلافـات بـين المـضامين والمحتويـات ، وكـذا بـين التجارب والتطبيقات الخاصة بالكليتين الفكريتين الخاصتين بكل من الحضارة والثقافـة ، يثير الكثير من الجدل والتداخل واللـبس والجهـد العنيـف والمـضاعف ، لتبيـان الحقـائق وإجلاء الغيم عن الوقائع .

السبب الرابع : أن العالم قد شهد لغطاً فكرياً وعايش جـدلاً عقليـاً ، يـثير هلـع النـاس، ويلهب مخاوفهم حول الصدام المتوقع والتناطح المحتمل بـين الحـضارات وقـد اسـتهدفت هذه الإثارة عن جهل وعمد الاستخفاف بالعقـــول ، واستثمار جهل العـوام وعـدم إلمـامهم بصحاح الحقائق والأمور ، للإيقاع بهم في شرك التحزب والتشرذم ضد القيم والمبـادئ دون معرفة بها أو إدراك لها .

إن الحضارة مدرك مألوف ومتداول منذ آلاف السنين ، وبالرغم من الاستعمال شبه اليومي من الناس علي اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم لهذا المدرك إلا أنه عندما جد الجد ، واحتكمت الأمور إلي درجة تستوجب الفصل في القضايا وتعريفها بشكل دقيق وواضح ، ظهر أن ثمة تهويمات وجهلاً عميقاً ومركباً بهذا المدرك ، وحار الناس وعلي مستويات معرفية عالية وخلطوا بين الحضارة والثقافة ، ثم بين صدام الحضارات أو الثقافات وحوارها ، واختلط الحابل بالنابل وظل الجميع في حيص بيص !! .

ولعله من قبيل الصدفة البحتة أن يتزامن إخراج هذا المؤلف مع حدوث هذا اللغط واللبس المشار إليهما ، فهذا الكتاب قد خُطط لإتمامه بمشيئة الله تعالى ضمن هذا العمل الموسوعي المتكامل منذ سنوات .

أما ما حدث من إثارات ومهاترات في مجال حوار أو صدام الحضارات أو الثقافات ، فهو بمثابة تجمع لمركب من الجهل والحقد متراكم ومكدس منذ زمن طويل ، توهجت جذوته فور وقوع حدث عارض ، لأحدث التجارب السياسية في العالم المعاصر وهي الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن ثم أصبحت الفرصة العابرة مواتية للإسهام في وضع الأمور في نصابها الصحيح ، وإبراز الحقائق من خلال تقديم الطرح الإسلامي المتميز فيما يتعلق بكليتي الحضارة والثقافة ، وما يتبع كل منهما من ملحقات وتوابع .

إن الإسلام يملك ذاتاً حضارية متميزة ، جاءت مع ظهور الإسلام بخصائص وسمات مستقلة ومتفردة ، لم تكن في يوم ما تابعاً بل كانت دائماً متبوعاً ورائداً ، حتى عندما تخاذل أبناؤها وتقاعسوا ، كان الآخرون ينهلون منها بنهم ، ويغوصون في أعماقها ، ثم يخرجون بالدرر واللئالئ ، وأبناؤها ينظرون في انبهار واستغراب .

إن هذه الذات الحضارية العظيمة ، كان وراءها طرح عظيم عرّفها بدقة ووضوح ، وفرّق

بينها وبين ما تداخل معها من مفاهيم ومدركات ، وخرج من ذلك بمفهوم خاص ومعنى متميز للحضارة .

وكان للحضارة الإسلامية خصائصها التي أضافت إلى تميزها وعمقت تفردها وريادتها للإنسانية ، وهذه الخصائص كانت ولا تزال تبدو وليدة الأمس القريب ، وهي في ذات الوقت تبدو كما لو كانت أزلية الوجود ، وهي كذلك تبشر بأنها ستدوم أبداً ، تحفظ خصائصها وتواصل عطاءها .

لقد كانت الحضارة الإسلامية رحبة سريعة التعامل مع الآخر في أنفة واحترام ، تعطى دون منّ وتأخذ القيّم مع الشكر والامتنان والإشادة والعرفان ، ولقد كانت إذن علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى ، علاقة سلام ووئام وأخذ وعطاء ، ولم تكن في يوم علاقة صراع أو صدام .

ولعل ما يقف وراء تلك الصفة النموذجية المتحاورة في سماحة ورحابة ، هو ما شهدته تلك الحضارة من تطور ، بدأ منذ عهد النبوة والخلافة الراشدة ، وانتهى في أيامنا المعاصرة ، شهدت خلاله تلك الحضارة تقلبات كثيرة ، ولكنها احتفظت بخصائصها ، وتمسكت بأصولها وأسسها العظيمة النابعة من الشريعة الإسلامية الغراء .

لقد وجدنا أنفسنا والحال كذلك أمام مغريات شديدة وضغوط أشد للحديث باستفاضة وتوسع عن كليتى الحضارة والثقافة ، فقد أغرانا ما للحضارة والثقافة الإسلامية من مذاق خاص ونكهة مميزة ، يسيل لها لعاب الفكر وتتحرك إليها شهية التأمل والبحث ، فيجد الإنسان نفسه نهماً شرهاً رغماً عنه ، وفي ذات الوقت تكالبت علينا همزات الماكرين ولمزات المرجفين ، تصف حضارتنا وتسم ثقافتنا بصفات وسمات لا تليق ، وعند ذلك يجد الإنسان نفسه مرة أخرى مدفوعاً في عزم ومضاء لإبراز الذات الحضارية السامقة للإسلام

العظيم ، وإجلاء الغيم عن المنطق الثقافي البليغ للإسلام القيم ، وإزاء هذا وذاك يطول التحليل ، ولا يمل التفصيل ، ونسأل المولى المثابرة والجلد ، ونلتمس لدى متابعنا المعذرة ورحابة الصدر .

بالفعل جاء الحديث في الحضارة والثقافة الإسلامية بمثابة منظومة معرفية علمية داخل هذا العمل الموسوعي الضخم ، ولم نملك إلا أن نسير في المضمار إلي منتهاه ، ونقدم ما يمكننا تقديمه عن هاتين الكليتين العظيمتين ، وكلما كان الخطب جللاً عظيماً كان الحديث طويلاً ضافياً .

لقد بدأنا هذا المجلد بما ينبغي أن نبدأ به ، وهو أن ندرك معنى الحضارة إجمالاً ، ونفقه كنه الحضارة الإسلامية تخصيصاً ، فأفردنا الجزء الأول من هذا المجلد لبسط المدرك على وجهيه العام والخاص ، ثم نعرض لما حاولناه من اجتهاد وبذلناه من جهد قادا إلى التوصل إلى ما يمكن أن يسمى بنظرية تؤصل لنشوء الحضارة الإسلامية أسميناها نظرية " انطلاقة العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة " .

ثم تناولنا في الجزء الثاني المقومين الأول والثاني من مقومات الحضارة الإسلامية ، فالمقوم الأول تمثل في صلب حضارة الإسلام وقوامها والمميز لها عن سائر حضارات الإنسانية ، ألا وهو الدعوة إلي الإسلام ، ونشره بين الناس للعلم والإحاطة ، وليس للإيمان بالضرورة ، فالإيمان أمره إلي الله ، أما التبليغ فقد فُرض على المسلمين طالما كانوا أحياء ، والحديث عن الدعوة إلي الإسلام كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية ، يعنى تناولها عبر التاريخ الإسلامي بمراحله المتباينة ، ويعنى كذلك الوقوف على واقعها الراهن ، ويعنى أيضاً استشراف مستقبلها وارتباطه بمستقبل الحضارة الإسلامية ، عبر ما تدعو إليه من ضرورة قيام تواصل حضاري يربط المستقبل بالماضي عبر الحاضر المعاصر ، وتحدد المقوم الثاني في صياغة التنظيم ، وهو أداة الربط بين الطروحات والرؤى الثقافية الإسلامية ، وبين معترك

الحياة وتفاعلات المجتمع ، وهو بعبارة أكثر دقة أداة التعامل مع عناصر الوجـود المتمثلـه في المجتمع الإنساني بأطواره ومفرداته ، والتنظـيم كـذلك مـن المقومـات المهمـة للحـضارة الإسلامية ، وقد مر هو الآخر بتطورات عديدة ومتباينة ، وانتهى به الحال إلي أن يخرج عن فلك الحضارة الإسلامية كمقوم فاعل وفعّال ، وقد تناولنا في هذا الجزء تلك التطـورات ، وقدمنا بعض الطروحات الكفيلة بإعادة التنظيم إلي سـابق عهـده في العـصور الإسـلامية الزاهــرة ، عنــدما كــان يعــبر عــن حــضارة الإســلام أصــدق تعــبير ، ويقــود إلــي ازدهارها وإيناعها .

ثم واصلنا في الجزء الثالث من هذا المجلد تنـاول مقومـات الحـضارة الإسلاميــة ، حيـث تناولنا المقوم الخاص بتشكيل النظام الاجتماعي ، وهو الآخر أداة من أدوات التعامـل مـع المجتمع الإنساني ، فقدمنا للأصول التي صاغها الرسول الكريم ، لتشكيل ذلك النظـام ، ثم تطبيق خلفائه الراشدين لتلك الأصـول ، والاجتهـاد مـن أجـل الالتـزام بهـا ، وتابعنـا التطورات والتبدلات التي طرأت على أصول النظام الاجتماعي التي صاغها الرسول الكـريم ، وطبقها الخلفاء حتى وقتنا الراهن ، وأوضحنا كيف انحرفت تلك الأصول بـذلك النظـام عن مساره الذي رُسم له ، وحاولنا تقديم بعض الطروحـات الـتي يمكـن أن تكـون بمثابـة أدوات فعالة للتواصل الحضاري فيما يختص بتشكيل النظام الاجتماعي الإسلامي .

وعرّجنا في الجزء الرابع مـن هـذا المجلـد علـى تنـاول الجـيش كأحـد مقومـات الحـضارة الإسلامية ، وقد مر الجيش الإسـلامي بتطـورات عديـدة أبعدتـه عـن دوره الرائـد في تلـك الحضارة ، إلي أن أصبح لا دور له ، بل ربمـا تحـول إلـي معـوق عنـدما يـصبح أداة مـن أدوات الصراع العـضوي بـين أبنـاء الإسـلام ! ، لقـد تابعنـا رحلـة الجـيش في الحـضارة الإسلامية ، وقدمنا ما نرى أنه يمكن أن يعيد للجيش سابق عهده في الحـضارة الإسـلامية ، وأن يجعل منه أداة حيوية للتواصل الحضاري الإسلامي مشروع القرن .

وفي الجزء الخامس أتينا على مقوم آخر من مقومات الحضارة الإسلامية ، يتعلق بالمدنية والعمران، وهو ينتظم في ثلاثة مرتكزات مترابطة ، هي التخطيط العمراني والعمارة والتشكيل، كيف تطورت تلك المرتكزات لتصنع المدنية الإسلامية والعمران الإسلامي منذ دولة المدينة وحتى الآن ؟ وكيف انتهى بها الحال في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ؟ وكيف السبيل إلي إيجاد تخطيط عمراني حضاري للمدنية الإسلامية ؟ كل تلك التساؤلات كانت مفردات هذا الجزء .

ثم خصصنا الجزء السادس للمقوم الأخير من مقومات الحضارة الإسلامية ، وهو الخاص بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، حيث تمثل تلك العلوم وتطبيقاتها مرتكزاً رابعاً من مرتكزات المدنية والعمران ، وقد لعب هذا المقوم دوراً حيوياً في الحضارة الإسلامية ، ولكنه كبقية المقومات لم يستمر على حالته الأولى من الازدهار والإيناع ، بل تحول على شاكلتها إلي الذبول والضياع ، وأصبح المسلمون يُنعتون بالجهل والتخلف والتبعية المطلقة للآخر علمياً وتقنياً ، متابعة مفصلة ودقيقة يقدمها هذا الجزء لهذا المقوم من مقومات الحضارة الإسلامية .

وفي الجزء السابع من هذا المجلد انتقلنا إلي تناول ثلاثة مسائل تحددت المسألة الأولى في خصائص وسمات تلك الحضارة ، وكيف اكتسبت تلك الخصائص والسمات وهل فقدت بعضها ، وكيف يقدر لها الاحتفاظ بتلك الخصائص والسمات ، وكيف يمكنها إعادة ما افتقدته منها ، وتمثلت المسألة الثانية في تطور الحضارة الإسلامية وأهم المراحل التي مرت بها ، وكيف انتقلت من طور إلي آخر ، وما هي طبيعة كل مرحلة ، وكيف انتهى بها الحال إلي ماض وتراث وتاريخ ، وتعينت المسألة الثالثة في علاقات الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات الأخرى ، التي عاصرتها عبر العصور والمراحل المختلفة ، وماذا كانت طبيعة تلك العلاقات ؟ وكيف تطورت من علاقات الحوار إلي الجدال إلي

التنافس إلي الصراع وانتهت بالصدام ! ! .

ثم نأتي إلي الجزء الثامن الذي أردنا له أن يكون بمثابة وقفة المراجعة والحساب والتقييم والتقويم ، حيث ننظر من خلاله إلي حضارتنا وثقافتنا وهي في المعترك ، أين موقعها في سلم أفضليات الحضارات الإنسانية الآن ، وكيف تواجه تطورات المجتمع الإنساني والنظام العالمي بظواهرهما الغريبة وتفاعلاتهما المتقلبة ، هل هي من المرونة والحيوية بما يمكنها من تطويع وتحوير تلك الظواهر والتفاعلات لصالحها أم أنها من العجز والإنهاك بما يقعدها عن إدراك ذلك ، ويحول بينها وبين اللحاق بركب الإنسانية ، كيف ينظر الآخرون إلي حضارتنا ؟ وكيف يتعاملون معها ؟ وماذا يريدون منها ؟ وكيف يرون مستقبلها ؟ وكيف كانت ردة فعل المسلمين إزاء تلك النظرة ، وطريقة التعامل ، ونوايا الآخرين ومقاصدهم واستشرافهم لمستقبل الإسلام ؟ هذه الأسئلة وغيرها هي كذلك ضمن وقفة المراجعة وكشف الحساب الذي يتضمنه الجزء الثامن .

تمهيـــــــــد

تثبت المتابعة التاريخية لنشوء الحضارات وتطورها ، ثم لاضمحلالها واندثارها قيام علاقة مباشرة وقوية بين طبيعة كل حضارة في عناصرها ومفرداتها وأشكالها ونماذجها وبين شكل وطريقة نشوئها وتبلورها وظهورها إلى حيز الوجود ، بل وتفاعلاتها وتعاطيها مع عناصر ذلك الوجود وموجودات الكون وقدرتها على الاستمرار والتواصل .

وقد تفرد الإسلام في رؤيته للحضارة الإنسانية عموماً ، وفي صياغته لمفهوم الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص ، وسنعمد إلى تبيان تلك الرؤية وتوضيح تلك الصياغة وتبدو أهمية ما تقدم عند الحديث عن نظرية نشوء الحضارة الإسلامية ، تلك النظرية التي حملت نفس السمة التفردية للإسلام في رؤيته للحضارة الإنسانية .

إن نشوء الحضارة الإسلامية يختلف عن نشوء أية حضارة أخرى ، ويرجع هذا الاختلاف إلى الطبيعة الخاصة التي اتسمت بها تلك الحضارة ، إنها الطبيعة التي تمثلت في عقيدة ذات صبغة إنسانية عالمية اكتسبت منذ ظهورها سمة الكفاحية ، فقد كافحت وهي دعوة سرية ، ثم واصلت كفاحها عندما خرجت إلى العالم ، وبعد ذلك أصبحت الكفاحية دأبها في انتشارها وقدرتها على الاستمرار وامتصاص الأزمات التي تعرضت لها .

في هذا الجزء نتناول مفهوم الحضارة في الإسلام ، ثم نحلل نظرية نشوء الحضارة الإسلامية ، وذلك من خلال البابين التاليين :

الباب الأول : مفهوم الحضارة الإسلامية .

الباب الثاني : نظرية نشوء الحضارة الإسلامية "انطلاقة العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة" .

الباب الأول

مفهوم الحضارة الإسلامية

الإسلام كدين وكمنهج حياة ، يستمد طروحاته وأصول وقواعد ذلك المنهج من الشريعة المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ثم من نماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين من بعده ، وهذه الأصول هي المعين الذي تُستنبط منه تفسيرات الإسلام وتنظيماته لشئون الحياة ، وترتيباته لساراتها بكافة مناحيها ، ولم يدع الإسلام أمراً إلا وقال فيه مقاله ، ولم يدع شأناً إلا وتناوله بالتنظيم .

والحضارة كإحدى أهم نواحي الحياة البشرية ، كان لها في الإسلام شأن عظيم وموقع متميز في طروحاته ، إلي أن وصل الأمر بالحضارة الإسلامية حتى أصبحت تعبيراً عن الإسلام ذاته ، فصارت الحضارة الإسلامية تعنى الإسلام ، واستتبع ذلك أن يكون للإسلام مفهومه الخاص وتعريفه المتميز للحضارة .

ويبدأ الإسلام بتعريفه للحضارة من خلال رؤيته الخاصة لنشأتها ، وهذه الرؤية هي حقيقة يقينية قوامها كلام الله سبحانه وتعالى خالق الكون ومسير حركته ومدبر شئونه والمطّلع علي أسراره والصانع لمفرداته ودقائقه ، فنشأة الحضارة لم يطلع عليها أحد ، ولم تُعرف إلا من خلال آثارها ومخلفاتها ، وما عرفه المعاصرون عن الحضارات البائدة قائم في شق كبير منه علي التخمين والتوقع والاستنتاج المبنى علي افتراضات غير يقينية ، إذ أن اليقين يجُب الافتراض ، ولا يلجأ للافتراض في وجود اليقين ، فإذا جاء الحديث والأخبار عن الحضارات البائدة ، نشأتها وتطورها وزوالها عن الله سبحانه وتعالى مُوجد تلك الحضارات ومزيلها ، فهذا هو حق اليقين وعلم اليقين في ذات الوقت .

وما من شك في أن الوقوف علي حقيقة نشأة الحضارات وتطورها وذهابها سوف يؤدي إلي التفرقة بين الحضارة بمفهومها وكنهها الصحيح ، وبين غيرها من المفاهيم التي تداخلت معها واقترنت بها وتم الخلط بينهما .

وفي نهاية المطاف يمكن الخروج بالمفهوم الإسلامي للحضارة ، أو بعبارة أكثر دقة الحضارة كما يعرفها الإسلام ، وهذا التعريف أو المفهوم سيحمل في طياته خصائص وسمات تعتبرها أساس الحضارة الإسلامية .

في هذا الجزء سندرس مفهوم الحضارة في الإسلام ، وذلك من خلال الفصول الثلاثة التالية :

الفصل الأول : رؤية الإسلام لنشأة الحضارة .

الفصل الثاني : التفرقة بين الحضارة والمفاهيم الأخرى .

الفصل الثالث : خصوصية مفهوم الحضارة في الإسلام .

الفصل الأول

رؤية الإسلام لنشأة الحضارة

الحضارة عبارة عن منظومات متكاملة من الأنماط السلوكية والنشاطات ، يقوم بها الإنسان للتعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، رغبة في تطويعها وتحويرها بما يخدم أهدافه ويحقق مصالحه ، وقد قدر للإنسان المعاصر الكشف عن الحضارات البائدة من خلال وسائل وأساليب شتى ، ولعل أهمها ما تركته تلك الحضارات من آثار وأعمال ، إلا أن الكثير من أسرار ومكنونات تلك الحضارات لا يزال مغيباً عن فضول الإنسان وحبه في الكشف والمعرفة ، مما جعله في كثير من الأحيان يلجأ لحل رموز وطلاسم تلك المغيبات إلي الافتراضات أو التخمينات .

أما بالنسبة إلي الطرح الإسلامي إزاء الكشف عن خبايا وأسرار الحضارات البائدة ، فقد حدد ذلك الطرح مصادره ومنابعه منذ البداية في القرآن الكريم ، الذي بيّن فيه الحق تبارك وتعالى كيف قامت تلك الحضارات ؟ وماذا كانت آثارها ومآثرها ؟ وكيف بادت ؟ كل هذه الوقائع والأحداث التي لم يقدر لأحد من البشر المعاصرين الاطلاع عليها ، أو إمكانية تخيلها ، يبينها الحق تبارك وتعالى ، ويبين كذلك الهدف من تبيانها .

ولعله من الأهمية بمكان قبل الولوج إلي مفهوم الحضارة في الإسلام ، وبالتالي الحضارة الإسلامية ، أن نعرج علي رؤية الإسلام لنشأة الحضارة ، ففي ذلك فائدة كبرى تمهد وترتب لاستيضاح ذاتية الحضارة الإسلامية وشخصيتها المتميزة .

وتتدرج رؤية الإسلام لنشأة الحضارة ، وبالذات ما ورد بشأن ذلك في القرآن الكريم ، في منطلقات متتابعة ، تبدأ باستخلاف الله للإنسان في الكون ، ومنحه العقل والتفكير ، وتكليفه تبعاً لذلك باستخدام عقله وفكره في الإتيان بكل ما هو صواب وصالح ، والابتعاد عن كل ما هو غير ذلك .

وبعد أن استخلف الحق تبارك وتعالي الإنسان في الكون ، أغدق عليه نعمه وهباته في

آيات بينات ، فسخر له المخلوقات والموجودات ، حتى ييسر له الحياة ، ويمهد له سبيل الهداية إلي الأصلح والأمثل .

ومن ثم بدأ الإنسان في التعامل مع المخلوقات المسخرة والموجودات المذللة ، ونتج عن ذلك التعامل أشكال من التكوينات والابتكارات والإبداعات هي ما يعرف بالحضارات .

وقد ورد ذلك التسلسل في القرآن الكريم ، وبيّن الحق تبارك وتعالى أهم الحضارات ، وكيف قامت ، وفيما برعت ، وماذا كان مآلها .

في هذا الفصل نتناول رؤية الإسلام لنشأة الحضارة ، كما ورد في القرآن الكريم ، وذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : استخلاف الله للإنسان في الكون .

المبحث الثاني : تسخير الله للمخلوقات والموجودات لخدمة الإنسان .

المبحث الثالث : تعامل الإنسان مع عناصر الوجود وموجودات الكون .

المبحث الرابع : أهم الحضارات القديمة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم .

المبحث الأول

استخلاف الله للإنسان في الكون

لقد خلق الله الإنسان في الأرض واستخلفه فيها ليعمرها ويعبد الله ويقيم شرعه ، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] ، تفيد الآية الكريمة أن الله قد خلق الإنسان في الأرض ، وجعله مستخلفاً فيها ، أي أقواماً يخلف بعضهم بعضاً ، وقرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل .

وقال تعالى ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[2] ، وقد جاء الاستخلاف في هذه الآية الكريمة بمعنى إحلال قوم محل قوم .

وقال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[3] ، ويقول الحق تبارك وتعالى في هذه الآية أنه هو الذي جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف .

وقال تعالى ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] ، يذكر الله تعالى قوم عاد على لسان نبيه هود بما أنعم عليهم من نعمه في جعلهم من ذرية نوح ،

---

[1]. سورة البقرة : ٣٠ .

[2]. سورة الأنعام : ١٣٣ .

[3]. سورة الأنعام : ١٦٥ .

[4]. سورة الأعراف : ٦٩ .

جاءوا بعدهم وملكوا الأرض ومكن لهم فيها .

وقال تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1] ، كذلك تحمل هذه الآية خطاباً من الله موجهاً إلى قوم ثمود على لسان نبيهم صالح يذكرهم بفضل الله عليهم إذ جاء بهم في أعقاب قوم عاد ومن عليهم بالنعم التي قابلوها بالكفر والجحود .

وقال تعالى ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، تحمل هذه الآية الكريمة شكوى بني إسرائيل إلى موسى مما فعله بهم فرعون وقومه قبل مجيء موسى وبعده ، فواساهم موسى على واقع حالهم ، وأخبرهم أن الله سيهلك فرعون وملئه ، وسوف يجعلهم يخلفونه في ملكه ، وسيكون ذلك بمثابة اختبار لهم أيشكرون أم يكفرون .

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[3] ، في الآيات الكريمة التي سبقت هذه الآية أخبر الحق تبارك وتعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله قوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له .

وقال تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا

---

[1]. سورة الأعراف : ٧٤ .

[2]. سورة الأعراف : ١٢٩ .

[3]. سورة يونس : ١٤ .

بِـَٔايَٰتِنَآۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾[1] ، في هذه الآية إخبار من الحق تبارك وتعالى عن مصير قوم نوح الذين كذبوه فأهلكهم الله بالغرق ، واستخلف من بعدهم الذين نجوا مع نوح في الفلك .

وقال تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ ﴾[2] ، في هذه الآية يقول نبي الله هود لقومه إن توليتم وأعرضتم عما جئتكم به من الحق والبينات فسوف يذهبكم ربي ويأتي بقوم غيركم يخلفونكم في الأرض .

وقال تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[3] ، وفي هذه الآية الكريمة وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد .

وقال تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[4] ، وخلفاء الأرض في هذه الآية تعني أن يجعلهم الله أمةً بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم حتى يتوارثوا الأرض ويعمروها ويستمتعوا منها بما سخره الله لهم وأمدهم به من نعم وآيات .

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ

[1]. سورة يونس : ٧٣ .

[2]. سورة هود : ٥٧ .

[3]. سورة النور : ٥٥ .

[4]. سورة النمل : ٦٢ .

﴿ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾[1] ، وفي هذه الآية الكريمة يخبر الحق تبارك وتعالى بعلمه غيب السماوات والأرض وأنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وهو الذي جعل الناس خلائف يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم .

وقال تعالى ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[2] ، في هذه الآية الكريمة أمر الحق تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله ، وحث على الإنفاق مما جعل الناس مستخلفين فيه ، أي مما مع الناس من أموال على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي من قبلهم ثم صار إليهم وسوف يؤول إلي من بعدهم .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء " .

ترشدنا جملة الآيات التي أوردناها إلي أن الله قد استخلف الخلق في الأرض ، وجعلهم يتواردون جيلاً بعد جيل وأمةً بعد أمة ، يعمرون الأرض ، وينعمون بخيراتها ، ولعل استخلاف الله للناس في الأرض هو أول الأسس التي ترتكز عليها الظاهرة الاقتصادية ثم الاقتصاد كسلوك إنساني يرمي إلي التعامل مع ماديات الحياة وموجوداتها .

---

[1]. سورة فاطر : ٣٩ .

[2]. سورة الحديد : ٧ .

المبحث الثاني

تسخير الله للمخلوقات والموجودات لخدمة الإنسان

سخر الله موجودات الكون لخدمة الإنسان وتحقيق ما يضمن له الحياة ويكفل له البقاء والاستمرار ، وبعد عملية التسخير أمد الله سبحانه وتعالى الإنسان بمقومات الحياة ومستلزماتها ، وسنوضح ذلك فيما يلي :

أولاً : الله سخر موجودات الكون لخدمة الإنسان :

بعد أن أوضحنا كيف أن الله قد استخلف الإنسان في الأرض يورثه إياها ويعيره موجوداتها ، نوضح هاهنا كيف سخر الله موجودات الكون لخدمة الإنسان وتحقيق ما يضمن له الحياة ويكفل له البقاء والاستمرار .

قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[1] ، في هذه الآية الكريمة يخبر الحق تبارك وتعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها ، ثم استوى سبحانه على العرش من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل ، وسخر الشمس والقمر ، وذكرهما لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، ولما في تسخيرهما من فوائد ومصالح تتوقف عليهما حياة الإنسان المستخلف في الأرض .

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

[1] سورة الرعد : ٢ .

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] . في هذه الآيات المباركات يعدد الحق تبارك وتعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السماوات والأرض فراشاً وأنزل من السماء ماءاً فأخرج به ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على ماء البحر وسخر البحر لحملها وسخر الأنهار رزقاً للعباد من شرب وسقي ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار ، وهيأ للخلق كل ما يحتاجون إليه في جميع أحوالهم .

وقال تعالى ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[2] ، في هذه الآيات الكريمة يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وما فيها من منافع وفوائد ، وكذلك الدواب كالخيل

---

[1]. سورة إبراهيم : ٣٢-٣٤ .

[2]. سورة النحل : ٥-١٥ .

والبغال والحمير للركوب والزينة ، ومن خلق الله بعد ذلك من صنوف ووسائل النقل كذلك ذكر تعالى نعمته في إنزال المطر للشرب وسقي الزروع والنباتات ، ونعمته كذلك في تسخيره الليل والنهار والشمس والقمر والبحار والجبال والنجوم .

وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، في هذه الآية الكريمة يخبر الحق تبارك وتعالى أنه قد سخر ما في الأرض من حيوان وجماد وزروع وثمار للإنسان الذي استخلفه فيها .

وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[2] ، كذلك يذكر الله تعالى في هاتين الآيتين أنه سخر للإنسان البحر وسخر له ما في السماوات من الكواكب وما في الأرض من الجبال والبحار والأنهار وجميع ما ينتفع به الناس من فضله وإحسانه .

ثانياً : الله أمد الإنسان بمقومات ومستلزمات الحياة :

أوضحنا فيما سبق كيف استخلف الله الإنسان في الأرض ليعمرها جيلاً بعد جيل وأمةً بعد أمة ، ثم سخر له موجودات الكون ومخلوقاته لتتم عملية الاستخلاف والإعمار على أكمل وجه وأتم صورة ، ويلاحظ أن التسخير قد تم لظواهر الطبيعة التي لا مقدرة للإنسان على التغلب عليها بدون هذا التسخير والتذليل ، وبعد عملية التسخير أمد الله سبحانه وتعالى الإنسان بمقومات الحياة ومستلزماتها المباشرة مثل الأموال والبنين ، فالتسخير قد تم للظواهر والمخلوقات والموجودات العظيمة ، أما الإمداد فقد تم لأسباب الحياة المباشرة .

---

[1]. سورة الحج : ٦٥ .

[2]. سورة الجاثية : ١٢ و ١٣ .

قال تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾[1] ، وهذه الآية في شأن بني إسرائيل ، ولكنها تنسحب على كل بني البشر ، فلا غنى لهم عن إمداد الله لهم بأسباب الحياة المباشرة ، وهي الأموال والثروات بشتى صورها ، والعنصر البشري المتمثل في البنين .

وقال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾[2] ، توضح هذه الآية الكريمة أن الله جل وعلا يمد المؤمن والكافر بالأموال والبنين ، فالمؤمن يمده الله بالمال والبنين لكرامته على الله ومعزته عنده ، أما الكافر فإنما يمده الله بالمال والبنين استدراجاً وإنظاراً وإملاءاً ، وما من شك في أن المال والبنين سبب الحياة المباشر ومقوم الوجود الرئيسي .

وقال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) ﴾[3] ، تحمل هذه الآية إخباراً من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام إذ دعا قومه إلي عبادة الله الواحد الأحد ، وذكرهم بنعمائه عليهم القريبة التي بين أيديهم مباشرة ، والتي بالنسبة لهم سبب الحياة مثل الأنعام والبنين والجنان وعيون الماء العذب .

وقال تعالى ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾[4] ، كذلك توضح هذه الآية الكريمة أن الله يمد الإنسان بالأموال والبنين اللذين يمثلان السبب المباشر للحياة ، كما يجعل الجنات والأنهار ، ويلاحظ أن لفظة الإمداد قد جاءت متلازمة مع المال والبنين ، أما لفظة الجعل فجاءت مع الظواهر الطبيعية مثل الأنهار والشمس والقمر والبحار والسماوات والأرض وكافة محتوياتها .

---

[1]. سورة الإسراء : ٦ .

[2]. سورة المؤمنون : ٥٥ و ٥٦ .

[3]. سورة الشعراء : ١٣٢-١٣٤ .

[4]. سورة نوح : ١٢ .

المبحث الثالث

تعامل الإنسان مع عناصر الوجود وموجودات الكون

بعد أن استخلف الله الإنسان في الكون وحباه الفكر وأيده بالعقل ، ثم سخر له المخلوقات وذلل له الموجودات ، كان علي الإنسان أن يستثمر كافة هذه المعطيات فيما يحقق نفعه وصالحه ، ويستأنس بتلك الموجودات والمخلوقات ، ويتحول معها إلي منظومة متناغمة العناصر متناسقة الأبعاض ، وبالفعل تعامل الإنسان مع المخلوقات والموجودات ، ولكن بأساليب شتى ، واستثمر وجودها بطرق وأشكال مختلفة ، ونتج عن ذلك حضارات برعت في كافة المجالات والأنشطة ، ويمكننا متابعة عملية تعامل الإنسان مع عناصر الوجود ومخلوقات الكون من خلال الآتي :

أولاً : أساليب وطرق التعامل :

باستخدام العقل الذي بدأت قواه محدودة ومتواضعة ، وبمنطق التجربة والخطأ ، بدأ الإنسان الأول تعاملاته مع عناصر الوجود وموجودات الكون وسائر المخلوقات ، ثم نما ذلك العقل وتنوعت قواه ، واتسعت مدركاته ، واكتسب الخبرة والدربة ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يوظف كل هذه المقدرات في اتجاه الأصلح والأمثل دائماً ، بل نوّع سلوكاته وتصرفاته بين هذا وذاك ، وانحصرت تعاملات الإنسان اتجاه عناصر الوجود ومخلوقات الكون بين أسلوبين أو نمطين علي النحو التالي :

❖ الإصلاح في الكون واتباع الأمثل :

من البشر من هداهم الله إلي الصراط المستقيم وطريق الصواب في تعاملاته مع المخلوقات وعناصر الوجود ، فأبدع في تلك العلاقة واستثمرها لصالحه دون إساءة إلي تلك المخلوقات

والموجودات ، وقام بالأعمال العظيمة الباقية ، وقدّم الإنجازات الجسيمة ، فتركت هذه وتلك آثارها حتى الآن .

وفي ذلك قال الحق تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1] ، والتمكين في هذه الآية الكريمة يعني إسباغ النعم والسيطرة علي عناصر الوجود ومخلوقات الله في الكون ، وتوظيفها لمصلحة الإنسان وطاعته ، وهذا التمكين لا يكون إلا بأمر من الله سبحانه وتعالى .

وعباد الرحمن الأتقياء هم الذين إذا مكن لهم في الأرض بالوصف المتقدم ، لا يفعلون إلا الأصلح ولا يؤدون إلا الأمثل ، ويتركون في الكون آثاراً طيبة ، تدلل علي تقواهم وتبرهن علي إيمانهم بالله ولزوم طاعته ، متمثلاً إجمالاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولعل الأمر بالمعروف يدخل في قوامه التعامل بإحسان إلي عناصر الوجود وعدم الإساءة إلي مخلوقات الله في الكون، وهكذا تظهر الحضارات التي تركت آثاراً طيبة .

وقال تعالى في ذات المعنى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2] ، وتبين هذه الآية الكريمة كذلك أن عباد الله المؤمنين المحسنين سيمكن الله لهم في الأرض ويسخر لهم كافة مخلوقاته وموجوداته فيتفاعلون معها ويقيمون من جراء هذا التفاعل حضارات زاهرة ، كما كان حال الحضارة الإسلامية وحضارات الأقوام الأخرى الغابرة الذين أمنوا بالله ووحدّوه وعبدوه حق عبادته .

---

[1]. سورة الحج ، ٤١ .

[2]. سورة النور ، ٥٥ .

ويفيد ما تقدم أن ثمة حضارات قامت علي أساس التعامل والتفاعل مع عناصر الوجود وموجودات الكون بإحسان .

❖ الإفساد في الكون ونشره :

الأسلوب الثاني من أساليب التعامل مع عناصر الوجود هو أسلوب الإفساد وعدم الإصلاح ومحاولة تغيير وتبديل سنن الله في خلقه ، وبالرغم من أن هذا النوع من التعامل يؤدي إلي قيام حضارات وآثار ، إلا أنها كانت تنتهي نهايات مؤسفة ، لأنها حادت عن منهج الله ، وبغت في الأرض الفساد ، وفي ذلك يرد قول الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[1] ، وتبين هذه الآية الكريمة أن الحق تبارك وتعالى قد مكن لأقوام عديدة في الأرض ، فأقاموا الحضارات وعمروها ، ولكنهم عثوا عن منهج الله ، فأخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ودمر حضاراتهم ، لأنهم أقاموها علي الإفساد في الأرض والإساءة إلي مخلوقات الله ، وحاولوا تبديل سنن الله وناموسه في الكون .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

[1]. سورة الأنعام ، ٦ .

[2]. سورة الأعراف ، ١٠ .

[3]. سورة الأعراف ، ٧٤ .

وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ [1] .

ثانياً : أشكال التعامل :

إذا كانت أساليب التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون قد أخذت أسلوبين إما الإصلاح والإحسان ، وإما الإفساد والإضرار ، فإن أشكال التعامل قد تعددت وتنوعت ؛ وكان لكل شكل إفرازاته وآثاره الحضارية الخاصة به ، ويمكن الحديث عن أشكال التعامل في الآتي :

❖ التغيير والتعديل والتبديل :

لعل أول أشكال التعامل مع عناصر الوجود الإنساني وموجودات الكون كانت في محاولات تغيير وتعديل وتبديل مكونات تلك العناصر والموجودات ، وفي ذلك مخالفة صريحة وسافرة لناموس الله وسننه في الكون ، وكانت هذه المحاولات وبالاً علي القائمين بها وعلي مجتمعاتهم التي أقاموها ، فما كان مصيرها إلا الخسران المبين ، لأنها عتت عن منهج الله ، وانحرفت عن سننه ونواميسه .

وتتجسد أهم أشكال التغيير والتعديل والتبديل في وضع الأشياء في غير مواضعها أو استخدامها في غير ما خُلقت له ، حيث أن كلاً ميسر لما خُلق له ، وعندما حاول الإنسان أن يخرج علي هذه القاعدة وهو بصدد التعامل والتفاعل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، أفسد في الأرض وأساء إلي المخلوقات والموجودات ، مما أحدث خللاً في عناصر الكون ومفرداته ، قاد في كثير من الأحيان إلي ثورة عارمة من تلك العناصر والموجودات ،

---

[1]. سورة الروم ، ٩ .

طوحت بالإنسان ودمرت ما كرس من حضارة وآثار ، وكان ذلك بوحي من الله عز وجل جزاءً وفاقاً ، للخروج علي منهجه والانحراف عن سننه .

قال تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[4] .

وقال تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾[6] .

---

[1]. سورة آل عمران ، ١٣٧ و ١٣٨ .

[2]. سورة النساء : ١١٩ .

[3]. سورة الإسراء ، ٧٧ .

[4]. سورة الشعراء ، ١٥١ و ١٥٢ .

[5]. سورة الروم ، ٤١ .

[6]. سورة فاطر ، ٤٣ و ٤٤ .

وقال تعالى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾[3] .

❖ الاكتشـاف :

أما عن ثاني أشكال التعامل مع عناصر الوجود ومخلوقات الله وموجوداته في الكون فيتمثل في الاكتـشاف ، والاكتـشاف يعـني الوصـول إلـي علاقـات جديـدة بـين تلـك العناصـر والموجودات وبعضها ، أو بداخل كل عنصر فيها ، ومن شأن تلك العلاقـات المكتـشفة أن ترقى حياة الإنسان أو تحقق أهدافه ومصالحه . كمـا أن تلـك العلاقـات دائمـاً مـا تكـون موجهة من قبل الله سبحانه وتعالى تجاه الخير والصلاح ، وقد يتدخل فيها الإنـسان بعـد اكتشافها بشكل يخرجها عن مسارها الذي خلقت لتسير فيه ، وعن أهدافها التي سخرت من أجل تحقيقها ، فتختل وتصيب العناصر والمكونات بالخلل والتلف ، وينتج عـن تلـك العلاقات من هذه الحالة نتائج سلبية لا تحقق نفعاً بل ربما تسبب ضرراً .

❖ الابتكـار :

الابتكار كشكل من أشكال التعامل الإنساني مع عناصر الوجـود وموجـودات الله في الكـون يعنى استغلالاً لقدرات وطاقات جديدة موجودة أصـلا في الطبيعـة . وهـذا الاسـتغلال هـو بمثابة جنى لثمار القوى والمقدرات التي سخرها الله في الكون لخدمة الإنسان ، وينبغي أن

---

[1]. سورة الفتح ، ٢٣ .

[2]. سورة الذاريات ، ٤٤ .

[3]. سورة الطلاق ، ٨ .

لا تستأثر فئة من الناس بنتاج هذا الاستغلال ، بل يكون عاماً للجميع فهو من الله إلي عموم الناس .

❖ التطوير :

وبالنسبة إلي التطوير كشكل من أشكال تعامل الإنسان مع عناصر الوجود في الكون فهو يعني تحويل علاقات عناصر وجزئيات الطبيعة من حالة إلي حالة أخرى ، باتجاه زيادة العطاء ، وتعظيم النفع المتحصل من تلك العناصر والجزئيات ، ومفاد ما تقدم أن التطوير هو تحسين الوضع القائم والإضافة إليه .

وعملية التطوير في سياق الإسهام الحضاري ، تعني القيام بعمليات الإبداع في كافة المجالات التي تختص بالتعامل والتعاطي مع عناصر الوجود البشري ومخلوقات الله في الكون وموجوداته .

❖ تطبيقات العلوم والمعارف :

الشكل الأخير من أشكال التعامل مع مكونات الوجود يتجسد في تطبيقات العلوم والمعارف ، حيث يعمد الإنسان إلي تطبيق ما توصل إليه من علوم ومعارف علي الواقع المعاش ، وهذا ما يُعرف بالعلم التطبيقي ، فالأخير ينصرف إلي نقل الأفكار والافتراضات النظرية إلي شواهد ووقائع عملية ، يتعامل بموجبها الإنسان مع عناصر الوجود ، لينتج عن ذلك كافة أشكال التعامل سابقة التبيان من تغيير وتعديل وتبديل ، ثم اكتشاف ثم ابتكار ثم تطوير .

ثالثاً : نتائج التعامل مع عناصر الوجود ومفردات الكون :

عن التعامل بأسلوبيه المتقدمين وأشكاله السابقة تتحقق نتائج حاسمة ، تبدو آثارها

ومعالمها علي عناصر الوجود ومفردات الكون منذ نشأة الخليقة وحتى يومنا هـذا ، فتظهـر المنظومات والأنساق الحضارية في صورة مدنيات زاهرة وإنشاءات عظيمة وأعمال أخرى من قبيل الاكتشافات ، والابتكارات إضافة إلي تنظيمات الحياة وترتيبات المعيشة ، وما كـل ذلك إلا ما يُعرف بالحضارة .

المبحث الرابع

أهم الحضارات القديمة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم

نود في هذا المبحث أن نومئ إيماءً إلي جملة الحضارات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، والتي حدّث عنها الحق تبارك وتعالى للعظة والعبرة ، وليس المقصد من هذه الإيماءات السرد التاريخي أو الرواية ، ولكن الهدف الأساسي هو استيضاح الفنون والضروب التي برعت وتفوقت فيها كل حضارة من تلك الحضارات ، لنخلص في النهاية إلي النهج القرآني في تعريف الحضارة .

وقد تناول الحق تبارك وتعالى في كتابة العزيز الحديث عن سير وشئون الغابرين واصفاً إياها مرة بالقرون ، جمع قرن ، ومرة بالأقوام جمع قوم ، ومرة بالأمم جمع أمة ، ومرة بالقرى جمع قرية ، إلا أن دلالة كل ذلك واحدة ، حيث تشير إلي جماعة من الناس تربطهم أواصر وصلات ووشائج الدم ، ويقيمون في مكان واحد بشكل دائم ، وينظّمون حياتهم ، ويرتبون أمورهم بأسلوب متفق عليه فيما بينهم ، هو في المعتاد سيطرة الأقوى وانصياع وإذعان الأضعف ، والتوضيح فيما يلي :

أولاً : قوم نوح :

لم تقطع الآثار التي وردت عن القوم الذين بُعث فيهم نبي الله نوح بمكان هؤلاء القوم والمناطق التي سكنوها وعمروها ، ولكن الثابت انهم قد انحدروا من نسل ولد آدم قاتل أخيه ، وهو قابيل ، ولم ترد أية إشارات عن آثار أو معالم تركها هؤلاء القوم وهذا يدلل علي أن حضارة قوم نوح لم تكن حضارة إنشاءات وأثار ومعالم ، بل ربما برعت في شأن آخر من شئون الحياة .

ولعل أول ما يجذب الانتباه في حضارة قوم نوح هو طول أعمار هؤلاء القرم ، فقد عاش

نبي الله نوح في هذه الأمة ألف سنة إلا خمسين ، وهو يدعوهم إلي الإيمان بالله وتوحيده ، وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] ، وقد جاءت عبارة يؤخركم إلي أجل مسمى بمعنى يطيل في أعماركم أكثر من المعتاد .

وكذلك قال الله تعالى في تحديد عمر نبي الله نوح ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[2] .

كذلك يتبين أن قوم نوح كانوا يميلون إلي الاعتزاز بأنسابهم وأحسابهم ، وكذا بالماضين من كبرائهم وسادتهم ، وكانوا يخلّدون أسماءهم وذكراهم بإطلاق أسمائهم علي آلهتهم ، وقد قال الحق تبارك وتعالى في ذلك :﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[3] ، وما ورد في الآية الكريمة من أسماء الآلهة إن هي إلا أسماءٍ للماضين من سادتهم وكبرائهم أطلقوها علي الآلهة تخليداً وتبركاً .

يضاف إلي ما تقدم أن قوم نوح وكما يبدو من آيات الذكر الحكيم كانوا علي قدر من التنظيم الاجتماعي ، ويبدو ذلك من تقسيم المجتمع إلي طبقتين ، طبقة السادة والكبراء ذوي المكانة والمهابة ، وطبقة العامة الذين أطلق عليهم الكبراء الأراذل أو الأرذلين وهم — حسب مقالتهم — السافلون الناقصو الأقدار .

وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ

[1]. سورة نوح ، ٤ .

[2]. سورة العنكبوت ، ١٤ .

[3]. سورة نوح ، ٢٣ .

﴿ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾[2] .

ثانياً : قوم إبراهيم :

تشير معظم الأدبيات التاريخية في سير الماضين إلي أن موقع قوم إبراهيم نبي الله وأبو الأنبياء وأحد أولى العزم منهم كان في شمال العراق في موضع يقال له نينوى وهو الموصل الحالية ، ولقد ترك قوم إبراهيم بعض الآثار التي لا تزال باقية حتى الآن .

اشتهر قوم إبراهيم بصناعة التماثيل بأحجام مختلفة ، وكانت تتخذ آلهة يعبدها هؤلاء القوم ، واشتهروا كذلك بالقوة وإتقان فنون الكر والفر ، وعن براعة قوم إبراهيم في التماثيل قال الحق تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[4]

وقال تعالى ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[5] .

وقال تعالى ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾[6] .

---

[1]. سورة هود ، ٢٧ .

[2]. سورة الشعراء ، ٢٦ .

[3]. سورة الأنبياء ٥١ ، ٥٢ و ٥٣ .

[4]. سورة الأنعام ، ٧٤ .

[5]. سورة الشعراء ، ٧١ .

[6]. سورة الأنبياء ، ٥٧ .

بالإضافة إلي هذا الجانب الذي برع فيه قوم إبراهيم ، وهو صناعة التماثيل وتشكيل الحجارة والصخور ، برعوا كذلك في فن المحاججة والمجادلة اعتزازاً بقوتهم واغتراراً بكثرتهم ، ووصل الأمر بكبيرهم أو قائدهم إلي الادعاء بأنه الرب الأعلى ، استناداً إلي ملكه الذي آتاه الله إياه ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

ثالثاً : عاد قوم هود :

ثبت تاريخياً بأن عاداً الأولى قوم هود ينحدرون من نسل من نجى مع نوح في سفينته الشهيرة، وقد عمروا وادي الأحقاف من حضرموت باليمن الحالي ، وقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3] .

ويعرف قوم عاد بالعماليق ، حيث اشتهرت أجسامهم بالطول والقوة والشدة ، وقد زادتهم هذه القوة بطشاً وعتواً ونفوراً عن دعوة من أرسل إليهم ، وهو نبي الله هود ، الذي انحدر من بني جلدتهم ، كما كانوا معروفين بقوتهم في الحروب والصراعات مع من جاورهم أو نازعهم، قال تعالى ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ[4]

[1]. سورة البقرة : ٢٥٨ .

[2]. سورة النجم ، ٥ .

[3]. سورة الأحقاف ، ٢١ .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[3] .

وقد برع عاد قوم هود في بناء المدن المنسقة المخططة بإتقان ، والقصور المنيفة والقلاع الشامخة والحصون المحكمة ، ولا تزال تلك المنشآت آية شاهدة علي آثار حضارة عاد الأول بالأحقاف ، لقد كانت هذه الحضارة من الحضارات المشهورة بالعمارة والإنشاءات التي لا نظير لها في التاريخ فقد كانت أبنيتهم مشتهرة بالطول أي الارتفاع وأعمدتها الشاهقة المحكمة.

وقد عُرف قوم عاد بهذا الاسم نسبة إلي أبيهم عاد ، وعُرفوا كذلك في القرآن الكريم بـ"إرم" وهو لقب قبيلة قوم عاد علي اسم جدهم إرم ، وهم ينحدرون من نسل قوم نوح عليه السلام .

قال تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[4] .

---

[1]. سورة الأعراف ٦٩ .

[2]. سورة هود ، ٥٢ .

[3]. سورة فصلت ، ١٥ .

[4]. سورة الشعراء ، ١٢٨ ـ ١٣٠ .

وقــال تعــالى ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾[1] .

وقــال تعــالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٢٦) ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ (٧) ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ (٨) ﴾[3] .

كذلك برعت حضارة عـاد الأولى في إنمـاء المـال وإثمـاره وإكثـار البـنين وتـربيتهم وترتيـب وتنظيم الجنات والزروع ، وما يينعها من أنهار وعيون ، فكثرت أعدادهم ونمت أرزاقهـم ، فألفوا حضارة زاهرة ومدنية عامرة سجلهـا التاريخ ، وشهدت عليها آثارها الباقية .

وقد خاطب الحق تبارك وتعالى أبناء هذه الأمة علي لسان نبيهم هود عليه السلام ، معدداً نعمـه علـيهم ، ومـا مكـنهم فيـه مـن القـدرة علـي إعمـار الأرض وإنـشاء المـدنيات ، فقــال تعــالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) ﴾[4] .

---

[1]. سورة العنكبوت ، ٣٨ .

[2]. سورة الأحقاف ، ٢٤ – ٢٦ .

[3]. سورة الفجر ، ٦ – ٨ .

[4]. سورة الشعراء ، ١٣١ – ١٣٤ .

رابعاً : ثمود قوم صالح :

كذلك كان قوم ثمود أمة ذات حضارة ، تحدث عنها القرآن الكريم في مواضع شتى وقد خلفوا قوم عاد الأولي ، وعمروا منطقة تعرف باسم الحجر بين المدينة والشام ، وقد برع قوم ثمود في نحت القصور والبيوت داخل الجبال ، ولا تزال أثار أهل الحجر شاهدة علي مهارتهم في فن العمارة والنحت وتشكيل الصخور وإنشاء الحدائق الغناء والجنان والعيون ، وقد مكنهم الله من كل عناصر الطبيعة التي تعاملوا معها ، ولكنهم عتوا عن منهج الله ، فكانت عاقبتهم الخسران المبين .

قال تعالى في شأن أهل الحجر قوم ثمود ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) ﴾[4] .

---

[1]. سورة الأعراف ، ٧٤ .

[2]. سورة الحجر ، ٨٠ ـ ٨٢ .

[3]. سورة هود ، ٦١ .

[4]. سورة الشعراء ، ١٤٦ ـ ١٤٩ .

وعُرف عن أمة ثمود أنهم ألفوا التنظيم الاجتماعي والسياسي ، فقد انقسم المجتمع إلي طبقتين : الطبقة الأولي هي طبقة السادة ، وقد عرّفهم القرآن الكريم بالذين استكبروا ، حيث تصدوا لدعوة رسولهم صالح ، وواجهوه بالتحدي والعناد ، والطبقة الثانية هي طبقة العامة ، أو الضعفاء ، وقد عرّفهم القرآن الكريم بالذين استُضعفوا ، وقد آمنوا بدعوة الرسول .

قال تعالى ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾[2] .

وكانت طبقة السادة مكونة من مجموعة من القوى المؤثرة في المجتمع ، وقد حدد القرآن الكريم عدد هذه القوى بتسع فرق أو جماعات ، علي كل جماعة رئيس هو كبيرهم الذين يأتمرون بأمره .

قال تعالى ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[3] .

وقد أذهب الله قوم ثمود ، كما أذهب غيرهم من الأمم التي بعدت عن منهج الله ، ولا تزال آثارهم باقية ، تشهد علي حضارتهم وعمرانهم .

قال تعالى ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[4] .

---

[1]. سورة الأعراف ، ٧٥ و ٧٦ .

[2]. سورة النمل ، ٤٥ .

[3]. سورة النمل ، ٤٨ .

[4]. سورة العنكبوت ، ٣٨ .

خامساً : ذو القرنين ويأجوج ومأجوج :

بالرغم من أن ما ورد في القرآن الكريم فيما يتعلق بعبد الله الصالح ذي القرنين ، يعد محدوداً عند مقارنته بما ورد بخصوص المدنيات والحضارات الأخرى التي تناولناها وسوف نتناولها إلاّ أن هذه الإشارة الواحدة تؤشر إلي أن ذا القرنين قد تعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون التي سخرها له الله ببراعة واقتدار ، وقد خلّف عن ذلك أثاراً باقية تدل علي مكنته ومقدرته ، وتشير بعض الأدبيات التاريخية إلي أن ذا القرنين قد ترك أثاراً حضارية في أكثر من مكان لعل أهمها سور الصين العظيم[1] ، وهو الذي ورد
بخصوصه النص القرآني التالي ، قال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ
ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ
وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ
أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ
وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم
مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن
دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ
خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى
زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا
ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى
حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾[2] .

---

[1]. أنظر للمؤلف ، موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثالث : الإدارة العامة والمحلية في الإسلام ، الجزء الأول ، الإدارة العامة في الإسلام ، الباب الثاني، الفصل الثاني .

[2]. سورة الكهف ، ٨٣ – ٩٨ .

سادساً : قوم فرعون :

تعد أثار قوم فرعون من أشهر ما ورد في القرآن الكريم عن الحضارات والأمم البائدة ، ويرجع ذلك إلي كثرة تلك الآثار التي خلّفوها ، وكذلك إلي اهتمام العالم بها ، وبما تميزت به من مهارة وإحكام ومقدرة علي مقاومة عوامل الزمن والقدم ، وأيضاً إلي حداثتها النسبية وقرب عهدها ، مقارنة بما أوردناه من حضارات أخرى ، ورد ذكرها في القرآن العظيم .

وقد بيّن القرآن الكريم أن الحضارة الفرعونية لم تكن مركزة أو محصورة في منطقة أو مدينة واحدة ، بل كانت موزعة علي مدن عديدة ، وهذا يعنى أن الفراعنة تواردوا علي التاريخ كأجيال وكأسر متعاقبة ، وهذا ثابت في كتاب الله العزيز ، فهناك فرعون إبراهيم الذي مر عليه بزوجه سارة وأخبره أنها أخته ، وما كان من فرعون إلاّ أن أهدى لإبراهيم هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، وهناك بعد ذلك فرعون يوسف ، وقد وردت قصته في القرآن الكريم مفصلة وكاملة ، وهناك أخيراً فرعون موسى الذي هلك غريقاً .

قال تعال ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾[1] .

وقد أقام قوم فرعون في هذه المدن العديدة التي عمروها آثاراً عظيمة ، مثل القصور والمعابد والمقابر والحصون والقلاع ، ولا تزال تلك الآثار قائمة حتى الآن ، يشاهدها العالم ويشهد لهؤلاء الناس بالبراعة والمهارة في التعامل مع ما مكنهم الله فيه من عناصر الوجود ومخلوقات الله في الكون .

قال تعالى : ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا

[1] سورة الأعراف ، ١١١ و ١١٢ .

فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[1] .

لقد ابتكر قوم فرعون طرائق عديدة لصناعة اللبنات التي تدخل في بناء منشآتهم الضخمة الشاهقة المحكمة الهندسة بدقة متناهية ، كذلك كانوا سباقين بارعين في رفع الصروح الشاهقة، وثمة آثار عديدة غير ذلك .

قال تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾[3] .

كذلك برع قوم فرعون في فنون الزراعة والحصاد ، تعويلاً علي وجود مجاري مائية تأتيهم بالمياه بشكل مستديم ، فكانت مصدر النماء والحياة ورغد العيش ، الذي عاش فيه هؤلاء القوم ، فقد استغلوا هذه المجاري المائية في شق الأنهار الفرعية وأوصلوها إلي كل مكان ، وأنشأوا الجنان والزروع ، وفجّروا العيون ، فكثر الزرع والثمر ، وعم الخير والنماء .

كذلك عرف قوم فرعون بما كان لديهم من كنوز ونفائس . تجمع شتى أنواع الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة النادرة ، ولا تزال آثارهم تشهد بذلك ، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم .

قال تعالى﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾[4] .

---

[1]. سورة الأعراف ، ١٣٧ .

[2]. سورة القصص ، ٣٨ .

[3]. سورة غافر ، ٣٦ .

[4]. سورة الشعراء ، ٥٧ ــ ٥٩ .

وقال تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] .

إلي جانب ما تقدم برع قوم فرعون في أمور التنظيم والإدارة ، وكان ذلك أمر طبيعي حتى يتمكنوا من إنجاز هذه الأعمال العظيمة ، التي تحتاج إلي تنظيم جهود جموع عظيمة من البشر ، وقد ارتبط بما تقدم اهتمام فرعون وقومه بمسائل الصراع والحرب وامتلاك مقدرات القوة الجسمانية والعسكرية ، وقد كان فرعون يملك جيشاً قوياً ، كان دائم المفاخرة به عند مطارحاته ومساجلاته مع موسى عليه السلام .

قال تعالى ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾[4] .

سابعاً : مملكة داود وسليمان :

حدثنا الحق تبارك وتعالي عن ما مّن به علي داود وابنه سليمان من النعم الكثيرة ، والتي لم يعطها لأحد غيرهما ، وكيف سخّر لهما العديد من مخلوقاته ، مثل الرياح والجبال والحديد وعين القطر والجن والطير وكافة موجودات الكون ، إلاّ أن هذين النبيين العظيمين قد قابلا كل هذه النعم بالشكر والحمد والعرفان لله الواحد الأحد ، فكانا نعم الرسل ونعم العباد .

وقد أقام داود ومن بعده ابنه سليمان مملكة قوية في فلسطين الحالية ارتكنت قوتها علي

---

[1]. سورة الدخان ، ٢٥ – ٢٧ .

[2]. سورة طه ٧٨ .

[3]. سورة القصص ٦ .

[4]. سورة البروج ، ١٧ ، ١٨ .

القوى الطبيعية التي سخرها الله سبحانه لداود وسليمان وقومهما ، وكذا علي القوى الخفية غير الطبيعية التي اختص الله بها نبييه ، مثل تسخير الموجودات كالجبال والرياح والحديد وعين القطر والمخلوقات كالجن والطيور والدواب .

ولقد مكّن الله لداود منذ أن أعانه علي قتل جالوت حيث أتاه الملك والحكمة التي هي النبوة والعلم ، وبدأ في إقامة مملكته في بيت المقدس من فلسطين الحالية .

قال تعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

لقد انفرد داود ومن بعده ابنه سليمان بأنه النبي الذي أوتى النبوة والملك والعلم ، وأقام حضارة متميزة ، فداود نبي مرسل بعثه الله وأرسل إليه كتاباً مقدساً هو الزبور وقد بُعث داود لبنى إسرائيل .

قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[3]

وتعد حضارة مملكة داود خير برهان علي تسخير الله لمخلوقات الكون وموجوداته لمن يشاء من عباده ، حتى يمكّن له من إقامة الحضارة وإنشاء المدنية ، ومما لاشك فيه أن التسخير

[1]. سورة البقرة ٢٥١ .

[2]. سورة النساء ١٦٣ .

[3]. سورة الإسراء ٥٥ .

للأنبياء يختلف عن التسخير للبشر ممن هم دون ذلك ، فالتسخير للأنبياء والرسل يجعل المخلوق أو الموجود يبادر بالحركة والفعل ، ليقوم بما يريده النبي أو الرسول ، حتى ولو لم يأمره النبي بذلك ، أما تسخير الله لمخلوقاته وموجوداته للبشر ممن هم دون الأنبياء والرسل ، فهو يتم من خلال الإيحاء لتلك المخلوقات والموجودات بالطاعة وعدم الاعتراض علي ما يقوم به الإنسان ، وهو بصدد التعامل أو التفاعل معها ، فهي تطيع ولكنها لا تبادر بالفعل الملبي لاحتياجات ورغبات النبي أو الرسول .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾[1] .

واشتهر داود بصناعة آلات الحرب من سيوف ورماح ودروع ، ولقد علمه الله كيف يصهر الحديد ، ويشكله علي أشكال تلك العدد الحربية ، وكان داود حاذقاً ماهراً بارعاً في صناعة تلك العدد الحربية ، وقد كانت تلك العدد سبباً مباشراً لانتصارات جيوشه في معاركها .

قال تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[2]

ويبدو الفارق شاسعاً بين رد فعل النبي علي عطاء الله ورد فعل غيره من بنى البشر الذين مكّن الله لهم في الأرض من أصحاب الحضارات السابقة التي استعرضناها فيما سبق ، فقد قابل داود عليه السلام نعمة الله وعطاءه بالشكر والحمد والعرفان والطاعة .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

---

[1]. سورة سبا ، ١٠ .

[2]. سورة الأنبياء ، ٧٩ ، ٨٠ .

[3]. سورة النمل ، ١٥ .

وقد وهب الله لداود سليمان ابناً صالحاً حكيماً نابهاً ، فأعطاه الله جلّ وعلا النبوة والعلم والملك وجعله وارثاً لأبيه ، فواصل الاهتمام بمملكة داود التي أصبحت مملكة سليمان ، وتواصل كذلك العطاء الحضاري لتلك المملكة فظهرت فنون جديدة وسخر الله تعالى لسليمان خلقاً آخرين وموجودات شتى في الكون .

قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2] .

لقد كان عطاء الحق تبارك وتعالى لسليمان وافراً سخياً ، فقد مّن الله تعالى علي ذلك النبي بالملك ومعه العلم والفهم وسعة الأفق وقوة البصيرة والإدراك .

قال تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[3] .

وقد سخر الحق تبارك وتعالى كذلك لسليمان العديد من قوى الطبيعة والكثير من مخلوقاته وموجوداته ، وقد استغل سليمان عليه السلام كل ذلك أحسن استغلال حيث أقام حضارة زاهرة في مملكته الشهيرة .

قال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[4] .

---

[1]. سورة ص ، ٣٠ .

[2]. سورة النمل ، ١٦ .

[3]. سورة الأنبياء ، ٧٩ .

[4]. سورة الأنبياء ، ٨١ ، ٨٢ .

وقال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾[2] .

ثامناً : مملكة سبأ :

تُنسب هذه المملكة إلي قبيلة سبأ المشهورة في مأرب باليمن الحالي ، وقد أوتيت هذه البلاد من خيرات الله ونعمه ما صار حديث المعاصرين ، فقد تمتعت هذه المنطقة بالمناخ المعتدل ، والجو المنعش ، فلم يكن فيها سباخ ولا بعوض ولا ذباب ولا أية حشرة مؤذية ، أُنشئت فيها الجنان التي غُصت بطيب الثمار ، وكانت تتخللها العيون والأنهار ، التي مصدرها المياه العذبة من الأمطار . التي تتجمع خلف سد شهير عُرف بسد مأرب ، وقد أقيم هذا السد التي لا تزال أثاره باقية علي طرز من العمارة غير عادية ، وقد أُشتهرت كذلك هذه الحضارة بمساكنها وقصورها الخلابة ولا تزال ثمة بقية من آثار هذه الحضارة .

قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[3] .

إلي جانب ما تقدم من اوجه الحضارة التي برعت فيها مملكة سبأ كان أهل هذه المملكة قوماً أولي قوة وأولي بأس في الحروب والصراعات ، وكانوا علي قدر يعتد به من التنظيم السياسي والإداري ، حيث كانت تملكهم امرأة ذائعة الصيت هي بلقيس وكان لها كما

---

[1]. سورة النمل ، ١٧ .

[2]. سورة ص ، ٣٥ ــ ٣٩ .

[3]. سورة سبأ ، ١٥ .

سيرد في الذكر الحكيم مجلس استشاري ، تستشيره في كل شئون الحكم والإدارة الخاصة بالبلاد ، ولقد انتهى مآل هذه المملكة إلي أن أصبحت تابعة لملكة سليمان ، وصارت بلقيس إحدى زوجاته ودخل أهل هذه المملكة الإسلام .

قال تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] .

---

[1]. سورة النمل ، ٢٢ و ٢٣ .

[2]. سورة النمل ، ٢٨-٣٤ .

[3]. سورة النمل ، ٤٤ .

الفصل الثاني

التفرقة بين الحضارة والمفاهيم الأخرى

نظراً لأهمية مفهوم الحضارة عموماً ، وفي الطرح الإسلامي بشكل خاص ، فلا ينبغي أن تتداخل أو تتشابك معه مفاهيم أخرى مهما اقتربت منه أو تآلفت معه ، ومن الأهمية بمكان في مثل هذه الأعمال الموسوعية ذات الطبيعة الفكرية العميقة ، أن يتم وبشكل دقيق تحديد المفاهيم وتدقيق معانيها ومدلولاتها وتنقيتها من أي لبس أو غموض .

ومدرك الحضارة من المدركات التي ثار حول تعريفها جدل كثيف ، بل واختلطت وتداخلت مع مدركات أخرى إلي درجة أثارت الكثير من التشويش علي مدلولها الفكري ومفادها العقلي والمعرف .

وينبغي منذ البداية أن نتعامل مع مفهوم الحضارة بشكل نقي ودقيق ، خال من أي تشويش أو تهويم ، لأن هذا المفهوم هو قوام هذه الدراسة ، ولا يجوز منطقياً أن يختل القوام أو تبهم أركانه ، فماذا إذن تعنى الحضارة ؟

وإذا أردنا لمفهوم الحضارة الوضوح التام فينبغي أن نوضح وبدقة أيضاً ما تداخل معه من مفاهيم ، ولعل مفهوم المدنية من أهم المفاهيم التي تداخلت واختلطت بمفهوم الحضارة ، فما هي حدود كل مفهوم ؟ وما هي نقاط وخطوط التماس بينهما ؟ من شأن إيضاح مفهوم المدنية أن يزيد من إيضاح مفهوم الحضارة ويجليه .

وكذلك من الموضوعات أو المفاهيم التي تداخلت بشكل أو بآخر مع مفهوم الحضارة مفهوم العمران ، فماذا يعنى العمران ؟ ومتى يلتقي مع مفهوم الحضارة ؟ .

في هذا الفصل سنتناول بالتحليل والتفصيل كل مفهوم من المفاهيم الثلاثة المذكورة ، ثم نردف ذلك بدراسة العلاقة بين مفهوم الحضارة وكل مفهوم من المفهومين الآخرين ، وذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : مفهوم الحضارة

المبحث الثاني : مفهوم المدنية

المبحث الثالث : مفهوم العمران

المبحث الأول

مفهوم الحضـارة

لا يعنينا كثيراً المدلول اللغوي للفظة الحضارة ، حيث أنه لا يفيد كثيراً في تحديـد المعنـى الإجمالي الكلي ، وكذا المضمون الفكري العقلي لهـذه اللفظـة ، فكـثير مـن الألفـاظ تكـون مدلولاتها ومعانيها أعمق وأشمل بكثير من مدلولاتها اللفظية الحرفية المباشـرة ، ولكـن مـا يهمنا ويشغل بالنا هو المعنى الاصطلاحي الفكري والمعرفي للفظة الحضارة .

وينبغي أن نؤكد مـن البدايـة أننـا ننطلـق في تحديـد وتـأطير معنـى الحـضارة مـن الطـرح الإسلامي في هذا الخصوص ، وهذا الطرح شأنه شأن أي طرح أو إسـهام فكـري آخـر لـه خصوصيته وتميزه الفكري والتحليلـي ، ولـه كـذلك منطلقاتـه وحيثياتـه ، ولـه في نهايـة المطاف أهدافه وغاياته التي ينتهي إليهـا .

فالحضارة عبارة عن منظومات متكاملة من الأنماط السلوكية والنـشاطات الحركيـة ، الـتي يقوم بها الإنسان عن وعي وإدراك للتعامل مع عناصر الوجود وموجـودات الكـون رغبـة في تطويعها وتحويرها بما يحقق أهدافه ويخدم مصالحه .

وفي تحليل هذا التعريف الإجمالي ما يفيد المعنى ويزيده وضوحاً ، ويمكن القيام بذلك مـن خلال ما يلي :

أولاً : الـشمولية والعموميـة لكافـة التعـاملات الإنـسانية مـع عناصـر الوجـود البـشري وموجودات الكون ، فكل ما يصدر عن الإنسان من نشاط أو حركة في اتجاه عناصر الوجود وموجودات الكون قـد نـتج عنـه ضـرب مـن ضـروب الحـضارة ، فإقامـة الـســدود علـي المجاري المائية ضرب من ضروب الحضارة ، وإجراء الأنهار واستخدام تياراتهـا المائيـة في النقل أو توليد الطاقة هو كذلك ضرب من ضروب الحـضارة ، كمـا أن اسـتغلال الريـاح أو

المياه الجوفية المندفعة بقوة أو طاقة الحرارة المنبعثة من الشمس أو ضوء القمر هو كذلك ضرب من ضروب الحضارة ، يستوي ما تقدم مع نحت الجبال وتشكيل الصخور لإقامة الحصون والقلاع والمنشآت العملاقة .

ثانياً : الحضارة كذلك تعنى بالسلوكات والتصرفات والنشاطات الظاهرة الملموسة ، وهذا العنصر في غاية الأهمية ، فالنشاط العقلي أو الذهني الذي يظل حبيس الفكر ولا يخرج إلي حيز النشاط والتصرف والفعل والسلوك لا يعد ولا يصنف في عداد السلوك أو التصرف الحضاري ، ولا وزن له ولا اعتبار في سياق الحضارة ، فالعبرة إذن عند الحديث عن الحضارة بالسلوك والتصرف والنشاط الظاهري الملموس .

ثالثاً : أيضاً السلوك الحضاري لابد أن يصدر عن وعي وإدراك كاملين ، فهو إذن سلوك رشيد ونشاط واعي وحركة محسوبة ، وراء كل ذلك عقل مدبر وفكر محكم ، فالحضارات لم تقم علي العشوائية والارتجالية .

رابعاً : أن نشاط الإنسان وسلوكه وحركته موجهة نحو عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات بالكون ، فعناصر الوجود هي المجال الحيوي لقيام الحضارات وازدهارها ، والنتيجة النهائية للتفاعل بين نشاط الإنسان وحركته من ناحية ، وبين عناصر الوجود من ناحية أخرى ، هي التي تنبئ عن قيام حضارة من عدمه ، فقد تكون نتيجة التفاعل بين الطرفين المذكورين ازدهار جانب حضاري معين ، وقد تكون نتيجة التفاعل خيبة أمل وإحباط لأنها كانت نشاطات وحركات عابثة ماجنة .

خامساً : إن هدف التعامل الإنساني مع عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات ، يحدده الرغبة المبدئية في تطوير وتحوير تلك العناصر بما يخدم مصلحة الإنسان وهذه المصلحة لا يُشترط أن تكون ذات بعد أخلاقي .

سادساً : البعد الأخلاقي ليس فيصلاً أو أساساً في قيام الحضارة ، إلا أنه من وجهة نظر الطرح الإسلامي فالبعد الأخلاقي أساس لقيام الحضارة ، وإذا افتقدت الحضارة هذا البعد افتقدت أهم أسسها علي الإطلاق ، ومن ثم فالحضارة وفق ذلك الطرح تنتصب علي القيم ، وترتكن علي الأخلاق ، وهذا ما سوف نعّرج علي إيضاحه في موضع مخصوص .

الحضارة إذن منظومة سلوكية حركية شاملة ، تصدر من الإنسان في مواجهة قوى الطبيعة وعناصر الوجود ، لتخلق وضعاً أو حالة تحقق له ما يصبو إليه من حفاظ علي ذاته ، وتطوير تلك الذات بشكل مستمر .

المبحث الثاني

مفهوم المدنيــة

المفهوم أو المدرك الأول الذي يتقاطع ويتشابك مع مفهوم الحضارة هو مفهوم المدنية ونحـن نميل دائماً إلي البعد عن التعـاريف الحرفيـة اللفظيـة لهـذه المـصطلحات والمـدركات ذات الأبعاد الفكرية العميقة والمتأصلة ، ونفضل تعريفها وفق مـا تحملـه مـن معـاني ومـدلولات فكرية ذات طبيعة حراكية في وسطها وبيئتها التي نشأت فيها وتتحرك في إطارها .

فالمدنية هي ضرب من ضروب الحضارة ، أو حالة من حالاتها ، أو شكل مـن أشـكالها ، أو مرحلة من مراحلها ، حيث تؤدي الحضارة إلي قيام المدنية التي هي عبارة عـن شـكل من أشكال الحياة ، التي تتعقد وتتشابك في جوانبها المختلفة ، وتسود فيها أنماط سلوكية وعلاقات اجتماعية أكثر رقياً وتطوراً عن مراحل وأطوار حضارية أخرى .

وعلي ذلك فالمدنية هي شـكل مـن أشـكال الحـضارة ، ومرحلـة مـن مراحلـها ، فالبـداوة حضارة ولكنها ليست مدنية ، وهي أي البـداوة عكـس المدنيـة فهـي عبـارة عـن حـضارة بسيطة قائمة علي التعامل مع عناصر الوجـود الإنـساني وموجـودات الكـون بـشكل معـين وبتفكير بسيط ، أما المدنية فهي حضارة معقدة تتشابك فيها عناصر وأشـكال التعامـل مـع عناصر الوجود الإنساني.

الحضارة دائماً إذا قدّر لهـا الاسـتمرار في مـسيرة التطـور والارتقـاء تـؤدي إلـي المدنيـة ، والعكس ليس صحيحاً ، فلا يمكن للمدنيـة أن توجـد أولاً وتـؤدي إلـي قيـام الحـضارة ، وذلك لان المدنية مرحلة من مراحل الحضارة وطور من أطوارها .

كذلك فالحضارة أكثر شمولاً وعمومية من المدنية ، وكذا فهي أكثر عمقاً ، فالحضارة تشمل كافة أشكال وصور التعامل مع عناصر الوجود ، أمـا المدينـة فهـي حـصاد لـذلك التعامـل

ونتيجة له .

المدنية إذن تستفيد من نتاج الحضارة ومعطياتها ومخرجاتها ، في حين أن الحضارة حصاد لتعاملات الإنسان مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، من ثم فالإنسان يفرز وينتج الحضارة أولاً ثم تؤدي الحضارة إلي قيام المدنية .

صفوة القول أن مفهوم المدنية لصيق ومرتبط عضوياً بمفهوم الحضارة ، ولكن ثمة فرق شاسع بين المفهومين ، ولا ينبغي أن يتوهم الإنسان ، وبصفة خاصة إذا كان محللاً متعمقاً أن المدنية مرادف للحضارة بأي حال من الأحوال ، وإلاّ فسوف تختلط الأمور وينعكس ذلك علي سلامة التحليل ، ودقة الطرح وحصانة النتائج .

المبحث الثالث

مفهوم العمـــران

المفهوم الثالث الذي يتشابك مع مفهـومي الحضارة والمدنية هو مفهوم العمـران ، والعمـران صفة للمدنية والحضارة ، وهو في ذات الوقت حالة أو مرحلة من مراحل الحضارة ، وهـذا المفهوم حديث نسبياً إذا ما قـورن بكـل مـن الحـضارة والمدنيـة ، وهـو في ذات الوقـت لا يستعمل كثيراً ، و لا يشيع إلا في أوساط ودوائر بذاتها .

والعمران يرتبط بالتعمير ، وكل منهما يعني التخطيط والإعداد لإحـداث نقلـة حـضارية أو مدنية لمجتمع من المجتمعات ، ويتعلق كذلك هذان المفهومان بالإنماء والإحداث .

فالعمران إذن مثل المدنية حالة من حـالات الحـضارة وشـكل مـن أشـكالها ، ولكنـه أقـل تعقيداً وعمقاً من المدنية ، وأقل شمولاً كذلك ، ولكنه يعد دائماً مظهراً من مظاهرها .

والعمران يعد تعبيراً عن شكل من أشكال الحيـاة الحديثـة والمتطـورة ، ويـدل علـي تطـور المجتمع ورقيه .

الفصل الثالث

خصوصية مفهوم الحضارة في الإسلام

في الفصلين السابقين تابعنا نهج القرآن الكريم في استعراض نشأة الحضارات القديمة والمجالات التي برعت فيها كل حضارة من تلك الحضارات ، وما اختصها الله به من عناصر التفوق ومقومات الريادة ، ثم حللنا بعد ذلك مفهوم الحضارة ، وحاولنا توضيح العلاقة بينه وبين مفهومين آخرين يرتبطان به ارتباطاً عضوياً .

وفي هذا الفصل نكمل ما بدأناه بخصوص إيضاح مفهوم الحضارة في الإسلام ، وينبغي أن نكرر ثانية أن هذا المفهوم يعد ذا خصوصية وتميز ، نظراً لخصوصية وتميز مصدر الطرح الخاص به وهو القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم هو المصدر الأساسي للطرح المتعلق بمفهوم الحضارة من وجهة نظر إسلامية .

لقد استعرضنا رؤية الإسلام والقرآن تحديداً لنشأة الحضارة من خلال أطوار أو منطلقات ثلاثة متتابعة ومتعاقبة ، بدأت باستخلاف الله للإنسان في الكون ، ثم تسخيره سبحانه وتعالى للمخلوقات والموجودات لخدمة الإنسان ، وتسهيل حياته وتخفيف مكابدته في الحياة ، ثم تعامل الإنسان مع عناصر الوجود وموجودات الكون وفق مشاربه وتوجهاته .

بعد ذلك تابعنا العرض القرآني الرائع والبديع لأهم حضارات وآثار الأمم السابقة ، كيف نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ وفيما برعت ونجحت ؟ وماذا كانت عاقبتها ؟ وكيف سخر الله لها عناصر الوجود ؟ وذلل لها المخلوقات لكي تبدع وتزدهر ؟ .

والآن نحاول أن ننطلق مما تقدم للبحث عن خصوصية الطرح الإسلامي وتميزه ، فيما يتعلق بعناصر نشأة الحضارة وأسباب زوالها ، ثم نخلص إلي معنى الحضارة في الطرح الإسلامي .

ولقد أُطلق العنان للفكر البشري فطفق يفرز من النظريات العديد ، الذي يحاول أن يتوصل — ولو علي سبيل التخمين والحدس أو الاستشهاد ببعض الظواهر والآثار — إلي عوامل

ومقومات نشأة الحضارة ، إلا أنه في احسن ما قدم ، لم يقدم إلا مقتربات بسيطة وساذجة ينقصها عنصر التأكيد ويعوزها الوثوق .

أما عن معنى الحضارة في الطرح الإسلامي ، فهو أيضاً ذو خصوصية وتميز ، فلقد سبق لنا تقديم تعريف مفصل للحضارة ولكن بشكلها العام ، وليس وفقاً للرؤية الإسلامية ، أما الإسلام فله تعريفه المميز ومفهومه المتفرد للحضارة .

في هذا الفصل نحلل خصوصية الطرح الإسلامي فيما يتعلق بالموضوعين سالفي الذكر وهما عناصر نشأة الحضارة وعوامل زوالها ، ثم مفهوم الحضارة ، وسيتم ذلك من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : عناصر نشأة الحضارة وعوامل زوالها

المبحث الثاني : مفهوم الحضارة

المبحث الأول

عناصر نشأة الحضارة وعوامل زوالها

مما لاشك فيه أن الحديث عن عناصر نشأة الحضارة عندما يصدر عن محلل قديم أو معاصر ، فإن ذلك يرتبط عضوياً بثلاثة أمور :

الأمر الأول :

طبيعة مفهوم الحضارة ، ودقة ذلك المفهوم ، ووضوحه في ذهن المحلل ، فإذا كان المفهوم واضحاً ودقيقاً ، فسوف يكون التحليل سليماً ومعبراً ونتائجه صحيحة ، أما إذا كان الحال علي خلاف ذلك ، فسوف يكون التحليل ونتائجه علي العكس مما تقدم .

الأمر الثاني :

التكوينات الفكرية والبيئة المعرفية والمدركات الخاصة بالمحلل فالمحلل ينطلق في تحليله وهو مدفوع ، ولو بشكل غير صحيح ، بما لديه من تكوينات فكرية وبيئة معرفية ومدركات ذاتية ، لما حوله من حقائق ووقائع ، وينعكس ذلك علي نتائج التحليل وخلاصته .

الأمر الثالث :

مصدر الطرح ، حيث يستقي كل محلل في تحليله لعناصر نشأة الحضارة وعوامل زوالها ، مقدماته ومسلماته وحيثياته التي يرتكن عليها من مصدر محدد المعالم واضح الملامح ، ولقد قال بعض من تعرضوا لهذه المسألة باعتمادهم علي العقل كمصدر أساسي ، وقال بعض أخر باعتمادهم علي العقل وبعض الآثار والافتراضات العلمية .

أما صاحب هذا العمل فقد اعتمد علي القرآن الكريم ، الذي هو كلام الله ، وعلي العقل

الذي حباه الله إياه ، مدعوماً بقوة الإيمان ، التي تعد حرزاً وسياجاً لذلك العقل ، الذي لا يؤمن عليه من الزلل والخطأ .

لقد قدم القرآن الكريم عناصر نشأة الحضارة في أسلوب منطقي ، يتفق وطبيعة العقل البشري بل وبما يحثه علي التفكير ، وسنعرض لذلك من خلال التحليل التالي :

أولاً : عناصر نشأة الحضارة :

يُقصد بعناصر نشأة الحضارة مجموعة المعطيات التي تجمعت وتآلفت وساندت الإنسان من أجل أن يقيم الحضارات ، والتي خرجت منها المدنيات المعروفة علي مر التاريخ وحتى الوقت الراهن ، فهذه العناصر أو المعطيات من الرواسخ أو الثوابت الموجودة بشكل دائم ، فهي لا تتغير ولا تتبدل ، لأنها مرتبطة بنظام الكون وناموس الحياة ، ولكنها قد تتطور وترتقي .

وهذه العناصر موزعة بين ثلاثة ركائز أو أسس ، يمكن متابعتها وتحليلها من خلال الآتي :

❖ **الإله الخالق المدبر :**

هو صانع الكون ومدبر شئونه ومقدّر كل ما فيه من حركات وسكنات ، وبيده ملكوت كل شئ ، وهو علي كل شئ قدير .

❖ **الإنسان :**

خليفة الله في الأرض ، خلقه ومنحه العقل والتفكير ، لكي يعمر الأرض، ويعبد الله ، لأنه خلقه من أجل هذه الغاية بالأساس ، والإنسان هو الفاعل الأساسي والرئيسي ظاهرياً ، فيما يتعلق بنشأة الحضارة وتطورها ، أما واقعياً فكل راجع إلي توفيق الله ومشيئته .

❖ الكون بمخلوقاته وموجوداته :

وهذا هو المفعول به ومعه ، سخره الله من أجل الإنسان ، والإنسان بدوره استغل هذه المسخرات ، إضافة إلي عقله وفكره فأبدع الحضارة وطورها .

وإذا كانت هذه هي الركائز الأساسية الثلاثة التي تتوزع بينها عناصر ومفردات نشأة الحضارة، فماذا كان التتابع أو التسلسل المنطقي الذي تم وكان لهذه العناصر ، حتى قُدّر لها إنتاج الحضارات وبالتالي إفراز المدنيات .

❖ العقل والتفكير :

ميز الله الإنسان بالعقل ، ومتعه بالتفكير الذي هو القدرة علي استخدام العقل وتفعيل مقدراته ، ومهام العقل والتفكير عديدة ، فالعقل للتدبر في آلاء الله وآياته ، ثم الإيمان به عن قناعة واعتقاد ، ثم هو للتفكير في تصريف شئون الحياة ، وتوفير الحياة الطيبة لتمكين الإنسان من عبادة الله ، وعليه فإن هدف إعمار الأرض وغايته هو عبادة الله الواحد الأحد .

والعقل والتفكير اللذان تميز بهما الإنسان علي سائر المخلوقات ، ما هما إلا نتيجة مباشرة لاستخلاف الله للإنسان في الأرض ، فالاستخلاف كرامة وتكريم لبنى آدم ، وعليه فالعقل والتفكير لتتويج الاستخلاف ، وإتمام مدلوله وتحقيق أهدافه ، فخليفة الله في الأرض ينبغي أن يكون ذا لب مفكراً رشيداً ، طائعاً لمن استخلفه ، عارفاً له مقدراً إياه حق قدره .

قال تعالي ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] .

[١] سورة البقرة ، ٣٠ .

وقال تعالي ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴾[1] .

وقال تعالي ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2] .

وقال تعالي ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارٗا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] .

وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[6] .

وقال تعالى ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

[1]. سورة الإسراء ، ٧٠ .

[2]. سورة البقرة ، ٢٤٢ .

[3]. سورة آل عمران ، ١٩٠ و ١٩١ .

[4]. سورة يونس ، ٢٤ .

[5]. سورة يوسف ، ١٠٩ .

[6]. سورة الرعد ، ٣ .

لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4] .

ولم يكن الإنسان رشيداً في فكره دائماً ، بل استخدم عقله وأمعن تفكيره ، ولكنه اتجه نحو ما يحقق أهدافه ويشبع رغباته دون روية أو تمهل ، فعمر الأرض وتمكن منها وأقام الحضارات ، ولم يكن دائماً طائعاً لله شاكراً لأنعمه ، إلا أنه في حالات أخرى استخدم الإنسان عقله منذ البداية ليهديه إلى وجود الله ، ثم توحيده وعبادته وطاعته دوماً ، وبعد ذلك واصل استخدام عقله وتفكيره في إعمار الأرض وإقامة الحضارات عليها ، وظل طائعاً لله مستخدماً كل ما توصل إليه في مرضاته الله وعبادته بحق وصدق .

❖ عناصر الوجود مسخرة ومواتية :

يقصد بعناصر الوجود كل ما يساهم في الحفاظ علي حياة الإنسان وبقائه ، وقد تكون تلك العناصر مخلوقات أو موجودات ، ولعل أهم مهام عناصر الوجود تلك تتمثل — كما سبق

---

[1]. سورة النحل ، ١١ .

[2]. سورة الروم ، ٨ و ٩ .

[3]. سورة الجاثية ، ١٣ .

[4]. سورة الحديد ، ١٧ .

الإيضاح – في حفظ ذات الإنسان وضمان بقائه ، وتتمثل المهمة الثانية لعناصر الوجود في تمكين الإنسان من استخدام عقله في التفكير والتمييز ، وتتمثل المهمة الثالثة في الخضوع والإذعان والاستجابة لمشيئة الإنسان وإرداته في استغلال تلك العناصر في إنشاء وإقامة ضروب وأشكال الحضارة .

ومواتاة عناصر الوجود يعّول عليها كثيراً كعنصر من عناصر نشأة الحضارة ، فإذا كانت تلك العناصر غير مواتية ، ولم تستجب للإنسان ، وأبت أن تذعن له وتنصاع فأنّ يقدّر له إقامة الحضارة وإعمار الأرض ! .

إلا أنه في مقابل ذلك وفي حالات عديدة ، تمكن الإنسان بإرادته القوية ومضائه ، أن يجبر تلك العناصر علي الانصياع والإذعان ، فذلل صعوبتها وألان جفوتها وقسوتها فنحت الجبال الراسية ، وركب البحار العاتية ، وما كل ذلك إلا بتسخير من الله وبتوسيع مداركه وأفهامه، وزيادة حيله وأفكاره .

❖ تعامل الإنسان بعقله مع عناصر الوجود المسخرة :

العنصر الثالث من عناصر نشأة الحضارة يتمثل في عملية التعامل والتفاعل التي تتم بين الإنسان ذي العقل والتفكير وبين عناصر الوجود التي سخرها الله وجعلها مواتية لمقدرة الإنسان ومكناته ، حتى يتمكن من السيطرة عليها واستغلالها وتطويرها لما يحفظ حياته وبقاءه ، وما حفظ الحياة وتمكين البقاء إلا في الإعمار ، والأخير هو الحضارة عينها .

ولم يكُف الإنسان عن التعامل مع عناصر الوجود وتطويعها لرغباته ، فأنشأ الحضارة تلو الأخرى ، وظل يطوّر في تلك العناصر ، ويطوّر بالتالي من أشكال وأطوار الحضارة ، فكل حضارة كانت تبدأ من حيث انتهت سابقتها ، وهنا يبدو ما يعرف بظاهرة الاستخلاف بين الحضارات ، وهذا ما سنوضحه في البند التالي .

ثانياً : عوامل زوال الحضارات :

تحدثنا في البند أولاً عن عناصر نشأة الحضارات ، ورأينا كيف تنشأ الحضارة بفعل تكاتف وتضافر عوامل ثلاث هي : عقل الإنسان ، وتفكيره ، ثم عناصر الوجود المسخرة ، وفي هذه الجزئية نعمد إلي بحث عوامل زوال الحضارة .

فالحضارة كما نشأت وازدهرت تذبل وتنهار وتزول ، فهل لذلك أسباب وعوامل ، إن عوامل ذلك يمكن استنباطها من القرآن الكريم ، حيث أوضح حالة زوال الحضارات وانتهائها ، ويعزو الذكر الحكيم أسباب زوال الحضارات إلي عاملين مرتبطين ببعضهما ، يتمثلان في الآتي :

❖ الإبادة والإهلاك :

أول العوامل التي تكون سبباً مباشراً في زوال الحضارات وذهابها يتمثل في عملية الإبادة والإهلاك ، وإهلاك الحضارات وإبادتها يكون من الحق تبارك وتعالى ، ويكون سببه المباشر ما ارتكبته تلك الحضارات من ذنوب وآثام ، وما قامت به من أفعال وتصرفات خرجت بموجبها عن طاعة الله وموجبات رحمته ، وبذا تكون قد استحقت الإهلاك والإبادة .

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى ذلك تفصيلاً في كتابه العزيز ، فحكى جلّ وعلا كم كانت تلك الحضارات عامرة زاهرة مزدانة بالخيرات والبركات التي مكنها الله فيها واحلها عليها ، ولكنها قابلت تلك الخيرات والبركات بالكفر واالجحود والعصيان ، ولم تؤد واجب النعمة ، فأرسل الله لها الرسل لهدايتها إلي طريق الرشاد ، فلم تستجب تلك الأمم لرسل الله ، فأقام الله عليهم الحجة وأخذهم بذنوبهم وهم ظالمون لأنفسهم .

وهناك من تلك الأمم من أبادهم الله وأهلكهم ودمر حضارتهم وتركها عبرة وعظة لمن جاء

بعدهم من الأمم والأقوام ، ومنها من أورثها الله أقواماً آخرين ، وعليه فعامل الإهلاك والإبادة قد لا يعقبه قيام أو إحياء لتلك الحضارات المهلكة البائدة ، وهناك إهلاك وإبادة يعقبه عملية إحياء وبعث من جديد لحضارات الأقوام البائدين ، حيث يورث الله عز وجل آثار ومتروكات وحضارة الأقوام البائدين لقوم آخرين ، وينظر ماذا هم فاعلون ! فيختبرهم بذلك ويبتليهم أيشكرون أم يكفرون .

قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[1] .

تبين هذه الآية الكريمة أن الله قد اهلك أقواماً عديدة مكن لهم في الأرض ، وأسبغ عليهم النعم ظاهرة وباطنة ، فأقاموا الحضارات وعمروا المدنيات ، إلا انهم كفروا بأنعم الله فأخذهم بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم قوماً آخرين ، ولا يُستدل من هذه الآية أن الإنشاء للأقوام الجدد كانوا في مكان البائدين ، ولكن اغلب الظن ، وهذا ما يفيده معنى الإنشاء ، أن الأقوام الجدد كانوا في أماكن وأزمان مختلفة .

وقال تعالى ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[3] .

وتوضح هذه الآية الكريمة سبب الإهلاك ، وهو ارتكاب الذنوب والمعاصي ، وعدم تصديق الرسل .

---

[1]. سورة الأنعام ، ٦ .

[2]. سورة الأعراف ، ٤ .

[3]. سورة يونس ، ١٣ .

وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴾[4] .

توضح هذه الآية الكريمة مظاهر المدنية والعمران التي عاشتها الأمم البائدة ، متجسدة في متاع بيوتهم من فرش وثياب ، وكذا في مظهرهم وهيئتهم .

وقال تعالى ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾[5] .

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[6] .

إن ما جاء في هذه الآية الكريمة من ذكر المشي في مساكن الأقوام البائدة ، لا يفيد الإقامة في أماكنهم أو توريثهم آثارهم ومتروكاتهم ، ولكن يعنى العظة والعبرة بتلك الآثار والمخلفات .

---

[1]. سورة الحجر ، ٤ و ٥ .

[2]. سورة الأسراء ، ١٧ .

[3]. سورة الكهف ، ٥٩ .

[4]. سورة مريم ، ٧٤ .

[5]. سورة مريم ، ٩٨ .

[6]. سورة طه ، ١٢٨ .

وقـــال تعـــالى ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦ ﴾[1] .

توضح هذه الآية الكريمة أن كثيراً من الحضارات والأمم البائدة تركت آثارها ومخلفاتها دون أن تمتد إليها يد أو يسكنها أو يعمرها أحد ولكنها ظلت للعظة والعبرة .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ۝٥٩ ﴾[3] .

تبين هاتان الآيتان الكريمتان أسباب ما حل علي الحضارات البائدة من إهلاك وإبادة ، وأهم تلك الأسباب الكفر بأنعم الله ، ثم تبين كذلك أن مساكن تلك الأمم وآثارها لم تسكن من بعدهم إلا زمناً قصيراً ، ثم آلت للحق تبارك وتعالى فهو خير الوارثين .

وقـــال تعـــالى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[4] .

---

[1]. سورة الحج ، ٤٥ و ٤٦ .

[2]. سورة القصص ، ٤٣ .

[3]. سورة القصص ، ٥٨ و ٥٩ .

[4]. سورة السجدة ، ٢٦ .

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾[4] .

وقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[5] .

❖ الاستخلاف والميراث [الخلافة والتوارث] :

إذا كان العامل الأول من عوامل زوال الحضارات وانتهائها يتمثل في الإهلاك والإبادة فإن العامل الثاني يتمثل في الاستخلاف والميراث أو الخلافة والتوارث ، فوفق العامل الأول تنتهي الحضارات بإهلاك وإبادة أهلها ، وتظل آثارهم ومخلفاتهم أثراً بعد عين للعظة والعبرة ، ويرثها الله خير الوارثين ، وهنا تنقطع أخبار وأنباء هذه الحضارات ، إلا من تلك الآثار والمخلفات ، ويُقال في هذه الحالة أن الحضارة قد بادت وانتهت ، حيث توقفت عند فترة أو لحظة زمنية معينة ، وأوقفت علي أقوام بذواتهم وصفاتهم .

أما بالنسبة إلي العامل الثاني وهو الخاص بالاستخلاف أو الميراث أو الخلافة والتوارث ، فإن الوضع يختلف ، فوفق هذا العامل فإن أهل الحضارة يفنون ويهلكون بذواتهم وتبقى

[1] سورة يس ، ٣١ .

[2] سورة ص ، ٣ .

[3] سورة الأحقاف ، ٢٧ .

[4] سورة ق ، ٣٦ .

[5] سورة النجم ، ٥٠ ـ ٥٤ .

آثارهم ومخلفاتهم حيث تنتقل إلي أقوام آخرين ، فيستغلونها ثم يضيفون إليها وفق خصائصهم ، وما يتوصلون إليه من اكتشافات وابتكارات وإبداعات ، وهذا ما يعرف بالتواصل الحضاري ، وتجدر الإشارة إلي أن التواصل الحضاري قد يكون كما قدمنا بين أجيال متعاقبة بالميراث والاستخلاف ، وقد يكون بين أمم معاصرة ، وهنا يتم التواصل بالعلاقات والوشائج والاتصالات.

وفي هذه الحالة لابد من إيضاح بعض الأمور ذات الأهمية في صدد انتهاء أو زوال الحضارات :

❖ **الأمر الأول :** أنه وفقاً لعملية الاستخلاف أو الميراث وما تؤدي إليه من تواصل حضاري ، فإن الحضارة في ذاتها كنتاج لتعامل الإنسان مع عناصر الوجود — كما أوضحنا سلفاً — لم تنته ، ولكن الذي انتهى هم صانعوها والتي هي نتاج وحصيلة لعطائهم وجهدهم .

❖ **الأمر الثاني :** أن الحضارة الخاصة بالأقوام الذين هلكوا وبادوا هي لم تنته أو تهلك بهلاكهم ، ولكنها توقفت عند مرحلة زمنية معينة مقترنة بتوقف عطائهم وستظل تلك الحضارة تحمل أسمهم وخصائصهم .

❖ **الأمر الثالث :** أن الحقبة الزمنية الجديدة التي تبدأ منذ استخلاف المستخلفين أو ميراث الوارثين ، تبدأ كإضافة حضارية جديدة ، تحمل خصائص وصفات تتعلق بالأقوام الجدد ، وتحمل أسمائهم ولكنها لا تغفل الأولين .

وهنا ينبغي التفرقة بين أمرين : الأمر الأول : زوال الحضارة وانتهائها : حيث تتوقف عند لحظة تاريخية معينة ، ويهلك ويبيد كذلك أصحابها وصانعوها ، ولا يبقى إلا آثارها ، الأمر الثاني : توقف الحضارة الخاصة بأقوام بعينهم عند لحظة تاريخية معينة نتيجة

هلاكهم وذهابهم ، ثم انتقال تلك الحضارة إلي أقوام جدد فيضيفون إليها ويحسنونها ، فتستمر الحضارة وتتواصل رغم اختلاف الأجيال وتعاقبها .

ومن ثم يمكن القول بأن الحضارة الإنسانية منذ بدايتها هي لم تنته ، بل كانت دائماً تتواصل بانتقالها من جيل إلي جيل ، فالأمم والأقوام هم الذين يذهبون ، ولكن آثارهم باقية يتوارثها الآخرون ، ولو أن الحضارة الإنسانية كانت قد انتهت عند حقبة تاريخية معينة لما تطورت الإنسانية إلي ما هي عليه الآن ، فما وصلت إليه الإنسانية من حضارات ومدنيات هو عبارة عن حلقات متواصلة ممتدة ومتعاقبة منذ نشأة الخليقة وحتى يومنا هذا ، يتوارثها الأجيال جيل بعد جيل ، فالحضارة كآثار ومخلفات حفظها الله سبحانه وتعالى للعظة والعبرة ، وكذا لكي يبدأ الأجيال الجديدة المستخلفة أو الوارثة من حيث انتهى البائدون .

قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[1] .

وتبين هذه الآية الكريمة أن كثيراً من الحضارات يتوارثها الأجيال ، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون بمن سبقهم .

وقال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[2] .

وتوضح هذه الآية أن الحق تبارك وتعالى قد أورث بنى إسرائيل أرضاً ودياراً بارك فيها ،

[1]. سورة الأعراف ، ١٠٠ .

[2]. سورة الأعراف ، ١٣٧ .

وهي الشام في الوقت الذي دمر حضارة فرعون وذلك للتنكيل والاعتبار ، وقد ظلت آثار تلك الحضارة باقية حتى الآن .

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وتبين هذه الآية الكريمة أن الحق تبارك وتعالى قد استخلف أقواماً آخرين بعد إهلاك السابقين ليبتليهم ويختبرهم أيؤمنون أم يكفرون .

وقال تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2]

وقال تعالى ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[3] .

تحمل هذه الآية خطاباً من الحق تبارك وتعالى إلي المسلمين حيث يبين لهم أنه أورثهم أرض اليهود وديارهم وأموالهم ، لكي يقيموا حضارتهم وينشروا دين الله ، وكان ذلك بداية التمكين للإسلام ، لكي يقيم حضارته التي كان قوامها وصلبها نشر الإسلام والتمكين له في كافة الأنحاء والأصقاع .

وقال تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾[4] .

---

[1]. سورة يونس ، ١٤ .

[2]. سورة الشعراء ، ٥٧ – ٥٩ .

[3]. سورة الأحزاب ، ٢٧ .

[4]. سورة الدخان ، ٢٥ – ٢٨ .

المبحث الثاني

مفهوم الحضارة في الطرح الإسلامي

في هذا المبحث نخلص إلي بلورة وتحديد مفهوم الحضارة وفق الطرح الإسلامي ذى الخصوصية والتفرد ، والمصدر الأساس – كما سبق الإيضاح – للطرح الإسلامي هو القرآن الكريم ، وإذا تقصينا مفهوم الحضارة في هذا المصدر التشريعي الرئيسي بالنسبة للإسلام والمسلمين ، أمكننا استنباط أن الحضارة تعنى التعامل مع عناصر الوجود من مخلوقات الله وموجوداته في الكون وفق منهج الله وناموسه وسننه ، وهذا التعريف للحضارة يحوى العديد من العناصر التي يمكن تحليلها في الآتي :

أولاً : استخدام الرشد والعقل في التعامل مع عناصر الوجود :

أول عناصر مفهوم الحضارة في الطرح الإسلامي يتمثل في ضرورة استخدام الإنسان لعقله وفكره برشد وتدبر أثناء تعامله مع عناصر الوجود من حوله ، حتى يعي ما يفعل ويدرك عواقب فعله ، وهذا هو الأساس والأصل لما سيأتي من عناصر أخرى ، فالعقل البشري هو أساس كل فكر يفكر فيه الإنسان ، وهو كذلك اصل كل سلوك أو تصرف يسلكه الإنسان، فهو الذي يوصل الإنسان إما إلي الإيمان والرشاد وإما إلي الكفر والضلال .

وبالنسبة إلي التعامل مع عناصر الوجود ، فالإنسان موطد ومأمور منذ نشأته علي التعامل مع عناصر الوجود من حوله ؛ فهو إنما جاء إلي الكون لإعماره وتوفير الحياة الطيبة التي تمكنه من عبادة الله وتوحيده ، وإقرار الفضائل وازدراء الرذائل .

والإنسان محاسب علي استخدام عقله بشكل سيئ يتنافى مع مهمته التي خلق من اجلها كوسيلة للهداية والرشاد ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا

مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[3] .

ثانياً : التعامل مع عناصر الوجود وفق سنن الله في الكون :

العنصر الثاني من عناصر مفهوم الحضارة وفق الطرح الإسلامي تمثل في ضرورة التعامل مع عناصر الوجود الإنساني وفق سنن الله في الكون ، فقد وضع الله لكل مخلوق وكل موجود في هذا الكون معياراً دقيقاً وضابطاً حاسماً ، فلم يخلق أي شئ عبثاً أو دون جدوى وغاية .

وعلي الإنسان أن يراعي ذلك في تعامله مع مخلوقات الله وموجوداته فلا يخرج بها عن غايتها ، ولا يستعملها إلا فيما خُلقت له ، فان حاول الإنسان أن يسئ استعمال تلك العناصر فلن تستجيب له ، وإن استجابت له فسوف تكون نتيجة التعامل والتجاوب وبالاً عليه وتخريباً للكون .

قال تعالى﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[4]

---

[1]. سورة الأعراف ، ١٧٩ .

[2]. سورة الأعراف ، ١٨٥ .

[3]. سورة الحج ، ٤٦ .

[4]. سورة الرعد ، ٨ .

وقال تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾[3]

وقال تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[4] .

ثالثاً : توزيع منافع ومتحصلات التعامل علي العموم :

أوضحنا أن العقل والإبداع هبة من الله وأسلفنا أن عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات مسخرات بأمر الله ، وعليه فالعطاء إجمالاً من الله إلي عباده في الأرض وإذا كان هذا هو واقع الحال ومنطق الأمور فالناس سواسية في الاستفادة من منافع ومتحصلات التعامل مع عناصر الوجود التي هي الحضارة وتوابعها من مدنية وعمران

وما تقدم لا يعني بحال إغفال جهد العامل المجتهد ، وإجحاف حق المبتكر ، بل لابد من الاعتراف له بحقه وتقدير عطائه وجهده ، ووفق الطرح الإسلامي ثمة موقفان بخصوص جهد المساهمين في إثراء وإنماء الحضارة الإنسانية ، نوردهما في الآتي :

– الموقف الأول : في حالة أن يصدر الإسهام من عالم مسلم ، فله أجران ، الأول : في الحياة الدنيا وهو التكريم والجزاء المادي ، الثاني : في الآخرة حيث يجزاه الله الجزاء الأوفى ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ

---

[1]. سورة الحجر ، ٢١ .

[2]. سورة المؤمنون ، ١١٥ .

[3]. سورة الشورى ، ٢٧ .

[4]. سورة القمر ، ٤٩ .

﴿ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]

وقـــال تعـــالى ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[4] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[5] .

وقال تعالى ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[6] .

– الموقف الثاني : في حالة أن يصدر الإسهام من عالم غير مسلم ، فله في هذه الحالة أجر واحد لقاء ما قدمه من جهد وفضل ، يُلقاه في الحيـــاة الدنيا ، ممن استفادوا مـن عطائـه وإسهاماته ، أما في الآخرة فأمره إلي الله إن شاء كافأه وإن شاء عاقبة .

قال تعـالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[7] .

---

[1]. سورة آل عمران ، ١٧١ .

[2]. سورة التوبة ، ١٠٥ .

[3]. سورة هود ، ١١٥ .

[4]. سورة يوسف ، ٥٦ و ٥٧ .

[5]. سورة الكهف ، ٣٠ .

[6]. سورة الرحمن ، ٦٠ .

[7]. سورة الكهف ، ١٠٣ و ١٠٤ .

وقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[2] .

وهذا عينه هو ما يعرف بعالمية أو إنسانية الحضارة ، فنتاج الحضارة ومظاهرها وأشكالها وفق الطرح الإسلامي هي لكل الناس ، فالآدميون فيها سواء ، ولا تقتصر علي فئة دون أخرى أو دولة دون أخرى أو مجتمع دون آخر ، والحضارة التي تحيد عن هذا المبدأ ليست بالحضارة ولكنها لا تعدو أن تكون أفكاراً إنسانية أنانية قائمة علي الأهواء والمشارب .

رابعاً : البعد الأخلاقي هو قوام الحضارة :

الحضارة وفق الطرح الإسلامي ترتكن أساساً علي الأخلاق والمبادئ والمثل والقيم عالمية النزعة إنسانية السمة ، ونلاحظ من خلال تحليلنا واستعراضنا للحضارات البائدة ، أن الله قد بارك الحضارات التي قامت علي الإيمان والأخلاق والقيم ، ونقم وسخط علي الأخرى التي قامت علي الكفر والجحود والعصيان ، وإذا كانت الحضارة بهذا الوصف فهي لم توجد وتبرز إلي حيز الوجود للصراع والصدام ، وإنما وجدت للوئام والتواصل وتحقيق صلاح الكون والمجتمع الإنساني .

إن البعد الأخلاقي القيمى نجده يتخلل كل عناصر مفهوم الحضارة في الطرح الإسلامي ، فهو أولاً يغلف قوى العقل وملكاته والتفكير ومكناته عند التعامل مع عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات ، فيحول ذلك العقل إلي قوة خلاقة مبدعة يتأمل ويتدبر ثم يصدر فكراً رشيداً قوامه ملكوت الله وهدفه الإيمان بالله وتوحيده وإصلاح الكون وصلاحه .

---

[1]. سورة الكهف ، ١٠٥ .

[2]. سورة الفرقان ، ٢٣ .

ثم هو ثانياً يحفظ الإنسان ويضبط سلوكه وتصرفاته ونشاطاته ، حتى لاتخرج ولا تحيد عن منهج الله ، فتخترق السنن الكونية ، أو تصطدم بناموس الكون ، فتكون نتائج ذلك وبالاً علي الجميع .

وهو ثالثاً ينزع بالإنسان إلي العالمية ويسمو به إلي الإنسانية ، في إفادة جميع بنى البشر من منافع ومتحصلات التعامل مع عناصر الوجود ، وإقامة الحضارات ، ويغلب قيمة المساواة كرافد من روافد الحضارة الإنسانية .

إن البعد الأخلاقي الذي تحدثنا عنه وعن أهميته بالنسبة للحضارة في الطرح الإسلامي هو الإيمان بالله وتوحيده وطاعته والالتزام بمنهجه والعمل قدر المستطاع علي تبليغ دينه وإقامة شرعه .

الباب الثاني

نظرية نشوء الحضارة الإسلامية

" انطلاقة العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة "

بعد أن تناولنا رؤية الإسلام لمفهوم الحضارة وخصوصية مفهوم الحضارة الإسلامية ، نعمد في هذا الباب إلى تقديم محاولة لتفسير نشوء الحضارة الإسلامية ، تلك الحضارة التي اختلفت في نشأتها وتطورها عن كافة الحضارات الإنسانية الأخرى ، وتبدأ تلك المحاولة بمتابعة انطلاقة العقيدة الإسلامية التي خرجت إلى الناس كافة واخترقت الحدود والحواجز الجغرافية والثقافية والحضارية والعرقية ؛ وظلت تكافح إلى أن عمت معظم العالم المسكون في ذلك الزمان .

إن الحديث عن نظرية تخص نشوء حضارة الإسلام يستوجب الرجوع إلى البيئة التي انطلقت منها عقيدة الإسلام بكافة ظروفها الطبيعية والمادية والحضارية والثقافية والاجتماعية والدينية ، وتبدو أهمية الوقوف على طبيعة تلك البيئة في اكتشاف الروح الكفاحية التي كان ينبغي على تلك العقيدة أن تتزود بها منذ البداية وهي تواجه عناصر ومفردات تلك البيئة الوعرة .

كذلك يرتبط بنشوء الحضارة الإسلامية تلك الظروف والتكوينات النفسية والفكرية والأخلاقية للرواد الأوائل الذين تلقوا الدعوة العقيدية منذ انبعاثها ، وسيكون لهؤلاء الرواد شأن عظيم في انطلاقة تلك الدعوة ، ومن ثم كان من المجدي والضروري معاً تحليل تلك الظروف والتكوينات بكافة جوانبها .

من البيئة الوعرة وبقلوب وعقول الرواد الأوائل انطلقت العقيدة الإسلامية انطلاقتها الأولى في عزم ومضاء ، لم تثنها صعوبة البيئة ، بل كانت دافعاً لها ، ولم يثبطها عنت وتصدي المتلقين الأُوَل للدعوة ، بل ربما زادها هو الآخر قوة وإصراراً ، كيف حدث ذلك ! .

لقد حدثت الانطلاقة الأولى واستحالت البيئة إلى قوة دافعة والرواد الأوائل إلى طاقة هائلة ، وعبرت العقيدة الحدود ، ميممة شطر عوالم الآخرين ، معلنة عن أهم سماتها

وخصائصها وهي العالمية ، لتحلق في الآفاق وتصل إلى كل الشعوب ومختلف الأصول والأعراق ، ويحدث العناق بين الرواد الأوائل وبين المدد المتجدد من أبناء تلك الشعوب والأمم ، وشرعت العقيدة المنطلقة في عزم ومضاء تتغذى من داخلها ، كيف كان الخروج إلى عالم الآخر ؟ وكيف حُملت الدعوة العقيدية ؟ وكيف تم توصيلها وتبليغها إلى الأمم والشعوب ؟ وكيف تم ذلك العناق الأبدي بين الرواد الأوائل وبين المدد المتجدد ؟ وكيف بدأت العقيدة تتغذى من داخلها ، وتكتسب قوة الدفع من انطلاقتها ؟ أسئلة تحتاج إلى إجابات ، نجيب عليها في هذا الباب .

عندئذ كانت العقيدة الإسلامية قد وصلت إلى درجة من النضج باتت بموجبها نظاماً اجتماعياً متكاملاً ، يحمل في طياته حضارة تملك ذاتاً تجد تعبيراتها ونماذجها بأشكال عديدة ، تبدأ من الدعوة المتواصلة إلى الإسلام العظيم ، ثم تنتهي بالعلوم الطبيعية ، مروراً بالتنظيم بكافة أشكاله والنظام الاجتماعي بأسسه وأصوله ، إن تلك الذات الحضارية قد أعلنت عن أهم سماتها ، وهي أنها للناس أجمعين بمقتضى ما تتضمنه مرجعياتها ، وبمقتضى الواقع أيضاً ، حيث انبرت كافة الأعراق والعناصر المنضوية في كنف الإسلام تشيد صروح تلك الحضارة القوية السامقة .

لقد تشكّلت حضارة الإسلام بمفرداتها ومقوماتها المشار إليها ، واصطبغت بهويتها الإسلامية الملازمة لذاتها والمعبرة عن خصوصيتها وذاتيتها التي تمثلت في : الوازع الأخلاقي الذي صبغ كافة المفردات والمقومات ، ثم تعينت في السمة الشعائرية التي ميزت الأشكال والنماذج الخاصة بتلك الحضارة .

لقد كافحت الحضارة الإسلامية منذ نشأتها ، واكتسبت تلك السمة من العقيدة التي ارتبطت بها إلى درجة التطابق ، كافحت من أجل أن تحدد ذاتيتها وخصوصيتها ، ثم كافحت من أجل أن تجد لدى الآخرين الاقتناع والقبول ، ثم كافحت من أجل التصدي

للأزمات والصدمات التي حاقت بها ، واستمر ذلك حالها من اجل الاستمرار والتواصل .

إن الحضارة الإسلامية قد تعرضت لفترة انقطاع يعلمها الجميع ، ولكن ذلك الانقطاع بالرغم من آثاره وعواقبه الوخيمة على مفردات تلك الحضارة ومقوماتها إلا أنه لا يعني الفناء أو الانتهاء ، فالحضارة الإسلامية لم تزل تكافح من اجل الخروج من هذا المأزق ، ولكن ذلك الخروج يحتاج إلى جهود خارقة للعادة ، ولكنها ليست بعزيزة على أبناء الإسلام الذين شيدوا تلك الحضارة وحفظوا كيانها لقرون طويلة .

في هذا الباب سوف نتناول بالتحليل والدرس المحاولة التي أردنا من ورائها إبراز نظرية نشوء الحضارة الإسلامية من خلال الفصول الثمانية التالية :

الفصل الأول : إطلالة على البيئة التي انطلقت منها عقيدة الإسلام .

الفصل الثاني : الظروف والتكوينات النفسية للرواد الأوائل (المخاطبين بالعقيدة) .

الفصل الثالث : الانطلاقة الأولى .

الفصل الرابع : الانطلاقة الكبرى .. الخروج إلى عالم الآخر .

الفصل الخامس : الانطلاقة الإنسانية .

الفصل السادس : الهوية الإسلامية للذات الحضارية .

الفصل السابع : الكفاحية من أجل استمرار وامتصاص الأزمات .

الفصل الثامن : الانقطاع لا يعني الفناء والانتهاء .

الفصل الأول

إطلالة على طبيعة البيئة التي انطلقت منها عقيدة الإسلام

لعله من الأهمية بمكان السفر عبر الزمن لمدة تزيد على أربعة عشر قرناً إلى الوراء لنعاين البيئة التي انطلقت منها عقيدة الإسلام ، ونعايش ظروف وأحوال ووضعية تلك البيئة ، حتى نستبين طبيعة العلاقة التي نشأت وتحددت معالمها سريعاً بين عقيدة الإسلام والبيئة التي انطلقت منها ، فتلك العلاقة أهميتها في إبراز الروح الكفاحية لتلك العقيدة منذ نزولها من عند الإله الخالق إلى أهل الأرض ، وقد تجلت أولى بوادر تلك الروح المتوثبة في التعاطي والتفاعل والتحاور الذي تم بين بيئة ذات أبعاد عديدة طبيعية ومادية وحضارية وثقافية واجتماعية ومعتقدية وبين عقيدة الإسلام التي أراد الله لها أن تكون آخر الرسالات .

والبيئة التي نقصدها في هذا الفصل ، والتي نزلت فيها عقيدة الإسلام ، ثم انطلقت منها لتجوب أقطار الأرض ، هي حياة متكاملة اكتملت عناصرها في الجغرافيا أو المكان ، والتاريخ الذي يتمثل في موروثات حضارية وثقافية ، والاقتصاد الذي يتعلق بالوضع المادي لتلك المجتمعات ، والحياة الاجتماعية التي تنصرف إلى التفاعلات الاجتماعية داخل التجمعات العربية التي انتشرت في كيانات أخذت أشكالاً حضارية ومظاهر مدنية معينة، وأخيراً في الأنساق القيمية والمعتقدية التي اختلطت دوماً بالموروثات الثقافية والحضارية ، وتداخلت مع العادات والتقاليد السائدة والأفكار المنتشرة في ذلك الوقت .

لقد حدث اللقاء الذي كانت له مقدمات في مرجعيات شرعية ، عرفها اليهود والنصارى ، كما كانت له بشائر استشرفها أقرباء البشير وذوو رحمه ، ولكنها جميعاً ظلت حقائق طي الكتمان في الأولى ، وأماني جمعت بين الأمل والرجاء في الثانية ، حدث اللقاء بين بيئة جمعت بين المتناقضات ، وبين عقيدة لم تأت خصيصاً لتلك البيئة ، بل جاءت إلى الإنسان في كل مكان ، ولكنها بدأت وانطلقت من هذه البيئة .

لقد جمعت البيئة بين المتناقضات ، فقد جمعت بين الأحوال الجغرافية والطبيعية والمادية

الوعرة المقفرة التي تفرض حالة من الفقر إلى درجة الدقع وبين حياة مترفة لدى السادة الكبار في الأحياء العربية وصلت بالغنى إلى حد الفحش .

كذلك كان في تلك البيئة التنظيم السياسي القائم على توزيع السلطة والنفوذ وفق قواعد صارمة أساسها مقدرات القوة المادية والخبرة والتجربة والحنكة وعراقة الأصل وفيها في ذات الوقت الاضطرابات السياسية والنعرات القبلية الصارخة التي تثير الحروب بين القبائل لأتفه الأسباب ، والتي قد تستمر أربعين حولاً ! .

وكان في تلك البيئة قيم الكرم والأصالة ونصرة المظلوم والشجاعة والإقدام ، وفيها في ذات الوقت المجون والعبث والسفاهة والسطو على ممتلكات الآخر والتحقير من شأن المرأة والتعامل معها كمتاع لا يتجاوز الشهوة والغريزة .

وكان فيها أيضاً الفصاحة وإطلاق الحِكَم والمأثورات ، التي تُنم عن الكياسة والتجربة الذاتية الثرية ، وفيها السفاهة المعتقدية والاعتلال الفكري والسقم العقلي فيما يخص مسائل الدين والعلاقة بين الإنسان وخالقه .

أما العقيدة فقد جاءت خاتمة أقرت ما جاء فيما سبقها من شرائع ، وجعلت من الإيمان بتلك الشرائع ركناً من أركان الإيمان وشرطاً من شروط الإسلام ، نزلت على العرب وبلسانهم وعلى نبي منهم ، ولكنها لم تخصهم بل قصدت أن يكون العرب هم حاملوها وموصلوها ومبلغوها إلى العالمين ، لقد كان العرب بالفعل هم الذين دفعوا بالعقيدة إلى انطلاقتها الأولى ، ثم راحت بعد ذلك تتغذى من داخلها وتواصل انطلاقتها اعتماداً على قواها الذاتية وطاقاتها الداخلية ، التي تواصلت بقدرة عجيبة جديرة بالدراسة والتحليل ، هكذا تم اللقاء بين فاعل نشط اجتمعت له وفيه كافة مقدرات العطاء ومكانات التفاعل وقيم الخلود والأبدية والسمو والإنسانية ، وبين مفعول به غاية في التعقيد ، واجتمعت فيه

كل المتناقضات والكثير من المعوقات .

في هذا الفصل نعمد إلى الغوص في البيئة التي نزلت فيها ، ثم انطلت منها عقيدة الإسلام ، لندرس الظروف الطبيعية ، ونبحث في الأحوال المادية ، ونحلل الوضعية الحضارية لتلك البيئة ، ثم نتفحص البيئة الثقافية والفكرية ، ونفسر الظروف الاجتماعية ، ونحلل العلاقة بين الحياة الدينية المعتقدية وكل الظروف والأحوال والأوضاع السابقة ، وأخيراً نتناول الدور الإقليمي والدولي لإقليم الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي ، وسيتم ذلك من خلال المباحث السبعة التالية :

المبحث الأول : الظروف الطبيعية .

المبحث الثاني : الأحوال المادية .

المبحث الثالث : الوضعية الحضارية .

المبحث الرابع : البيئة الثقافية والفكرية .

المبحث الخامس : الظروف الاجتماعية .

المبحث السادس : الحياة الدينية والمعتقدية .

المبحث السابع : الدور الإقليمي والدولي لإقليم الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي .

المبحث الأول

الظروف الطبيعيـة

نقصد بالظروف الطبيعية المعطيات التي وهبتها الطبيعة بقدرة الله لمنطقة جغرافيـة بعينهـا ، نزلت فيها ثم انطلقت منها عقيدة الإسلام ، وهي المنطقة التي عُرفت بإقليم الحجاز ثم بشبه جزيرة العرب ثم ببلاد العرب ، ولكل مصطلح من هذه المصطلحات مداه الجغرافي وحدوده المكانية ، فإقليم الحجاز من شبه جزيرة العرب هو الأقل تحديداً من حيث المكان ، وهو الإقليم الذي يقع بين تهامة ونجد ، وأما شبه جزيرة العرب فهي اليابسة المحاطة بالماء من الشرق بالخليج الذي يفصل بين العرب وبلاد فارس ، ومن الجنوب ببحر العرب والمحيط الهندي ، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومن الشمال بادية الشام وبلاد ما بين النهرين ، أما بلاد العرب فهي الأوسع نطاقاً حيث تشمل بالإضافة إلى شبه جزيرة العرب بلاد ما بين النهرين وفلسطين والشام .

وإذا ركزنا التحليل على المناطق التي نزلت فيها العقيدة ثم انطلقت منها ، فسوف نركز على جزيرة العرب ومن جزيرة العرب نخص إقليم الحجاز الذي يشمل المدن الثلاث الشهيرة في مسار الرسالة والدعوة وهي مكة المكرمة والطائف ويثرب ، وعندما نتحدث عن الظروف الطبيعية لإقليم الحجاز كجزء من شبه جزيرة العرب فسوف نتناول العناصر التالية :

أولاً : تضاريس السطح :

التضاريس تعني شكل سطح الأرض ، وقد اجتمعت في منطقة شبه جزيرة العرب بما فيها بلاد الحجاز كافة الأشكال والنماذج التضاريسية الوعرة والمقفرة في الوقت الذي خلت من الأشكال والنماذج السهلة التي تيسر سبل العيش ، وتمثلت تضاريس المنطقة في الآتي :

❖ المرتفعات :

اشتملت المنطقة المخصوصة بالدراسة على كافة أنواع المرتفعات ابتداءً من الجبال التي تمثلت في : جبال تهامة وجبال عسير وجبال الحجاز وجبال حضرموت وظفار ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين ألف وثلاثة آلاف متراً ومنها النجود المرتفعة الصخرية الصلبة ، ثم الهضاب وأهمها هضبة نجد ، وانتهاءً بالتلال التي تنتشر في كل مكان من شبه الجزيرة .

❖ الأودية الجافة :

انتشرت في شبه جزيرة العرب الأودية الجافة المنخفضة عن سطح البحر والتي تتسم بقسوة ظروفها ووعورة تضاريسها .

❖ الصحاري :

إلى جانب المرتفعات والأودية الجافة هناك الصحاري التي تغطي معظم مساحة شبه جزيرة العرب وهي مقفرة وقاسية وأهمها صحراء الربع الخالي وصحراء النفود .

❖ الواحات :

تنتشر في شبه جزيرة العرب الواحات التي مثلت عامل الجذب الوحيد للتجمعات البشرية في هذه المنطقة الشديدة التضاريس .

❖ السهول الساحلية :

عرفت شبه جزيرة العرب السهول الساحلية وهي أشرطة منبسطة من الأرض موازية للبحار المحيطة باليابسة في الخليج العربي الفارسي وبحر العرب والمحيط الهندي والبحر الأحمر ، وهي سهول صحراوية قاسية ومجدبة .

كان ما تقدم هو الشكل العام لسطح الأرض في شبه جزيرة العرب بما فيها إقليم الحجاز ، وكان ذلك أول العوامل التي صبغت حياة الإنسان في هذه المناطق بالصعوبة والقسوة .

ثانياً : المنـــاخ :

المناخ هو ما يتعلق بحالة الجو من حرارة وضغط ورياح ورطوبة وأمطار ، وترتبط هذه العوامل ببعضها وتترتب كذلك على بعضها ، وقد اتسمت مناطق شبه جزيرة العرب بما فيها إقليم الحجاز بقسوة مناخها ، ويتفرع عن المناخ العناصر التالية :

❖ الحرارة :

فيما يتعلق بحرارة شبه جزيرة العرب وإقليم الحجاز ، عرفت المنطقة نمطين من درجات الحرارة ، النمط الأول : حيث توجد مناطق تتسم بالتطرف الشديد أي شدة الحرارة نهاراً وشدة البرودة ليلاً ، وكذا شدة البرودة في فصل الشتاء وشدة الحرارة في فصل الصيف ، النمط الثاني : حيث يسود هذا الطقس المتطرف بالوصف السابق في النمط الأول طيلة أيام السنة إلا في أسابيع قليلة حيث تعتدل درجة الحرارة ، وتتراوح درجات الحرارة في جميع أنحاء شبه الجزيرة بين معدلي ما دون الصفر المئوي وما يتجاوز السبعة والأربعين درجة مئوية ، وقد تتعدى ذلك في بعض الأوقات وفي بعض المناطق ! .

❖ الضغط الجوي :

يرتبط الضغط الجوي بعوامل كثيرة منها درجة الحرارة والارتفاع أو الانخفاض عن مستوى سطح البحر والقرب أو البعد عن المسطحات المائية والمعتاد في مناطق شبه جزيرة العرب أن الارتفاع الدائم في درجة الحرارة يؤدي إلى سخونة الهواء اللامس لسطح الأرض الملتهب بفعل درجة الحرارة الموجهة بحدة على الصخور والرمال ، عندئذ يخف وزن الهواء ويرتفع إلى أعلى ، ليحل محله في شكل دوامات هوائية وعواصف رملية رياح قادمة من

مناطق أخرى داخلية صحراوية ، فتكون ملتهبة ومحملة بالغبار والأتربة وحبات الرمال ، كما تكون بالقرب من المسطحات المائية محملة بذرات المياه لتصبح رطبة وغير محتملة .

وفي بعض المناطق قد يؤدي ما تقدم إلى جلب كتل هوائية باردة من المسطحات المائية فتساعد على تلطيف الجو المحمل ببخار الماء ، وهكذا الحال على كافة مناطق شبه جزيرة العرب طوال أيام السنة .

❖ الرياح :

يختلف واقع المناخ في شبه جزيرة العرب عن المناخ المفترض المترتب على التحليلات الجغرافية المتوقفة على الأوضاع الظاهرية ، وتحقيق ذلك أنه على الرغم من أن مدار السرطان يمر في منتصف شبه الجزيرة بين مكة والمدينة ، مما يجعلها تنتمي إلى المناطق الحارة ، إلا أن كثرة المرتفعات والصحاري تدخل على مناخها تنويعات جذرية ، فالجنوب تكثر به الرطوبة والسحب المطرة ، وتغطي الثلوج قمم الجبال أحياناً ، وفي الحجاز توجد الرطوبة عند السواحل ، أما في الداخل في مناطق البوادي والصحاري فتوجد العواصف العاتية المحملة بالرمال ، والتي تختلف عن الرياح المنتظمة الآتية من البحر الأحمر أو الرياح الموسمية الآتية من المحيط الهندي .

❖ الأمطار :

إن طابع المناخ القاري المتمثل في التقلبات الجوية السريعة والعاتية ، وفي الاختلافات الشديدة في درجات الحرارة هو الذي يسود كافة مناطق شبه جزيرة العرب ، وهذا المناخ ينشر الجفاف في كل مكان تقريباً ، وترتبط الأمطار بالحرارة والضغط الجوي والرياح ، وهي نادرة في شبه جزيرة العرب وكثيراً ما تأتي في شكل سيول مدارية بعد شهور أو سنوات من الجفاف ، ولا يكسر ذلك حدة الحر الشديد أثناء النهار وبالذات في الصيف .

ثالثاً : مصادر المياه :

تعاني منطقة شبه الجزيرة العربية من ندرة المياه ، وتتمثل مصادر المياه في هذه المنطقة في الآتي :

❖ مياه الأمطار المتجمعة في بحيرات :

عندما تتساقط الأمطار في سيول تغمر الوديان ثم تتجمع في بحيرات تتعدد أغراض استعمالاتها للإنسان والحيوان والنبات .

❖ **مياه الآبار :**

تُختزن المياه في جوف الأرض في مناطق شبه الجزيرة العربية على أعماق مختلفة ، تتراوح ما بين مترين وعشرات الأمتار ، وفي الوديان والسهول الساحلية يُعتمد على مياه الآبار في الري وإقامة المزارع والحواضر في الواحات التي تنتشر في الجنوب والوسط والشمال والسواحل الشرقية والغربية ، أما المنطقة الوسطى فتندر فيها الواحات .

❖ **مياه المستنقعات :**

المصدر الثالث للمياه في شبه جزيرة العرب يتمثل في مياه المستنقعات ، حيث تسقط الأمطار وتتجمع المياه ليس في بحيرات كما تقدم ولكن في مستنقعات تساعد على إنبات الكلأ ذي الطبيعة الخاصة الذي يعتبر مرعى ملائماً للحيوانات الصحراوية .

رابعاً : النبات :

يمكن الحديث عن النبات في شبه جزيرة العرب بعد ما قدمنا من عناصر طبيعية ومناخية في إطار شكلين :

❖ الشكل الأول : النباتات الطبيعية :

النباتات الطبيعية هي تلك التي تنبت وتنمو بشكل تلقائي عقب سقوط الأمطار، وهي في المعتاد نباتات برية تستعمل كغذاء للحيوانات ، وفي القليل النادر يستفيد منها الإنسان في غذائه أو في استعمالات أخرى ، ومثال ذلك الدرنيات البرية ، وتتميز النباتات البرية في شبه جزيرة العرب بأغصانها الشائكة وقدرتها على مقاومة الجفاف والتأقلم مع مناخ المنطقة .

❖ الشكل الثاني : النباتات المزروعة :

لم يعتد أهل جزيرة العرب على فلاحة الأرض وزراعتها إلا في النادر ، وقد كانت مهنة أهل القرى أو الحضر هي الزراعة على مياه الأمطار والآبار ، وكان ذلك حال قرى مثل مكة والطائف ويثرب ، وكان الشعير هو أهم المحاصيل المناسبة لتلك البيئة ، كما كان النخيل أهم الأشجار المثمرة المعمرة والتي تعتبر هي الأشهر والأكثر انتشاراً .

خامساً : الحيوان :

على وتيرة النبات توزع الحيوانات في بيئة شبه جزيرة العرب القاسية على فصيلين :

❖ الفصيل الأول : الحيوانات البرية :

وهي الحيوانات غير الأليفة التي لم يتمكن أهل جزيرة العرب من استئناسها ، وأهم هذه الحيوانات كانت الأسد الذي انقرض سريعاً ، والفهد والضبع والذئب والثعلب والنعام والغزال ، يضاف إلى هذه الحيوانات النسر والصقر كطيور جوارح ، ولكن الصقور أثارت إعجاب العرب فعملوا على استئناسها .

❖ الفصيل الثاني : الحيوانات المستأنسة :

يعتبر الجمل أهم الحيوانات في شبه جزيرة العرب ، فهو رفيق العربي في حله وترحاله ، يستفيد منه بشكل دائم ، في طعامه وشرابه وتنقلاته ، والحصان عند العرب رمز للنبالة والشرف ، وهو وسيلة الحرب والنزال ، إلى جانب ما تقدم كانت الضأن والماعز أهم الحيوانات المستأنسة في بلاد العرب ، أما الأبقار فقد عُرفت على نطاق ضيق .

المبحث الثاني

الأحوال المادية

تلقائياً تفرض علينا الظروف الطبيعية التي تناولناها في عجالة في المبحث الأول أن ننتقل إلى الحديث عن الأحوال المادية ، فالأحوال المادية محكومة بالأساس بتلك الظروف ، حيث أن سخاء البيئة يمنح أهلها فرصة الثراء والترف والعكس صحيح ، وقد لحظنا منذ البداية كم كانت بيئة بلاد العرب وإقليم الحجاز على قدر من التقشف لم يؤد بالتالي إلا إلى شظف العيش والحاجة الدائمة والعوز المستمر ، مما انعكس بالتالي على طبيعة علاقة سكان المنطقة ببعضهم ، ثم على طبيعة علاقاتهم بغيرهم من الدول والتجمعات العمرانية والحضارية المحيطة ببلادهم ، والتفصيل نورده فيما يلي :

أولاً : الترحال والاستقرار (بدو وحضر) :

حتّمت الطبيعة وظروفها التضاريسية والمناخية والاقتصادية على سكانها أن يكيفوا لأنفسهم أنماطاً محددة من الحياة ، تبدأ بطرق طلب الرزق لاستمرار الحياة ، وتنتهي بالسكنى والإقامة وتكوين التجمعات والمجتمعات ، ولم تكن بلاد العرب بدعاً من هذه الحتميات الطبيعية ، فقد توزعت أشكال الحياة في هذه البلاد بين نمطين حضاريين ثابتين ومألوفين حتى وقتنا الراهن :

❖ النمط الأول :

وهو الأكثر شيوعاً في مناطق شبه جزيرة العرب ، حيث البحث الدائم عن المأوى المتنقل المرتبط دوماً بعنصري الحياة وسر البقاء : المأكل والمشرب والمأكل يرتبط بالكلأ الذي تتوقف عليه حياة الحيوانات المصاحبة للإنسان والتي يعتمد عليها في كل حياته ، والكلأ

نفسه يرتبط عضوياً بالماء الذي يعد مطلباً ضرورياً وحيوياً للجميع الإنسان والحيوان ، وعندما يقع العربي على هاتين الغايتين يستقر إلى جوارهما منتفعاً منهما ، وعندما تنفد رغباتـــه ، وتتحقق مآربه ، ويأتي على الكلأ ، وينضب الماء ، يجمع أغراضه ويهم راحلاً طلباً للكلأ والماء مرة أخرى ، وهكذا تستمر حياة الرحل وفق هذا النمط .

❖ النمط الثاني :

وهو الاستثناء والأندر في بلاد العرب ، وقد وُجد هذا النمط منبثقاً من النمط الأول ، حيث عمد بعض الرُّحل من النمط الأول إلى الاستقرار عندما توفر لهم مصدر الرزق بشكل ثابت ، وابتدعوا نمطاً آخر للحياة يعتمد على الثبات والاستقرار في مكان محدد يقيمون فيه مجتمعاً مستقراً يعتمد على هياكل تنظيمية إدارية وسياسية واجتماعية بشكل أو بآخر .

وفي هذا النمط من الحياة لم يعد الماء والكلأ هما المطلب الأساسي والنهائي للعربي ، بل أصبحت السلعة المتبادلة بالمقايضة أو العملة ذات القيمة الذهبية أو الفضية هي الغاية النهائية التي بحصوله عليها تمكن من تأمين حاضره ومستقبله ، وقام هذا النمط في شق يسير منه على فلاحة الأرض المحدودة وزراعتها اعتماداً على مياه الآبار والأمطار ، أما الشق الأكبر من هذا النمط فقد اعتمد على التجارة التي باتت هي عماد حياة المجتمعات العربية التي شكّلت حواضر زاهرة في شبه الجزيرة أو في إقليم الحجاز وعليها قام الحضر .

ثانياً : مراكز الاستقرار على مستوى شبه جزيرة العرب :

الثابت تاريخاً أن العرب ينحدرون من إسماعيل النبي بن إبراهيم أبي الأنبياء وإسماعيل هو أخوا إسحاق ، حيث أن إبراهيم عليه السلام لم ينجب إلا ولدين : الأول والأكبر هو إسماعيل بن هاجر الجارية الفرعونية المهداة لإبراهيم من فرعون (ملك) مصر ، والثاني الأصغر هو إسحاق بن سارة التي عاشت عاقراً وأنجبته على كِبر ، وقد أنجب

إسحاق يعقوب ، وعليه فيعقوب أبو يوسف وبنيامين والأسباط هو بن إسحاق ، وليس ابناً ثالثاً لإبراهيم ولكن حفيداً له .

أما إسماعيل فقد أنجب ولدين هما : قحطان وعدنان ، وقد استقرت قبيلة قحطان في الجنوب ، وسكنت اليمن وكونت فيها حضارات مستقرة وتجمعات عمرانية معروفة تاريخياً ، أما قبيلة عدنان فقد انتشرت في الوسط والشمال ، وسكنت وسط شبه جزيرة العرب وإقليم الحجاز وبادية الشام ومشارف بلاد الرافدين من جهة الغرب ، وظهرت في الشمال ثلاثة تجمعات حضارية لأبناء عدنان هم : كندة والأخميديون والغسانيون .

وعليه فقد انتشرت المراكز الحضارية على امتداد بلاد العرب ، وتمركزت في ثلاثة مناطق : في الجنوب حيث تمركزت قبيلة قحطان في اليمن ، وفي الوسط حيث تمركز بعض أبناء عدنان في إقليم الحجاز في مكة والطائف ويثرب ، واختلط بهم أبناء قحطان مهاجرين من الجنوب ، وفي الشمال حيث تمركز بقية أبناء عدنان في مملكة كندة وإمارة الأخميديين وإمارة الغسانيين ، وكانت هذه التمركزات الحضارية بمثابة تمركزات وسط فضاء فسيح من الصحاري التي يجوبها البدو الرحل .

والمصادر التاريخية التي وردتنا عن مملكة كندة العربية محدودة ولا تكاد تعطي تفاصيل ذات مغزى عن أحوال تلك المملكة ، ومن أهم تلك المعلومات النادرة أنها قد سقطت تحت ضغوط الأخميديين الذين أقاموا إمارتهم في الحيرة ، وكانوا على اتفاق مع الإمبراطورية الساسانية في طيسفون ويعملون لصلحتها وتحت إمرتها في مواجهة الغسانيين الذين كانوا على اتفاق مع الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية ويعملون لصلحتها وتحت إمرتها ، أما إمارة الأخميديين فهم من عرب عدنان وأقاموا هذه الإمارة في بلاد الرافدين وكانت عاصمتها ومركزها في الحيرة ، وكانت قريبة من الدولة الساسانية في طيسفون ، أما إمارة الغسانيين فقد نشأت هي الأخرى من أبناء عدنان في المنطقة الواقعة بين " دجلة الوسطى

والجنوب الدمشقي " وكانت إمارة الغسانيين تجاور إمارة الأخميديين ويعملان معاً كحدود فاصلة بين الإمبراطورية الساسانية في الشرق والإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وقد عرفت الإمارتان المذكورتان قدراً من التنظيم الإداري والسياسي يعتد به كذلك ازدهرت الأحوال المادية والاقتصادية للإمارتين بسبب وقوعهما على طريق التجارة بين الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية .

وفي الجنوب استقر أبناء قحطان في اليمن ، وأقاموا بها عدة مراكز حضارية متتالية وكانت الضغوط تتعاقب على ممالك اليمن من الدولة الساسانية في الشرق ومن إمبراطورية الحبشة أو دولة الأكسوميين التي أسسها العرب في إفريقيا في الغرب ، حتى أنها لم تسلم من ضغوط الدولة البيزنطية التي وصلت إلى اليمن في القرن السادس الميلادي .

وقد شهدت هذه المراكز والتجمعات الحضارية الثلاثة في الشمال والوسط والجنوب ازدهاراً مادياً واقتصادياً أساسه التجارة التي كانت هذه المراكز تمثل بالنسبة لها حلقة الوصل ، حيث كانت هي ذاتها مصدر القليل منها الذي توفره ذاتياً ، أما أكثرية سلع ومنتجات تلك التجارة فقد كانت تجلبه من كافة المناطق المجاورة ، وإلى جانب التجارة المعتمدة على الإنتاج الذاتي أو تجارة الترانزيت ، فقد كانت هناك الزراعة والإنتاج الحيواني اللذان ربما ازدهرا في بعض هذه التجمعات بسبب وقوعها في واحات وفيرة المياه الجوفية أو لوجود الأنهار القصيرة أو مياه الأمطار الموسمية .

ثالثاً : مراكز الاستقرار على مستوى إقليم الحجاز(مكانة الإقليم وموقعه) :

ثم ننتقل من عموم بلاد العرب لنقصر التحليل على إقليم الحجاز ، الذي سيقوم بدور البطولة في تلك البلاد ، ثم في العالم أجمع ابتداءً من منتصف القرن السادس الميلادي ، حيث سيستقبل الرسول الذي سيحمل العقيدة الجديدة وسيدعو إليها وينشرها في كل

العالم ، وحيث سيكون هو منطلق هذه العقيدة ، وسيحملها أبناؤه ليجوبوا بها الآفاق ، وسيظلون يدعون إليها إلى أن يتسلم منهم اللواء إخوانهم من الفرس ثم من الأتراك ، وهكذا تظل هذه العقيدة في حالة حركة بفعل ولاء معتنقيها الذين تبعث فيهم دوماً روح الحماس .

وبالرغم من أن إقليم الحجاز جزء لا يتجزأ من بلاد العرب ويحمل كافة سماتها الطبيعية والاقتصادية وحتى السكانية والاجتماعية ، إلا أنه كان يحمل في ذات الوقت من الخصوصية ما جعله متميزاً في الكثير من النواحي ، يضاف إلى ما تقدم ضرورة التعامل مع هذا الإقليم على انفراد ودراسة كافة أحواله وظروفه ، وذلك ترتيباً على الدور الذي سيقوم به من أجل العقيدة التي ستحل على أبنائه وسيتحملون تبعات نشرها وتبليغها .

وتأسيساً على الدور الذي سيقوم به إقليم الحجاز في مسار عقيدة الإسلام ومستقبلها ثم على المكانة التي تبوأها ذلك الإقليم بالنسبة إلى بلاد العرب وشبه الجزيرة ، وذلك قبل نزول الرسالة ، كان من الضروري تكثيف الضوء على ما تجمع لدى الإقليم من مقدرات مختلفة الأبعاد يمكن تناولها فيما يلي :

❖ المكانة الدينية :

إن تاريخ إقليم الحجاز قد يرتبط في الوعي الجماعي للعرب برحلة سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء من شمال العراق إلى مصر ثم لإقليم الحجاز ثم التردد بينه وبين الأرض المقدسة في الشام وفلسطين أكثر من ارتباطه بتاريخ القبائل العربية التي انقسمت إلى قبيلتي عدنان وقحطان ، فلقد اكتسب الإقليم كثيراً من أهميته ودلالته من الأماكن المقدسة التي وُجدت به والنسك والشعائر التي تمارس على أرضه ، فالسمة الشعائرية للإقليم قد دفعت به إلى موقع متميز في عقول وقلوب العرب بالرغم من تمرسهم بعبادة الأصنام والأوثان .

لقد كان التدين راسخاً في قلوب وعقول العرب ، حتى وإن كان بعيداً عن عقيدة التوحيد التي انحرفوا عنها جميعاً بعد أبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل ، والتي لم يستمر معتنقاً لها ومتمسكاً بها إلا قلة من العرب الذين عُرف عنهم الحكمة والقدرة على الانقطاع للتأمل والتفكير في أماكن خاصة للعبادة كان أشهرها الغيران في الجبال ، وتلك كانت الحنيفية السمحاء وأولئك كانوا الحنفاء وهم أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام في الحج والختان واعتزال الأصنام وكان على رأس هؤلاء أمية بن أبي الصلت وكذلك الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

أما بقية العرب فقد اتخذوا من الأصنام والأوثان وسيلة تقربهم إلى الله زلفى ، وكان لهؤلاء شعائرهم ونسكهم ولأُلئك شعائرهم ونسكهم ، وكان بيت الله الحرام الذي بناه الخليل إبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل هو المنتهي الذي يقصده الجميع لمارسة الشعائر والنسك ، فالحنيفيون يقصدون البيت ليطوفوا به ويصلون في رحابه وفق ملة نبيهم إبراهيم ، والوثنيون قد نصبوا آلهتهم بالبيت العتيق ، فهم يقصدونه لتقديس تلك التماثيل والأصنام والتقرب بها إلى الله ، وعلي ذلك فعاطفة التدين وغريزة البحث عن الإله الخالق والتوسل إليه كانت كامنة في ضمائر الجميع ، وكان كل يعبر عنها بما هداه الله إليه من عقل وتفكير ، ومن ثم ارتفعت مكانة إقليم الحجاز لدي العرب قاطبة وعرب الجزيرة علي وجه الخصوص نظراً لمنزلته الدينية والشعائرية ، وسوف نعود إلى تفصيل ذلك عند الحديث عن الحياة الدينية في المبحث السادس من هذا الفصل .

❖ المكانة الاجتماعية :

مما لاشك فيه أن المكانة الدينية لإقليم الحجاز بالوصف الذي قدمنا كان لها دورها الفعال في تعزيز المكان الاجتماعي لقريش التي تنحدر من قلب العرب وتعبر عن عراقة أصلهم

ونقائه ، وقد تولت قريش أمر بيت الله الحرام ، فأخذت على عاتقها سدانة البيت وعمارته وسقاية الحاج وتأمينهم في حلهم وترحالهم ، وهكذا ازدادت مكانة قريش الاجتماعية في العرب ، وأضيف ذلك إلى رصيد الإقليم ، فنظر العرب إلى إقليم الحجاز نظرة إجلال وإكبار لمكانته الدينية ولعراقة أصل بنيه ، وسنزيد ذلك إيضاحاً عند تناول الظروف الاجتماعية للعرب في المبحث الخامس من هذا الفصل .

❖ المكانة الجيوسياسية :

لقد كان إقليم الحجاز دوماً بالنسبة لبلاد العرب بمثابة حلقة الوصل مع العالم الخارجي ، بسبب موقعه الجغرافي على البحر الأحمر ، وكونه مفتاح تلك البلاد ومدخلها من جهات الشمال الغربي والغرب والجنوب الغربي ، وقد فطن أهل الإقليم لذلك الموقع ولأهميته ، فعملوا بحاستهم على استثماره في مسائل عديدة منها : التجارة الدولية وعلاقات التوازن مع الإمبراطوريات الثلاثة القائمة في ذلك الزمن وهي : الإمبراطورية الساسانية في طيسفون ، والإمبراطورية الرومانية في القسطنطينية والإمبراطورية الحبشية (الأكسوميين) في الحبشة ، وسوف نفصل ذلك في موضعه من المبحث السابع من هذا الفصل .

❖ مراكز الاستقرار في الإقليم :

الحديث عن مراكز الاستقرار في إقليم الحجاز ينقلنا تلقائياً إلى الحديث عن الوضعية الحضارية للمجتمعات العربية التي عاشت في الإقليم خلال القرن السابع الميلادي ، حيث استقبل إقليم الحجاز في نهاية عقده الأول عقدية الإسلام ، ومراكز الاستقرار تعني الحديث عن مستوى ونموذج معين من التطور الحضاري في المجتمعات الإنسانية .

وقد شهد إقليم الحجاز نوعين من النماذج الحضارية ، النموذج الأول : هو نموذج البداوة

أو البدو الرُّحل أو الرحالة ، وكان ذلك هو الأعم الأغلب في إقليم الحجاز ، وقد أخذ الشكل العام لحضارة البداوة التي انتشرت على مستوى بلاد العرب التي سبق لنا تحديدها ، والنموذج الثاني : هو المجتمعات المستقرة التي كان أشهرها في ذلك الوقت القرية ، وقد عرف إقليم الحجاز ثلاثة قرى شهيرة ، كان لها دورها في تطور حركة العقيدة منذ نزولها وانبعاثها ثم انطلاقها وانتشارها ، وكانت هذه القرى هي : مكة والطائف ويثرب (المدينة المنورة فيما بعد البعثة) .

وكانت العلاقة بين هذين النمطين الحضاريين لا تسير على وتيرة واحدة ، ولكنها كانت مزيجاً من علاقات التعاون والصراع ، التعاون الذي كان يأخذ شكل الاعتماد المتبادل في بعض الأمور مثل تبادل السلع والمنتجات أو تحقيق بعض المنافع والمآرب والصراع الذي يطفو على السطح ويفرض نفسه على الجميع عندما تقسو الطبيعة على البدو والحضر معاً وتضن بعطائها ، فيحل الصراع محل التعاون بين النمطين الحضاريين بل كثيراً ما نشاهده وقد أصبح طابعاً مميزاً للعلاقات بين البدو أنفسهم .

رابعاً : الحالة المادية للبدو في بلاد العرب :

ذكرنا أن البداوة هي النمط الحضاري الغالب في بلاد العرب الصحراوية الوعرة والقاسية ، وقد اتسم كل شيء في هذه البلاد بالقسوة وشحة العطاء ، وقد انعكست تلك السمات على الرحل وعلى نفسياتهم ووتيرة حياتهم وطرق معيشتهم ، ويمكننا تكثيف الضوء على نمط البداوة الحضاري ، ومن ثم الحالة المادية للرحالة من خلال ما يلي :

❖ خصائص الرحل :

لقد كان البدوي أو الأعرابي في لغة العرب صنيعة حقيقية وانعكاساً مباشراً وواقعياً لبيئته التي اتسمت بالقسوة والوعورة وشحة العطاء ، وتتمثل خصائص البدو الرحل أو الأعراب

في مجموعـــة الخـــصائص الشخـــصية والنفـــسية وحتـــى الوجدانيـــة والـــشكلية (المظهرية) التالية :

- تسميتهم : البدو هم أهل البادية والمقيمون فيها والآتون منها ، والبادية هي فضاء واسع فيه المرعى والماء ، والبدو جمع ، وكذلك بُدَّاء ، والمفرد بـادي ، قـال تعـالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] ، والبدو في هذه الآية الكريمة يقصد بها البادية وسكانها .

وقال تعـالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [2] ، والبـاد في هـذه الآيـة الكريمة هو المقيم في البادية و القادم منها .

أما الأعراب من العرب فهم سكان الباديـة الـذين يغلـب عليهم حيـاة الترحـال والتنقـل حيث يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ ، والواحد أعرابي ، قال تعالى ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [3] .

- السمات الجسمانية والسلوكية : تعويلاً على البيئة التي يعـيش فيهـا البـدو ، وقـسوة الطبيعة في تلك البيئة ، وما اعتادوه في حياتهم كنتـاج لتلـك البيئـة ، تحـددت الـسمات الجسمانية والسلوكية للبدو أو الأعراب في سمات كثيرة ، نذكر منها ما يلي :

---

[1]. سورة يوسف : ١٠٠ .

[2]. سورة الحج : ٢٥ .

[3]. سورة الأحزاب : ٢٠ .

○ الجفوة والخشونة : وقد اعتادها البدو من طبيعة حياتهم وقسوة ظروفهم ووجودهم بشكل مستديم في العراء والبعد عن التجمعات العمرانية المدنية .

○ حدة الطباع : كذلك تركت عناصر البيئة في الأعراب سمات : حدة الطباع والمزاجية وسرعة التقلب وفجائية التصرف وأحياناً الرعونة في السلوك .

○ قوة التحمل والجلد وشدة المراس والصبر : وكل هذه السمات نابعة من البيئة التي يعيش فيها البدو والظروف التي يتعاطون معها ، وفي ذلك قال الحق تبارك وتعالى في وصف الأعراب ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] ، وهذه الآية الكريمة قد خصت جزءً أو بعضاً من الأعراب ، حيث وسمتهم الآيتان السابقتان في سورة التوبة بسمات بشعة سيئة ، وهي الكذب الشديد والنفاق الشديد والجهل بحدود الله ، فهذه الآية خصت البعض من الكل وميزت الخاص من العام .

وقال تعالى ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [2] ، وهذه الآية تشير إلى ما لدى الأعراب من قدرات وقوى ومكنات تمكنهم من مواجهة أولي البأس والقوة ، وأنهم كانوا قد ألفوا الفرار والتولي يوم الزحف أي القتال .

○ اعتياد شظف العيش والقناعة بالقليل والتقشف : كذلك اعتاد الأعراب بسبب بيئتهم الصعبة أن يقتاتوا على المتاح النادر من المواد الغذائية النباتية في معظم الأحوال ، وان يقنعوا بالقليل من الغذاء والكساء والماء ، وهذا وذاك قد عودهم على التقشف وتحمل

---

[1]. سورة التوبة : ٩٩ .

[2]. سورة الفتح : ١٦ .

الجـوع والعطـش والنـصب ، قـال تعـالى ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [١] ، وقـد ذكـرت هـذه الآيـة الكريمـة مجموعة من المشاق والصعاب التي اعتادهـا الأعـراب في حيـاتهم مثـل : الجـوع والظمـأ والكدر والتعب ، وهي ليست بغريبة عليهم إذا كانت في سبيل الله .

○ سعة الحيلة والمكر والدهاء : اعتـاد البـدو في حيـاتهم الـشاقة وبيئـتهم الـصعبة غـير المعطاءة أن يحتالوا على طلب الرزق والحصول على مستلزمات حياتهم من ماء وكـلأ كمـا ألفوا المكر والدهاء في التعامل مع عناصر الوجود ومعطيات البيئة من موجودات وكائنات ، وقد وضح كل ذلك في تعاملاتهم وتفاعلاتهم مع المجتمعات التي يعيشون فيها أو يتعاملون معها ، وقد ورد في ذلك قول الحـق تبـارك وتعـالى ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٢] .

وقـال تعـالى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٣] .

○ النفور من القوانين والتنظيمات الفكرية والسلوكية : البدوي أو الأعرابـي شـديد النفـور من كل ما يقيـد حريتـه الفكريـة أو الـسلوكية ، فهـو يرغـب في أن يبقـى طليقـاً في فكـره وحركته ، كما هو دائم الترحال مستمر التنقل ، فهـو لا يألف القوانين والقواعد ، ويميـل

---

[١]. سورة التوبة : ١٢٠ .

[٢]. سورة التوبة : ٩٠ .

[٣]. سورة التوبة : ٩٨ .

إلى التنصل منها ، ولا يذعن للتنظيمات المدنية والحضارية ، فهو يقول ما يشاء ويتحرك كيفما يريد ، ويتصرف وفق الظروف والأحوال ، لا يحده إلا العادة والعرف ، وهما بالنسبة له أكثر مضاءً وتأثيراً من القانون والتنظيم .

- السمات النفسية والأخلاقية : كذلك تحددت لدى البدو سمات نفسية وأخلاقية بصمتها في حياتهم ظروفهم الطبيعية وأحوالهم المادية ، ومن تلك السمات يمكن رصد ما يلي :

○ عدم الميل إلى الاستقرار والنفور من حياة التمدين وازدراء المدنية والعمـــران : البدوي بطبعه يألف الحياة التي اعتادها ، وهي حياة الترحل والتنقل الدائم وفق توفر المرعى والماء ، ويستغرب حياة المدنية ، حيث الاستقرار والارتباط بعوامل ثابتة مثل الأرض والمسكن والمهنة أو الحرفة ، وحيث المجتمع المستقر الثابت المنظم بقواعد وترتيبات وتنظيمات ، وحيث القوانين والالتزام في القول والحركة والسلوك وحتى في الفكر ، ويستهجن أنماط الحياة المدنية بتصنعها وتكلفها ، ونماذج العمران بزخارفه وتعقيداتـــه ، لأنه بطبعه تلقائي وبسيط وارتجالي .

○ عدم الارتباط بالمكان أو الأرض ، واعتياد حياة التنقل والترحال : إن الأعرابي يستثقل الارتباط بالمكان الثابت والمقر الدائم ، فقد اعتاد الفضاء الفسيح ، وتخيل أنه دوماً مِلك له يتحرك فيه ويتنقل عليه حيث شاء ، وينظر بقلق وريب إلى كل ما هو ثابت من أرض أو عقار ، لأنه يحد من حركته ، ويقيد حريته التي جُبلت على أن تكون طليقة لا يحدها إلا حدود الصحاري الواسعة والفلوات المترامية ، إن ممتلكات الأعرابي لابد أن تكون منقولة ، حتى تمكنه من الرحيل والتنقل في أي وقت ، أما العقار الثابت فهو يجذب الأعرابي إلى الأرض ويرسخه في المقر ، وهذا لا يروقه حيث يضطره إلى الاستقرار ويبعده عن الترحال والتنقل اللذين اعتادهما دوماً .

○ عدم الاكتراث بحياته لأنه لا يملك ما يخشى فقدانه : ما تقدم يفضي إلى أن الأعرابي لا يملك ما هو ثابت ، وبالتالي فهو ليس لديه ما يخشى فقده إلا حياته الشخصية وحياة من يعول أو يرتبط به ، وعلى ذلك فحياة البدوي ليست عزيزة عليه ، فهو يمكنه أن يقدمها في أي وقت فداءً لبئر ماء أو مساحة من المرعى ، وما من شك في أن ذلك قد طبع حياة البدو على الشجاعة التي هي أقرب إلى المجازفة والمغامرة والبسالة وحب الصراع واعتياد الحرب والنزال .

○ الشُّح والحرص : شحة الطبيعة وقسوتها ، وندرة ما يمتلكه الأعرابي ، وصعوبة الحصول على الرزق ، علمته الحرص على ما في يده ، لأنه لو افتقده فسوف يجد صعوبة في الحصول عليه مرة أخرى ، وكذلك فهو لا يعطي بسهولة ، وإذا أعطى فلا يعطي إلا القليل ، فالجود من الموجود ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

○ الكفر والنفاق والكذب : قد تحكم حياة البداوة على الأعرابي أن يتسم بسمات غاية في البشاعة ، وقد وصفه خالقه بتلك الصفات في كتابه العزيز ، حيث قال ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[3] .

---

[1]. سورة التوبة : ٩٠ .

[2]. سورة التوبة : ٩٧ .

[3]. سورة التوبة : ١٠١ .

وقـــال تعـــالى ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ [1] .

❖ مرتكزات نمط البداوة الحضاري :

فيما سبق تعرضنا لخصائص الرُّحل التي وسمت سكان بلاد العرب الذين كانوا يعيشون على نمط البداوة الحضاري بسمات جسمانية شكلية ، ثم بأخرى نفسية وسلوكية ، والآن نتحول إلى تناول مرتكزات هذا النمط الحضاري ، وقد تعينت تلك المرتكزات في ثلاثة مرتكزات تأسس عليها ذلك النمط وهي : الجمل والكلأ والغزو ، وسوف نعمد إلى تفصيل تلك المرتكزات فيما يلي :

– الجمل : المرتكز الأول من مرتكزات نمط البداوة الحضاري هو الجمل ، وهذا الحيوان الصبور بالرغم من بطئه إلا أنه يرمز للحركة ودوام التنقل والترحال علاوة على كونه الأداة الوحيدة القادرة على التحرك في تلك البيئة ذات الخصوصية ، والذي يلائم البدوي في كافة تحركاته ووتيرة حياته ، فالجمل يمكنه قطع مسافة ثلاثمائة كيلومتراً في اليوم ، وهو يحمل أثقالاً تصل إلى أربعمائة كيلوجراماً ، وعليه فالجمل وأنثاه (الناقة) يمثلان أساس الحياة في الصحراء ، والناقة تكمل دور الجمل ومهمته الشاقة في هذا النمط الحضاري البدائي ، فهي تعطي اللبن وتشترك مع الجمل في توفير اللحم كغذاء فاخر في المناسبات ، والجلد الذي تصنع منه الخيام وأحياناً الثياب ، والوبر الذي تصنع منه الثياب ، وأخيراً الروث الذي يستخدم كوقود ، إن الجمل وفق ما تقدم يصبح مرادفاً لمعنى الحياة .

إن سرعة تأقلم الجمل مع الحياة الصحراوية والجفاف قد وضعته في مقدمة الحيوانات

---

[1] سورة الفتح : ١١ .

الأليفة في هذه البيئة الصحراوية ، فهو يتفوق على الغنم والماعز فيما يتعلق بالطعام والثياب ، كما أنه يتفوق على الحمير والبغال فيما يختص بالنقل ، وإضافة لما تقدم فإن الجمل هو الذي منح الحصان فرصة الاستخدام واسع النطاق ومتعدد الأغراض في المناطق غير الجبلية ، وذلك لأن كفاءته تقل في المناطق الجبلية عندما يقارن بالجمل ، فعلاوة على كونه حيوان الحروب والانتصارات فهو لا يذبح ولا يؤكل ، كما انه يشارك البدوي في الأكل والشرب ، أي الحبوب والمياه التي تحمل من أجله فهو " مسافر مرفه " .

– الكلأ : المرتكز الثاني في هذا النمط الحضاري البدائي هو الكلأ ، والكلأ يرتبط عضوياً بالماء الذي ينزل من السماء أو يخرج من باطن الأرض ، والكلأ يبحث عنه الجميع : الإنسان والحيوان ، وهو الذي يوجه ويقود حركة البدو ، وهو يرتبط بالمواسم التي تسقط فيها الأمطار ، وتحدد كل جماعة لنفسها مجالاً حيوياً للحركة تسقط فيه الأمطار وينبت فيه الكلأ ، وعليه فالكلأ هو عماد اقتصاد هذا النمط الحضاري البدائي ، فعندما تسقط الأمطار ويزدهر الكلأ تنتعش حياة البدو وتتكاثر حيواناتهم ، وعندما يسود الجفاف ويندر الكلأ أو يهرب ينضب كل شيء حتى ضرع الحيوان ، وتزداد الصراعات والغارات ، وتكثر الهجرات من موطن إلى آخر بحثاً عن الضالة المنشودة وهما الكلأ والماء .

إن وتيرة نمط البداوة الحضاري المرتكنة على الحركة الدائمة والارتباط بالماء والكلأ تتطلب معدات معينة بسيطة وبدائية ، يتمثل أهمها في : الدلو والقربة والخيمة المصنوعة من وبر الماعز أو جلود الحيوانات ، وبسهولة شديدة وبسرعة خاطفة يمكن للبدوي أن يحزم كافة مستلزمات حياته من مأوى وملبس ومأكل ويحملها على ظهر الجمل ثم يرحل إلي حيث يجد الماء والكلأ فيقر إلى حين .

– الغزو : المرتكز الثالث في نمط الحضارة البدوية هو الغزو ، وهو يمثل مرتكزاً لهذا النمط لأنه يشكل أساس حياة البدوي حيث يُلجأ إليه في معظم الأحوال ، ويعد سلوكاً يومياً ،

وتبدو أهمية الغزو في حضارة البداوة وتبرز ضرورته إلي أن يصبح الملاذ الأخير للإبقاء على الحياة وحفظ الوجود ، وذلك عندما تتغير الفصول ويشتد الجفاف وتقلع السماء ، وتتحول الأرض من نعمة تنبت الكلأ وتختزن الماء في باطنها إلى نقمة تمتد إلى ما لا نهاية قاحلة جرداء تلتهب رمالها وتبتلع من عليها عندما تتحرك كسبانها الرملية في حركة دراماتيكية مأساوية تنتهي بالفناء .

عندئذ يصبح التمسك بالحياة والإبقاء على الوجود مبرراً وجيهاً ومقبولاً في عرف هذا النمط الحضاري الغريب للغزو وسلب ما لدى الغير من حيوان وإنسان ، ومن ثم زحزحته عن مكانه والاستيلاء عليه إذا كان ثرياً بالكلأ والماء ، وهكذا تتكرر الغزوات وتستمر إلى أن تصبح جزءً من تفاعلات وحِراكية هذا النمط الحضاري .

وعندما يصبح الغزو ضرورة في خضم هذه الحياة يغدو من الأهمية بمكان البحث في طبيعة هذا الغزو وتوجهاته ، فالبدو يعيشون في جماعات تنتمي إلى قبائل متكاملة أو موزعة على عشائر متفرقة ، والغزو قد يكون بين البدو أنفسهم في شكل غارات سريعة مقصدها اختطاف بعض الحيوانات من الجمال والماعز ، وقد تكون بين العشائر وبعضها داخل القبيلة الواحدة أو بين العشائر من القبائل المختلفة ، إلا أنها قد تتحول إلى صراعات عنيفة بين القبائل وتنتهي بأسرى وسبايا ونهب وسلب وقتل على أوسع نطاق ، بل وطْرد من الموطن والاستيلاء على الأرض .

كما قد يكون الغزو بين البدو الرحالة وبين المجتمعات الحضرية المستقرة في واحات داخل الصحراء أو على مشارفها من القرى والمدن ، وتستهدف غارات البدو في هذه الحالة سلب بعض مستلزمات الحياة مثل الحبوب والبلح والأسلحة والثياب وغيرها من مستلزمات المدنية والعمران .

❖ الحالة المادية للبدو :

مما تقدم يمكن استخلاص أن الأوضاع المادية لنمط البداوة الحضاري غير مستقرة ولا تثبت على حالة واحدة ، فالاقتصاد في هذه المناطق اقتصاد غير ثابت يرتكز على أسس أهمها : القناعة بالمتاح من حيوان ومأكل ومشرب ومأوى وملبس ، وكلها متواضعة وبسيطة ، ثم التقشف والصبر على قسوة الظروف وشح الطبيعة ، وأخيراً يصل هذا الصبر إلى منتهاه عندما تشرف الحياة على الانتهاء ، وعندما يندفع البدوي تحت ضغط غريزة حب البقاء إلى الغزو واختطاف وسلب ما بيد نظرائه من البدو الآخرين ، أو من حضر الواحات أو حضر القرى والمدن المقيمين على مشارف الصحراء ، وهكذا تستمر حياة البدوي المادية دولة بين القناعة والتقشف وسلب ما بيد الآخر .

خامساً : الحالة المادية للحضر :

الحديث عن الحالة المادية للحضر يرتبط بشكل أو بآخر بالحالة المادية للبدو التي سبق وأوضحناها ، كما يرتبط كذلك بطبيعة العلاقة بين البدو والحضر ، ويمكننا الخوض في ذلك الحديث من خلال جملة الأفكار التالية :

❖ طبيعة التجمعات المستقرة [نمط التجمعات الحضرية] :

المتتبع لنشأة التجمعات المستقرة في بلاد العرب ، والتي تبلورت أخيراً في شكل قرى ومدن يلحظ أن تلك التجمعات لم تكن سوى تجمعات بدوية رحالة استقرت في الواحات التي يوجد بها مصدر للمياه الجوفية أو الأمطار الموسمية المنتظمة في وسط الصحراء أو علي سواحل البحار ، فأصل هذه التجمعات الحضرية المستقرة هو البدوي الرحالة الذي استقر وألف نمطاً معيناً من الحضارة أرقى فكراً وسلوكاً من نمط البداوة وارتبط بالاستقرار والمدنية والتنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والثقافية .

لقد أصبحت نظرة البدوي المتحضر أو المتمدّن إلي البدوي الرحالة نظرة ازدراء وعدم ارتياح ، وربما احتقار واعتباره متخلفاً وهامشياً ، إلا أنه سيعترف بأهمية وجوده في لحظة ما عندما يتبادل معه المصلحة التي تثبت تطورات الحياة أنها ضرورية لاستمرار حياة المجتمعات المستقرة وازدهارها .

إن الحديث عن التنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية في سياق الحديث عن طبيعة النمط الحضاري للمجتمعات المستقرة له أهميته ، وسوف نخوض فيه بتوسع وإسهاب على مراحل مختلفة من هذا الفصل .

❖ نشاط التجمعات الحضرية المستقرة :

والآن لنتحدث عن نشاط التجمعات الحضرية المستقرة في بلاد العرب ، وهي القرى والمدن التي انتشرت في الجنوب والوسط والشمال ، وقد تنوعت النشاطات الاقتصادية تنوعاً شديداً على النحو التالي :

– الزراعة : أول معالم الاستقرار ومرتكزاته هو الزراعة ، كما أنها أساس التجمع وبنية اقتصاده التي تترتب عليها الحرف والنشاطات الأخرى من صناعة وتجارة وغيرها ، والزراعة في المجتمعات المستقرة في بلاد العرب قامت على مياه الآبار في الواحات أو مياه الأمطار في المدن الساحلية ، إلا أن الزراعة في تلك المناطق الحضرية بنوعيها التي تقوم على مياه الآبار والأخرى التي تقوم على مياه الأمطار عادة ما كانت تتعرض لحالات مفاجئة من الجفاف والجدب نتيجة قلة الأمطار أو انعدامها أو جفاف الآبار وغور مياهها ، وكانت المحاصيل المألوفة هي الشعير والقليل من القمح إلى جانب النخيل كمحصول شهير في هذه البيئة والمزروعات التي تناسب تلك البيئة بظروفها الطبيعية والمناخية ، وكانت الزراعة هي الأساس لمهن وحرف أخرى صنعت مجتمعة الاستقرار وتوطيد أركان المجتمع المدني .

– الرعي وتربية الماشية : ارتبطت حرفة الزراعة بحرفة الرعي وتربية الماشية في المجتمعات الحضرية في بلاد العرب ، وأهم الحيوانات ـ كما سبق الإيضاح ـ تمثلت في ماشية اللحم واللبن ، وهي الإبل والماعز والضأن ولم تكن الأبقار معروفة على نطاق واسع ، نظراً لما تحتاج إليه من مرعى خاص ، وحيوانات الركوب والحمل مثل الحمير والبغال والخيل ، وكانت حرفة الرعي وتربية الماشية تستهدف الاستفادة من الحيوان في الأغراض التي يصلح لها مثل اللحم والألبان والنقل ، ثم الاستفادة منه كذلك في بيعه والاستفادة من ثمنه .

– التجارة : كانت التجارة في كثير من الأحيان تمثل الحرفة الأهم والأكثر مردوداً والأعمق أثراً في تفاعلات المجتمعات الحضرية في بلاد العرب ، وتوزعت التجارة في بلاد العرب إلى : تجارة الترانزيت أو التوصيل مثل نقل منتجات الجنوب إلى الشمال والعكس ، والشرق إلى الغرب والعكس ، وتجارة التبادل التي تتم بين المراكز الحضرية في بلاد العرب وبعضها ، أو بينها وبين المراكز الحضرية خارج نطاق بلاد العرب مثل الإمبراطورية الساسانية أو الإمبراطورية الرومانية أو الإمبراطورية الحبشية ، وسوف نزيد هذه المسألة تفصيلاً في موضع متقدم من هذا الفصل .

– الحرف : انتشرت في المراكز الحضرية في بلاد العرب ممارسة العديد من الحرف والصناعات التي تحتاج إليها تلك المجتمعات أو التي تنقل [تصدر] إلى مجتمعات أخرى مثل صناعة بعض المواد الغذائية من التمور أو منتجات الألبان والملابس ومعدات وأدوات الحرب .. إلخ .

❖ العلاقة بين البدو والحضر ومردوداتها الاقتصادية :

العلاقة بين البدو والحضر في بلاد العرب كان لها طابعها الخاص ، وتوقفت عليها أمور

كثيرة أثرت في واقع النمطين الحضاريين وتفاعلاتهما الاجتماعية ، ويمكننا استعراض جوانب تلك العلاقة في منطلقات متتابعة علي النحو التالي :

– الغزو هو بداية العلاقة : تبدأ علاقة البدوي الرحالة بالحضري المزارع أو التاجر بالغزو ، حيث يكون ذلك بمثابة فاتحة التعامل وباكورة التعاطي بين الطرفين ، فالجفاف والجدب وصعوبة الأحوال المناخية وقسوة الطبيعة وشحها يدفعون البدوي إلى غزو الأرض المجاورة التي عادة ما تكون مركزاً حضارياً مستقراً ، وتستهدف هذه الغزوة اختطاف الغنم والجمال ، ولكنها قد تتطور إلى غزوة عنيفة تراق فيها الدماء وتختطف النساء والأطفال ليباعوا فيما بعد كعبيد أو لتبادل الفدية ، ويالها من فرصة قاسية للتعارف وبداية العلاقة بين الطرفين .

– العلاقة الجدلية بين الطرفين : بعد ذلك تبدأ علاقات الطرفين في التحول إلى العلاقات النمطية ذات الوتيرة المعتادة ، حيث يستوعب كل طرف دوره وأهميته بالنسبة للآخر ، فالحضري المستقر في الواحات أو عند مشارف الصحراء ـ سواء أكان مزارعاً أو تاجراً ـ يعد مصدراً للمواد الأساسية مثل : الحبوب والبلح والأسلحة والثياب ، وفي المقابل يقدم البدوي حمايته ضد غزوات البدو الآخرين ، كما يقوم بتنظيم مرور القوافل وقيادتها وحمايتها طوال عبورها لأراضيه .

– علاقة التجارة والتبادل بين الطرفين : مما لاشك فيه أن العلاقة بين الطرفين البدوي والحضري تتطور في أحد جوانبها لتأخذ علاقة تجارة وتبادل منافع ومصالح وهذه العلاقة قد تكون علاقة مقايضة بسيطة مثل تبادل الأغنام والجمال بالحبوب والأسلحة والثياب وغيرها ، وقد تكون علاقة مقايضة مركبة مثل مقايضة الحماية والخدمات الأخرى بالسلع المدنية .

ومما لاشك فيه أن علاقة البدوي الرحالة بالحضري المتمدن تقود إلى نتيجة مؤداها أن أياً منهما لا يمكنه أن يعيش في حالة اكتفاء ذاتي ، فكل منهما يمثل ضرورة بالنسبة للآخر .

– التوازن في احتياج كل من البدوي والحضري للآخر : إن النظامين الاقتصادي والاجتماعي في بلاد العرب يثبتان ضرورة وجود الشخصيتين معاً ، فكل منهما ضرورة للآخر ، وقد قدر لكل منهما أن يقيم توازناً دقيقاً بحاسته التي تكيفت مع البيئة بكافة ظروفها وتفاعلاتها الطبيعية والمادية والإنسانية ، وتبدو أول تعبيرات ذلك التوازن في الخدمات التي يقدمها كل طرف للآخر ، فالبدوي يقدم الأمن بشقيه : الأمن السلبي حيث يكف يده عن مهاجمة الحضري والإغارة عليه وقض مضجعه والأمن الإيجابي في الدفاع عن الحضري ضد هجمات وغارات الآخر ، والبدوي في مقابل الأمن الذي يكفله للحضري يحصل على السلع والمنتجات التي ينتجها في مجتمعه المستقر .

ولم يتوقف التوازن بين البدو والحضر عند معناه التبادلي ومغزاه المنفعي بل تطور إلى درجة الرغبة الكامنة في حفاظ كل منهما على الآخر ، ومثار هذه الرغبة أن المنفعة أو المصلحة التي يحققها كل منهما للآخر قد تكتلت بقوة وراء حفاظ كل منهما على الآخر كي تستمر المنفعة التي تلعب دوراً قد يكون جوهرياً في استمرار حياة كل منهما .

– تحول أي من النمطين الحضاريين إلى الآخر : إن الحديث عن العلاقة بين البدو الرحالة والحضر المستقرين تفرض على المتابع أن يخوض في حديث آخر ذي صلة وثيقة ، وهو أن أياً من النمطين الحضاريين قد يتطور إلى الآخر ، إذ يمكننا الحديث عن مجتمعات أو أنماط حضارية بدوية تمدنت أو تحضّرت ، وعن مجتمعات أو أنماط حضارية حضرية جرفتها الصحراء فأصبحت بدوية ، وما من شك في أن عملية التحول هذه تترك آثارها على وتيرة حياة كل من النمطين بعد تحوله بما في ذلك الأحوال المادية التي قد تنتعش في حالة الانتقال إلى نمط التحضر والاستقرار ، أو قد تنتكس في حالة الجدب والتصحر والانتقال إلى نمط البداوة .

سادساً : الظروف الطبيعية تترك آثارها على النمطين الحضاريين معاً :

خلاصة التحليل المتقدم تتبلور في القول بأن الأحوال المادية في المراكز الحضرية المستقرة في بلاد العرب كانت أكثر رواجاً وانتعاشاً من الأحوال المادية عند البدو الرحل ، إلا أن هذا التحليل ينصرف إلى المقارنة بين النمطين فقط على مستوى البيئة الطبيعية والظروف السائدة في بلاد العرب ، ولكن عند الحديث عن النمطين معاً بظروفهما الطبيعية ومقارنتهما بأنماط حضارية أخرى في مناطق أخرى من العالم فقد يأخذ الحديث منحى آخر ويتطلب تحليلاً مختلفاً .

❖ إن أول النتائج التي يمكن أن يفضي إليها التحليل المقارن تتمثل في الجزم بأن الظروف الطبيعية الصعبة والقاسية التي أوجدت فيها بلاد العرب عموماً وبصفة خاصة شبه الجزيرة ، قد تركت بصماتها على النمطين الحضاريين اللذين تواجدا في هذه المنطقة وهما البدو والحضر ، فكانا يعانيان معاً في أحايين كثيرة من القحط والجدب وشظف العيش ، وكانت تلك الحال هي الغالبة ، أما الدعة ورغد العيش فكانا هما الاستثناء .

❖ وكان من شأن النتيجة المتقدمة أن تفضي إلى نتيجة أخرى منبثقة كذلك عن التحليل المقارن ، ومفادها أن الأحوال المادية للنمطين معاً كانت دوماً وفي الأغلب الأعم أكثر سوءً من المناطق المجاورة في الإمبراطورية الساسانية أو في الإمبراطورية الرومانية أو في الإمبراطورية الحبشية أو في بلاد الهند والصين على المستوى الأبعد ، وقد يزداد هذا الأمر وضوحاً عند استعراض الدور الإقليمي والعالمي لإقليم الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي ، وذلك عندما نتأكد من أنه بالرغم من الدور الحيوي الذي لعبه الإقليم على المستويين الإقليمي والعالمي في تلك الفترة إلا أنه لم يكن أكثر تلك المناطق رواجاً من الناحية المادية .

المبحث الثالث

الوضعية الحضارية

فيما سلف تناولنا جانباً من الوضعية الحضارية لبلاد العرب ، وذلك عند حديثنا عن الحالة المادية للبدو والحضر ، وإذا كان حديثنا الأول جانبياً فرعياً فإن حديثنا في هذا المبحث عن الوضعية الحضارية لبلاد العرب أو لشبه جزيرتهم سيكون جوهرياً أصيلاً .

إن الحديث عن حضارة بلاد العرب يعني الحديث عن طريقة وأسلوب تعامل العرب مع عناصر الوجود وموجودات الكون في المناطق التي عاشوا فيها ، ثم عن نتائج ومخرجات تلك الطريقة وذلك التعامل في تعبيرات ونماذج هي عينها الأنماط الحضارية البدوية والحضرية التي قامت في تلك البلاد ، والتوضيح فيما يلي :

أولاً : انتشار نمط البداوة وسيادته في بلاد العرب ثم تطوره :

الصحراء أو البادية هي جُل بلاد العرب والفضاء الذي وُجدوا وانتشروا فيه منذ انبعاثهم من أصولهم الأولى ، ومن ثم فهم منذ نشأتهم وهم في مواجهة مباشرة وقوية مع تضاريس الصحراء ومناخها ومعطياتها الطبيعية الوعرة والقاسية ، وما كان عليه إلا أن يخوضوا تلك المواجهة شاءوا ذلك أم أبوا ، وظل العرب في تلك المواجهة التي أخذت مسارات ومسالك وأشكال محددة ثم أنتجت آثاراً وإفرازات معينة .

والثابت وفق التحليلات الأنثروبولوجية والسيسيولوجية أن البداوة نمط حضاري مميز وقائم بذاته وله أشكاله وتعبيراته وتفاعلاته ، وهو بذلك طور في أطوار الترقي والتسلسل الذي شهده المجتمع الإنساني منذ نشأته ، ويمكن لنا متابعة المسارات والمسالك التي سلكها هذا النمط الحضاري في بلاد العرب ، ثم تحصيل النتائج والإفرازات التي أفضى إليها وذلك من خلال الآتي :

❖ المسارات والمسالك التي سلكها نمط البداوة الحضاري في بلاد العرب:

نمط البداوة الحضاري كنمط حضاري سائد في بلاد العرب ، اتخذ عدة مسارات وسلك جملة من المسالك ، يمكن استعراضها وتحليلها في الآتي :

– التعاطي والتفاعل : كان أول مسار أو مسلك سلكه البدوي مع الطبيعة المحيطة به في بلاد العرب بأوضاعها الطبيعية والمادية سالفة التبيان هو التعاطي والتفاعل مع الطبيعة إجمالاً ، وهي عناصر الوجود الإنساني وموجودات الكون من كائنات ومخلوقات وموجودات وظواهر .. إلخ ، والتعاطي والتفاعل هما بمثابة سلوك يعني الأخذ والرد ، أي الاستجابة أو التجاوب مع الطبيعة بوصفها السابق على ما هي عليه وفق معطياتها ، ثم العمل على استيعاب ظروفها وفهم أوضاعها وكنه حقائقها وظواهرها ، فهذا المسلك إذن هو مسلك الفهم والاستيعاب والإدراك والوعي بالمحيط الذي يعيش فيه الإنسان .

وعليه فإن هذا المسلك أو السلوك المتمثل في التعاطي والتفاعل يقترن بنشاط فكري ذهني يتمثل في الوعي والإدراك ، فالأول سلوك حركي فعلي ، والثاني نشاط فكري ذهني ، والنشاط الفكري الذهني لازم وضروري للسلوك الفعلي الحركي حتى لا يخرج ذلك السلوك عشوائياً مرتجلاً طائشاً لا معنى له ولا غاية من ورائه .

والوعي في هذا السياق يعني الحفظ وسلامة تقدير وإدراك وشعور الفرد بما في داخله وما يحيط به من ظواهر وحقائق داخل البيئة الطبيعية ، أما الإدراك فهو إعمال قوى العقل وتفعيل قدرات الذهن من أجل النفاذ إلى حقائق الأشياء وفقه طبيعتها .

– التأقلم والتكيف : المسار أو المسلك الثاني الذي سلكه البدوي في بلاد العرب للتعامل مع عناصر الوجود تمثل في عملية التأقلم والتكيف ، وهذه تعد عملية مركبة يختلط فيها النشاط الفكري العقلي بالسلوك الفعلي الحركي ، وتتجسد تلك العملية في تهيئة الجوارح

والحواس وكذا الوجدان والنفس للرضاء والقبول للمعطيات والثوابت التي أوجدتها الطبيعة وظروفها وأوضاعها على ما هي عليه ، وتتبلور قناعة مبدئية بصعوبة التغيير وعدم المقدرة على القيام به ، إلا أن تلك العملية لا تقطع السبيل أمام البدوي في التفكير في إمكانية التطويع والتحوير في تلك المعطيات والثوابت .

– التطويع والتحوير : المسلك الثالث الذي يسلكه البدوي في بيئة بلاد العرب تعين في عملية التطويع والتحوير ، وهي عملية أيضاً مركبة تجمع بين النشاط العقلي الذهني والسلوك الفعلي الحركي ، فهذه العملية تعني التوصل إلى زعم أو افتراض بإمكانية التغيير والتبديل في بعض المعطيات الطبيعية حتى تصبح محتملة أو في بعض طبائع وخصال النفس البشرية حتى يمكنها التحمل ، وكل ذلك لمصلحة الإنسان وتحقيق أهدافه في الحفاظ على ذاته واستمرار بقائه .

إن ما تقدم من تطويع وتحوير يعني البحث في كيفية تغيير وتبديل المعطيات الطبيعية من جهة والنفس البشرية من جهة أخرى ، وذلك بالالتفاف والتحايل على تلك المعطيات ، وزيادة مقدرات ومكنات التحمل والتصميم لدى النفس ، وينتهي ذلك البحث إلى التأكيد على عملية التأقلم والتكيف وزيادة فرص استمرارها بل وتطورها ، كما ينتهي أيضاً ذلك البحث إلى تهيئة مجال لإمكانية التطوير والارتقاء .

– التطوير والارتقاء : المسلك الرابع الذي سلكه البدوي في تعامله مع عناصر الوجود وموجودات الكون التي تحيط به في البيئة الصحراوية الشديدة الوعورة تحدد في توصله إلى بناء قدراته الذاتية من أجل تحويل المعطيات الطبيعية إلى وضعية جديدة تحقق هدفه وغايته وتنقله إلى حالة أمثل وأفضل تسبب له الارتياح النفسي والانفراج الوجداني والانبساط المادي ، ومن شأن هذا المسلك أن ينقل البدوي إلى طور حضاري جديد هو طور التحضر والتمدن .

❖ النتائج والإفرازات :

ثم ماذا كانت نتائج وإفرازات النشاطات الفكرية والذهنية والسلوكات الحركية الفعلية التي باشرها البدوي في البيئة التي أوجد فيها ، لقد كانت النتائج والإفرازات على قدر يعتد به من الأهمية والحيوية والإبهار ، حيث أثبتت وأكدت على أن نمط البداوة الحضاري هو نمط قائم بذاته وله استقلاليته كطور من أطوار الحضارة الإنسانية ، وكرافد من روافد نهر المدنية البشرية المتدفق ، وكذا على حيوية وحِراكية ذلك النمط وإمكانيته وقابليته للانتقال إلى أطوار حضارية أخرى أكثر تقدماً ورقياً ، ويمكن تناول نتائج وإفرازات العلاقة بين البدوي العربي والبيئة المحيطة به في ما يلي :

– الاستمرار والتواصل : إن أول نتائج وإفرازات كافة أشكال ونماذج العلاقة بين البدوي وعناصر الوجود المحيطة به في البيئة الصحراوية في بلاد العرب تمثلت في قدرته الخارقة على مواصلة حياته والحفاظ على وجوده في هذه البيئة التي تجابهه عناصرها وكأنها ترفض ذلك الوجود ولا تقبل به .

لقد قابل الأعرابي تحديات البيئة في بلاد العرب وموطنهم بإصرار وقوة على أن يحافظ على بقائه ويحفظ وجوده لأزمان طويلة ، صحيح أنه لجأ إلى أساليب عديدة عربية للهروب المؤقت من قسوة الظروف بالهجرة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ولكنه لم يهجر موطنه الأصلي ومسقط رأسه ، فكان يجوب كافة أنحاء شبه الجزيرة ولكنه لم يخرج منها إلا مرتين : الأولى عندما عبر البحر الأحمر من باب المندب متوغلاً غرباً في إفريقيا واستقر عند منابع نهر النيل وأسس مملكة الأكسوميين ، والثانية عندما خرج خروجه العظيم حاملاً للعقيدة العالمية الإنسانية المكافحة ، عقيدة التوحيد الإسلامية ميمماً شطر جميع الجهات ، وباستثناء ذلك لم يغادر بلاده ولكن هروبه كان في جنباتها ، واحتفظ طيلة

الوقت بوجوده وواصل استمراره وبقائه في شبه الجزيرة وما أضافه إليها من مساحات في الشمال وسّعت من مصطلح شبه الجزيرة ليصبح بلاد العرب .

- العطاء الفكري والثقافي : إن بروع العربي وعبقريته لم يبرزا فقط في قدرته على الاستمرار والبقاء بالرغم من قسوة الظروف ، ولكنها تأكدت عندما لم تثنه تلك الظروف عن العطاء الفكري والإفراز الثقافي ، فقد كانت تلك الظروف دافعاً مثالياً حدا بالعربي الأعرابي لأن يبدع فكراً ويفرز ثقافة نبعت من قريحته متأثرة ببيئته وعاكسة لظروفه ، بثها شكواه من تلك الظروف ، وعبر من خلالها عن قناعته ورضاه وإصراره على مواصلة الحياة بصبر وجلد ، برز ذلك في شعره وفي نثره كتعبيرات فكرية ، ثم برز مرة أخرى في بطولاته وملاحمه وما تضمنته من قيم وسلوكات أخلاقية مثالية نُسجت حولها الأساطير والخيالات .

لاشك في أن نمط البداوة الحضاري كانت له ثقافته وأفكاره ، التي عبرت عنه أصدق تعبير ، وعكسته بصدق ومهارة ، وسوف نزيد هذا الموضوع تفصيلاً في المبحث التالي من هذا الفصل .

- التحول والارتقاء إلى النمط الحضري المستقر : ثم يواصل العربي البدوي بروعه ومهارته في علاقته بالظروف المحيطة والبيئة المهيمنة ، حيث لا يكتفي بالبقاء والاستمرار في عزم ومضاء ، بل ويقدح زناد فكره ولباب قريحته بثقافة كانت عبقرية وفذة في كثير من جوانبها ، ويزيد على ذلك وذاك بترقية وضعه وتحويل ظروفه إلى نمط حضاري آخر أكثر رقياً وتقدماً عندما ينشئ المراكز الحضارية في القرى والمدن ، وهذا النمط هو موضوع دراستنا ومحل تحليلنا في البند التالي .

ثانياً : نمط المراكز الحضرية الحضاري :

نمط المراكز الحضرية الحضاري هو التطور الطبيعي التلقائي لنمط البداوة الحضاري في بلاد العرب وشبه جزيرتهم وإقليم الحجاز ، وتحقيق ذلك أن التجمعات البدوية قد استقرت إما في الصحراء حول آبار الماء الدائمة حيث تكونت الواحات ، ومثال ذلك مكة والمدينة ، وإما على السواحل البحرية حيث تسقط الأمطار الموسمية كما في اليمن وبادية الشام .

لقد بين القرآن الكريم مرجعيتنا الأساسية والنهائية ، ثم أوضحت الحفائر الأثرية والروايات التاريخية أن ثمة مراكز حضرية عربية تناثرت علي امتداد بلاد العرب علي مر التاريخ منذ أن استقرت سفينة نوح علي الجودي ، إذ أن الثابت أن نوح هو أصل العرب وجدهم الأعلى ، فهم قد انحدروا من أحد أبنائه ، في حين أن إسماعيل بن إبراهيم أبو الأنبياء هو الجد الأقرب لهم ويمكننا الحديث عن أهم المراكز الحضرية في بلاد العرب على النحو التالي :

❖ المراكز الحضرية العربية في الجنوب [إحالة] :

– أهمها : بالنسبة إلى المراكز الحضرية العربية في الجنوب يمكننا تناول أكثر من مركز ، وسوف تكون مرجعيتنا في هذا التناول هي القرآن الكريم ، ونوردها بالترتيب فيما يلي :

○ المركز الأول : هو حضارة عاد الأولي قوم هود : وقد عمروا وادي الأحقاف من حضرموت باليمن الحالي ، وعُرفوا بهذا الاسم نسبة إلي أبيهم عاد ، وعُرفوا كذلك بـ " أرم " وهو لقب قبيلة قوم عاد علي اسم جدهم أرم ، وهم ينحدرون من نسل نوح عليه السلام ، فهو الأصل الأول للعرب وجدهم الأعلى أو الأبعد ، ويُقصد بنسله أبناؤه أو أحفاده الذين نجوا معه في سفينته الشهيرة ، ومن ثم فهم أساس وأصل العرب ، وقد هاجر بعض قوم هود من عاد الأولى أو أرم ، قبل أن يرسل الله عليهم الريح العقيم

بالعذاب الأليم ، إلى مكة وانتشروا في أحياء أخرى ، وواصلوا انتشارهم نحو الشمال إلى أن وصل نسلهم الذي تكاثر إلى نينوى في شمال العراق (بلاد ما بين النهرين) وهي الموصل الحالية ، وهناك وُلد ونشأ إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام من أبيه آذر ، وقد أنجب إبراهيم إسماعيل من هاجر وهو الجد الأقرب للعرب ، ومن نسله قحطان وعدنان ، ونحيل في تفصيل الوضعية الحضارية لهذا المركز إلى الباب الأول من هذا الجزء .

○ المركز الثاني : مملكة سبأ : المركز الثاني من المراكز الحضرية الشهيرة في جنوب بلاد العرب تجسد في مملكة سبأ ، وتنسب هذه المملكة إلى قبيلة سبأ المشهورة في مأرب باليمن الحالي ، وقد أوتيت هذه البلاد من خيرات الله ونعمه ما صار حديث المعاصرين ، فقد تمتعت هذه المنطقة بالمناخ المعتدل ، أنشئت فيها الجنان التي غصت بطيب الثمار ، وكانت تتخللها العيون والأنهار ، التي مصدرها المياه العذبة من الأمطار ، التي تتجمع خلف سد شهير عُرف بسد مأرب ، وقد اشتهرت هذه الحضارة كذلك بمساكنها وقصورها الخلابة ، ولا تزال ثمة بقية من آثار هذه الحضارة .

وتنسب هذه الحضارة إلى أبناء قحطان ، وقد أقيمت في هذه المنطقة مراكز حضرية أخرى عديدة تواردت على مر التاريخ ذكرتها سِيَر الماضين وكتاب التاريخ ولكنهم لم يذكرها القرآن الكريم مثل بني حمير ومعين ، أما قوم تبع فقد أشار إليهم القرآن الكريم إشارة عابرة ولم يُعلم عنهم إلا القليل .

– خصائص حضارات الجنوب : اتسمت المراكز الحضرية في جنوب بلاد العرب وبصفة خاصة في اليمن وحضرموت بمجموعة من الخصائص نتناول أهمها في الآتي :

○ المراكز الحضرية في الجنوب قامت على الزراعة والاستقرار الناتجين عن الأمطار الموسمية ، وعندما أصيبت تلك المراكز بالجفاف اضطر أهلها من العرب القحطانيين إلى

الهجرة شمالاً حيث استقروا في يثرب ومن أهمهم الأوس والخزرج .

○ لم تكن المراكز الحضرية في الجنوب على اتصال وثيق بالقوة الكبيرة الفاعلة في ذلك الوقت ، وهي الإمبراطورية الساسانية في الشرق والإمبراطورية الرومانية في الغرب .

○ كانت المراكز الحضرية في الجنوب يغلب عليها خصائص وسمات نمط البداوة الحضاري أكثر من غيرها ، وذلك لارتباطها بذلك النمط وتأثرها به .

○ كذلك كانت الهوية العربية للمراكز الحضرية في الجنوب هوية خالصة ولم تختلط بهويات أخرى ، وذلك ناتج عن قلة اختلاطها بغيرها من المراكز الحضرية الأخرى المحيطة بها .

○ كان اتصال المراكز الحضرية في الجنوب وثيقاً بإفريقيا وبصفة خاصة بإمبراطورية الأكسوميين في الحبشة ، وهي ذات أصل عربي .

○ أيضاً كانت المراكز الحضرية في الجنوب على اتصال وثيق بالمراكز الحضرية في الهند والصين ، وكانت تلك الاتصالات متشعبة منها التجاري ومنها الحضاري والثقافي .

❖ المراكز الحضرية العربية في الشمال [إحالة] :

– أهم المراكز الحضرية : في شمال بلاد العرب نشأت عدة مراكز حضرية أساسها البدو الرحالة ، ويمكننا الإشارة إلى أهم تلك المراكز والتي ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم في الآتي :

○ المركز الأول : ثمود قوم صالح : وقد خلفوا قوم عاد الأولى ، وهم من نسلهم ، أي من العرب الأقدمين ، وعمروا منطقة تعرف باسم الحجر بين المدينة والشام ، ونحيل في تفصيل الحديث عن هذا المركز الحضري العربي إلى الباب الأول من هذا الجزء .

○ المركز الثاني : قوم إبراهيم : لعل قوم إبراهيم هم أقدم العرب بعداً عن بلادهم أو جزيرتهم ، فقد كان موقعهم الأصلي شمال بلاد ما بين النهرين ، في موضع يقال له نينوى وهو الموصل الحالية ، إلا أن إبراهيم الخليل أبا الأنبياء عليه السلام ومن آمنوا معه خرج من نينوى موطنه الأصلي وعبر نهر الفرات متجهاً جنوباً في رحلته الطويلة في اتجاه بيت المقدس ثم مصر ، ولذلك عُرف هو وأتباعه بالعبرانيين ، وظل بعد ذلك يتردد بين بيت المقدس حيث مقر زوجته سارة ومكة المكرمة موضع بيت الله الحرام الذي سيعيد بناءه هو وابنه إسماعيل ، وكان ذلك بعد خروجه من مصر ومعه زوجته هاجر المهداة إليه من فرعون مصر ، وقد بُشر إبراهيم بإسحاق من سارة وهو في بيت المقدس حيث زاره جبريل ومن معه من وفد الملائكة الكرام قبل أن يذهبوا إلى قوم لوط في قرية المؤتفكات في صحراء الأردن ليخرجوا منها لوطاً ومن معه من المسلمين قبل أن يعذبوا أهل هذه القرية بالحجارة المسومة ولوط هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام ، ونحيل في تفصيل شأن حضارة قوم إبراهيم إلى الباب الأول من هذا الجزء .

○ المركز الثالث : الغسانيون : وهم أحدث تاريخياً وينحدرون من نسل عدنان من إسماعيل ، وكانوا على مشارف الإمبراطورية الرومانية ، وقد سبق لنا تناول هذا المركز ببعض التفصيل في المبحث السابق .

○ المركز الرابع : الأخميديون : وهم معاصرون للغسانيين وهم كذلك من أبناء عدنان من إسماعيل ، وكانوا على مشارف الإمبراطورية الساسانية ، وقد سبق لنا تناول هذا المركز في المبحث السابق .

– خصائص حضارات الشمال : أما عن المراكز الحضرية في الشمال فقد اتسمت هي الأخرى بمجموعة من السمات والخصائص ، نذكر أهمها في الآتي :

○ كانت مراكز الشمال في معظمها مراكز مستقرة على مجاري مائية كما أن مناخها يميل إلى الاعتدال أو البرودة .

○ كانت مراكز الشمال دوماً على اتصال وثيق بالقوى الفاعلة على المستوى الأممي ، وبالذات الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية .

○ كان نمط البداوة غير واضح ولا يمثل السمة الغالبة في المراكز الحضرية في الشمال ومن شأن ذلك أن يدحض المزاعم الضحلة التي تحدثت عن العرب تحت مسمى " السراسنة " وهم الرحالة وقطاع الطرق الذين كانوا يعيشون على مشارف حدود الإمبراطورية الرومانية ويهاجمون تلك التخوم بشكل مستديم ، وقد أطلق البعض على هؤلاء واعتبرهم هم أصل العرب ، وذلك محض وَهْم نابع من نظرة ضيقة وفهم سطحي لهذه الحقبة من التاريخ ويحتاج إلى تعديل ومراجعة دقيقة .

○ لقد تأثرت الهوية العربية في المراكز الحضرية في الشمال بالاختلاط الذي حدث مع شعوب وأمم من عناصر وأعراق أخرى ، وبالرغم من ذلك الاختلاط الذي أصاب نقاء العنصر العربي ببعض الشوائب إلا أن تلك المراكز حافظت على عروبتها كصفة غالبة .

❖ المراكز الحضرية في إقليم الحجاز :

ثم ننتقل إلى إقليم الحجاز الذي كانت له الخصوصية والتفرد على مستوى بلاد العرب وشبه الجزيرة ، وقد تناولنا جانباً من هذه الخصوصية وذاك التفرد في المبحث السابق ، وفي هذا الموضع سوف نعمق ذلك التناول ونوسع مساحته ليشمل الخصائص والسمات التي وردت في المرجعية الأساسية وهي القرآن الكريم بوصفه الكتاب السماوي المقترن بعقيدة التوحيد الإسلامية ، وقد اهتم الذكر الحكيم بإقليم الحجاز بأنه مهبط الوحي ، والمكان الذي استقبل الرسالة ، ثم انطلقت منه عقيدة التوحيد الإسلامية إلى أرجاء الأرض ، وقد

برز ذلك الاهتمام في الإشارات إلى المراكز الحضرية الثلاث في الإقليم صراحة وضمناً وكناية ، للتقديس والتمجيد ، وسوف نستعرض ذلك فيما يلي ثم نستنبط منه خصائص هذه المراكز الحضارية :

– ذكر المركز الحضري معرفاً بالألف واللام للعهد أو معرفاً بالإضافة إلى ضمير المخاطب المتصل وهو الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : كرر القرآن العظيم ذكر المراكز الحضرية الثلاثة في إقليم الحجاز معرفاً أو مضافاً إلي ضمير المخاطب المتصل وهو الرسول الكريم ، وذلك إعلاءً لشأن تلك المراكز الحضرية وتنبيهاً إلي دورها في مستقبل العقيدة العالمية الإنسانية المكافحة ، ونلحظ ذلك فيما يلي :

○ مكة المكرمة : أهم مركز حضري في إقليم الحجاز ، اختارها الله جل وعلا ليضع فيها بيته الحرام ، الذي بنته الملائكة ثم أعاد بناءه إبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل عليه السلام ، ورد ذكرها في القرآن الكريم على النحو التالي :

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] ، فاستجاب الله سبحانه لدعوة نبيه إبراهيم بأن جعل مكة بلداً آمناً ، ورزق أهله مؤمنهم وكافرهم ، وجعله بلداً حراماً ، وهذا تشريف ما بعده تشريف ! .

وقال تعالى ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[2] ، في هذه الآية الكريمة نسب الحق تبارك وتعالى الظلم إلى أهل مكة من الكفار والمشركين ، فقال "

[1]. سورة البقرة : ١٢٦ .

[2]. سورة النساء : ٧٥ .

الظالم أهلها " ولم يقل القرية الظالمة ، لأن بها مقدسات الإسلام وشعائر العقيدة ، فكل ما فيها من مخلوق وموجود محرم ترهيبه إلا ما صرّح به الله في كتابه العزيز ، أما الكفار والمشركون فهم نجس فلا يقربوا مقدساتها .

وقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [1] ، في دعاء إبراهيم في الآية الأولى قال " رب اجعل هذا بلداً آمناً " فجاءت لفظة " بلد " نكرة لأنه كان في بداية استقراره بها ، حيث أسكن بها زوجته هاجر وابنه إسماعيل ، أما في الآية الثانية فقد جاءت لفظة " البلد " معرفة بالألف واللام ، وذلك للعهد فقد باتت معروفة .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [2] ، وهذا الحديث أورده الذكر الحكيم على لسان الرسول الكريم حيث قال " إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها " فقد جاءه الأمر الإلهي بأن يعبد الله الإله الخالق رب مكة ومقدساتها وهو رب كل شيء ومليكه ، وإنما صرح برب هذه البلدة نظراً للأهمية والتشريف الذي لا يضاهى ، فهي تعدل في كرمها وفضلها كل ما عداها .

وقال تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [3] ، وهنا أيضاً تعريف بالإضافة ، حيث عُرفت القرية بإضافتها إلى ضمير المخاطب المتصل وهو " الكاف " وفي هذه الآية إثارة لحنين الرسول الكريم إلى بلده وقريته ، حتى لا يحنق على أهلها ، ولا يدعو عليهم بالعذاب ، كما فعل الأنبياء من قبله ، ولم يشأ الحق تبارك

[1]. سورة إبراهيم : ٣٥ .

[2]. سورة النمل : ٩١ .

[3]. سورة محمد : ١٣ .

وتعالى أن يعذب أهل هذه القرية وهي مكة إكراماً للرسول الكريم ، فهو الذي قال فيها " الله يشهد أنك أحب البلاد إلى قلبي،ولو لم يخرجني أهلك منك ما خرجت منك أبداً "

○ المدينة المنورة – طيبة – مدينة الرسول الكريم : المركز الحضري الثاني من حيث الأهمية والقداسة والتشريف في إقليم الحجاز هو مدينة رسول الله ، هاجر إليها فأواه ونصره أهلها ، وأقام بها أول دولة إسلامية على وجه الأرض ، وانطلقت منها عقيدة التوحيد الإسلامية لتجوب أقطار الأرض ، بها مسجده الحرام ، الذي وجب شد الرحال إليه ، وبها قبره الشريف ، وسنذكر المواضع التي جاءت فيها المدينة معرفة بالألف واللام للعهد .

قال تعالى ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

---

[1]. سورة التوبة : ١٠١ .

[2]. سورة التوبة : ١٢٠ .

[3]. سورة الأحزاب : ٦٠ .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

○ الطائف : المركز الثالث من المراكز الحضرية في إقليم الحجاز ، ورد ذكره مضمراً في آية كريمة من الذكر الحكيم حيث قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [2] ، والقريتان هما : مكة والطائف .

– ذكر المركز الحضري صراحة للتعظيم والتشريف : كذلك ورد ذكر مكة وبكة صراحة في القرآن الكريم تعظيماً وتشريفاً لمقامها ، وذلك كما يلي :

○ مكة وبكة : قال تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [3] ، وبكة هي مكة بلغة بعض قبائل العرب .

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [4] .

○ يثرب : قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [5] .

– ذكر المركز الحضري مكنى للدلالة على أهميته : لقد أورد الذكر الحكيم مكة المكرمة واصفاً إياها بأم القرى تفخيماً وتعظيماً لقدرها في ذاتها ، وكمنطلق للدعوة الإسلامية ومهبط للوحي والرسالة الخاتمة .

---

[1]. سورة المنافقون : ٨ .

[2]. سورة الزخرف : ٣١ .

[3]. سورة آل عمران : ٩٦ .

[4]. سورة الفتح : ٢٤ .

[5]. سورة الأحزاب : ١٣ .

قال تعالى ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [2] .

– القسم بالمركز الحضري للتقديس وذكر أهم صفاته وسماته : أورد الذكر الحكيم مكة المكرمة مكنى عنها بالبلد ثم أقسم بها الحق تبارك وتعالى في موضعين على النحو التالي :

قال تعالى ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ ﴾ [3] .

وقال تعالى ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [4] .

– خصائص وسمات المراكز الحضرية في إقليم الحجاز : بعد ما تقدم ننتقل إلى رصد جملة الخصائص والسمات التي تبلورت للمراكز الحضرية الثلاثة في إقليم الحجاز فيما يلي :

○ لقد كان ثمة امتزاج وتداخل بين النمطين الحضاريين المعروفين في بلاد العرب في حالة نمط المراكز الحضرية الحضاري في إقليم الحجاز ، فلم يكن نمط التحضر خالصاً في إقليم الحجاز ، بل جاء متداخلاً وممتزجاً بنمط البداوة إلى حد صعوبة الفصل بين النمطين ، كما لم يكن موغلاً في التقدم الرقي العمراني والمدني ، بل كان التفاوت بينه وبين نمط البداوة محدوداً ، وربما اختلف إقليم الحجاز في ذلك عن المراكز الحضرية في الشمال والجنوب ، حيث بدا التفاوت شاسعاً بين نمطي البداوة والتحضر ، وكانت المراكز

---

[1]. سورة الأنعام : ٩٢ .

[2]. سورة الشورى : ٧ .

[3]. سورة البلد : ١ و ٢ .

[4]. سورة التين : ٣ .

الحضرية في الشمال والجنوب قد قطعت شوطاً لا بأس به على طريق المدنية والعمران .

○ لقد برعت المراكز الحضرية في الشمال والجنوب في مجالات التنظيمات الإدارية والسياسية ، وكذا في نماذج العمران والمدنية ، في حين لم تصب المراكز الحضرية في إقليم الحجاز إلا حظاً محدوداً من التقدم في النواحي المذكورة ، ولكنها تفوقت إلى درجة لا تضاهى في نواحي أخرى هي النواحي الدينية والشعائرية والثقافية والفكرية فقد كانت محط أنظار العرب فكرياً وثقافياً ، وقبلتهم الدينية ، فما فقدته المراكز الحضرية الحجازية في مجالات التنظيم الإداري والسياسي والتطور العمراني والمدني نالته بسخاء وحازته بامتياز في مجالات الدين والعبادة والشعيرة والنسك والفكر والثقافة ، وكان ذلك سبباً في غبطة البعض ، فقد تغبطوا إقليم الحجاز على ما يضمه فوق أراضيه من مقدسات يوقرها الجميع ، ونفس السبب المتقدم هو الذي أثار حفيظة البعض الآخر واستنفر حقدهم وحسدهم ، ووصل بهم إلى حد إقامة معبد منافس لبيت الله الحرام ، وذلك عينه ما قام به إبرهه الأشرم الحبشي الذي بنى معبد " القليس " منافساً للمسجد الحرام الذي أزمع هدمه بفيله الشهير .

○ كانت التجارة هي عماد الحياة الاقتصادية في إقليم الحجاز ، في حين كانت الزراعة أقل شأناً ، أما الرعي فكان ثانوياً ، وعليه فقد كانت الزراعة والرعي أقل فاعلية في اقتصاد المراكز الحضرية في إقليم الحجاز ، أما بالنسبة إلى المراكز الحضرية في الشمال والجنوب ، فقد كانت الزراعة هي عماد اقتصاد تلك المراكز في الجنوب ، وكانت التجارة ثانوية والرعي هامشياً ، أما في الشمال فكانت الزراعة تضارع التجارة تقريباً في الأهمية ، وسبب ذلك أن مراكز الشمال ازدهرت فيها الزراعة بسبب الأنهار والأمطار والجو المعتدل نسبياً ، أما التجارة فقد ازدهرت لوقوع تلك المراكز كحلقة وصل بين الإمبراطورية الساسانية في الشرق والإمبراطورية الرومانية في الغرب أما في الجنوب فقد كانت الزراعة

على الأمطار الموسمية هي أساس النشاط البشري ، وكانت التجارة محدودة والرعي هامشياً .

ثالثاً : الصحراء تطبع الجميع في بلاد العرب بطابعها :

بعد أن استعرضنا النمطين الحضاريين السائدين في بلاد العرب ، ننتقل في هذه الجزئية إلى تناول مسألة ذات أهمية فيما يتعلق بالوضعية الحضارية لبلاد العرب وهي طغيان الصحراء على النمطين الحضاريين : البداوة والتحضر ، وهي السمة الغالبة على حضارة بلاد العرب عموماً بدوها وحضرها ، وبنظرة مقارنة سريعة بين ثلاثة حضارات وُجدت في فضاء جغرافي واحد تقريباً ، بل وكانت متجاورة ، ربما تُكشف الضوء على هذه المسألة التي تحتاج إلى معالجة موضوعية .

فالحضارة الفارسية الساسانية في الشرق والحضارة الرومانية في الغرب وُجدتا مع أنماط الحضارة العربية في الوسط وتعايشت جميعاً في زمن واحد هذا التوزيع لأشهر وأهم الأنماط الحضارية القائمة في العالم في ذلك الوقت يفيد بأن الحضارتين الفارسية والرومانية كانتا أقدم وأكثر تطوراً ورقياً من أنماط الحضارة العربية ، وقد شملت أبعاد التطور والتقدم السياسة والاقتصاد والإدارة والثقافة والفكر وكافة أوجه المدنية والعمران ، وعليه وبمنطق المقارنة فقد كانت الحضارتان الفارسية والرومانية موغلتين في التقدم والرقي عن الحضارة العربية ، ففي مقابل التقدم والرقي اللذين أحرزتهما كلاً من الحضارتين الفارسية والرومانية ، كانت الحضارة العربية بدائية ومتواضعة في نمطيها البدوي والحضري معاً ، فقد كانت حضارة صحراء بسيطة ، وهي في بساطتها هذه بدت متناغمة ومتآلفة مع البيئة التي وُجدت فيها بمعطياتها الطبيعية ومكوناتها الاجتماعية والإنسانية ، وهذا ما أعطى هذه الحضارة ميزة غضّت الطرف عن تخلفها وبساطتها ، فتآلفها مع البيئة يشفع لها ذلك التأخر عن الأنماط الحضارية الأخرى ، إذ كيف لها وهي في بلاد ذات طبيعة وعرة

شحيحة واقتصادات جافة أن تقفز فوق هذه المعطيات وتصيغ حضارة أرقى من نمطي البداوة والمراكز الحضرية البسيطة ، وسوف يتضح هذا الأمر من خلال التفصيل التالي :

❖ فكر الصحراء يسود الجميع :

من السهولة بمكان على المتابع التاريخي والمحلل الاجتماعي أن يكتشفا أن العقلية العربية في البدو والحضر كانت متشابهة إلى مدى بعيد ، إذا لم تكن متطابقة في كثير من نشاطاتها وحتى تكويناتها وكذا إفرازاتها ، ومن ثم يمكن استخلاص ما مؤداه أن الفكر والثقافة العربية في ما قبل الإسلام كانا فكر وثقافة الصحراء أو البداوة ، وسوف يتبدى ذلك في شكل أوضح في المبحث التالي من هذا الفصل .

❖ سلوك الصحراء في البدو والحضر :

وإذا تحولنا من الفكر والتفكير اللذين هما عصب الثقافة إلى السلوك والفعل اللذين هما صميم الحضارة وعمودها الفقري ، لوجدنا أن ثقافة الصحراء قد انعكست على النمطين الحضاريين اللذين تضمنتهما الحضارة العربية ، وبصفة خاصة نمط التحضر الذي تجسد في المراكز الحضرية المستقرة .

لقد كان من المنطقي أن يسود سلوك الصحراء في البدو ، أما أن يسود سلوك الصحراء في المراكز الحضرية فتلك ظاهرة صبغت الحضارة العربية وميزتها عن غيرها من الحضارات الأخرى ، وقد اعتبر العرب أنفسهم ذلك نوعاً من الأصالة والقيمة التي يجب الحفاظ عليهما ، حيث اعتقدوا أن المبالغة في التحضر وإلف حياة المدن القرى تضعف لدى العربي قيم الأصالة ومبادئ النخوة والشهامة والمروءة والكرم وما يرتبط بذلك من السلوكات والتصرفات والأفعال القويمة .

❖ تنظيمات الحياة العربية أساسها نمط البداوة الحضاري :

الملاحظ أن نمطي الحضارة العربيـة اللـذين تواجـدا قبـل مجـيء الإسـلام في بـلاد العـرب واللذين تجـسدا في البـداوة والمراكـز المـستقرة لم يـصيبا حظـاً وافـراً مـن التقـدم والرقـي في تنظيمات الحياة بكافـة أبعادهـا الـسياسية والإداريـة الاجتماعيـة ، وحتـى مـا وُجـد مـن تنظيمات بسيطة ومتواضعة كان أساسه القبيلة ، وما ارتبط بها من قـيم وانتمـاءات عرقيـة وعنصرية وفكرية ووجدانية وما ترتب عليه من علاقـات وأواصـر اجتماعيـة كانـت أساسـاً لتلك التنظيمات السياسية والإدارية التي سنزيدها تفصيلاً في المبحث بعد التالي .

إن سيادة فكر القبيلة والانتماء القبلي كان دوماً يصطدم بفكر التنظيم وهدفه الذي يرمي إلى التقليل من الانتماء إلى القبيلة المعتمد على العنصر والعرق والأصـل واسـتبداله بالانتمـاء إلى فكرة أكثر عمومية وتتوزع بين كل الناس وهي فكرة الدولة ، وما تـرتكن عليـه مـن النظـام والقانون بكافة أشكالها البسيطة في شكل القرية والمدينة ، والمعقدة في شكل مجموعة القرى أو المدن أو الولايات ، إن ذلك الصدام المشار إليه أعلاه عادة ما كان ينتهـي لمـصلحة فكـر القبيلة والانتماء إليها والولاء لها ، وكان ذلك يعتبر تمسكاً بالأصـالة وثباتـاً علـى القـيم ، وقد حاول الإسلام منذ نشأته أن يحارب ذلك الانتماء ويقلـل مـن آثـاره وانعكاسـاته علـى أبناء الأمة الناشئة ، وقد أفلح في ذلـك إلى مـدى بعيـد في عـصر النبـوة الزاهـر ، وكـذا في عهدي أبي بكر وعمر ، أما في عهدي عثمان وعلي فقد كان الانتمـاء القبلـي أقـوى وأعتـى من المحاولات التي بُذلت للقضاء عليه ، وكان ذلك سبباً رئيسياً في الفتنـة الكـبرى الـتي انتهت بها عصور الخلافة الراشدة وجرفت الأمة إلى أتّون فوضى مدمرة لم تفق منها الأمـة وتلم شعثها إلى وقتنا الـراهن ، وسوف نزيد هذه المسألة تفصيلاً في الجزئيات التالية .

المبحث الرابع

البيئة الفكرية والثقافية

في هذا المبحث كما فيما ورد من قبله نتطرق إلى تناول جانب أو بعد معين من جوانب أو أبعاد البيئة التي كانت سائدة في بلاد العرب قبل مجيء عقيدة الإسلام وقبل انطلاقها من تلك البلاد ، والبعد الفكري والثقافي يمثل أحد الأبعد المهمة والفاعلة في تلك البيئة ، حيث أرتكنت عليه أفكار الناس ، وشكّل عقليتهم ، وصاغ أنماط تفكيرهم ، وعلى ذلك تبلورت سلوكاتهم تجاه عناصر الوجود وموجودات الكون ، فتشكلت الأنماط الحضارية المختلفة ، ثم تكونت وترسخت معتقداتهم الدينية والشعائرية كنتاج لتلك الأفكار والتكوينات ، في هذا المبحث نعكف على دراسة وتحليل البيئة الفكرية والثقافية في بلاد العرب في منتصف القرن السادس الميلادي ، وسوف يتم ذلك من خلال الآتي :

أولاً : المقصود بالفكر والثقافة :

في هذه الجزئية نتطرق إلى الحديث عن مدركين لهما وزنهما في التأثير على حياة الناس منذ بدء الخليقة ، وهما الفكر والثقافة ، فحياة الناس تتوقف بشكل أكيد ووثيق على فكرهم وثقافتهم ، وانطلاقاً من أهمية الفكر والثقافة في حياة الناس ، ومن أهميتهما في حياة العرب قبل مجيء الإسلام ، ثم من أهميتهما في التأثير على الإسلام بعد مجيئه ، فقد رأينا أن نتصدى لتعريف هذين المفهومين كمدخل عن طريقه يمكننا أن نلج إلى البيئة الفكرية والثقافية في بلاد العرب قبل الإسلام من خلال الآتي :

❖ الفكر :

لعل الفكر هو أول مراحل الإدراك المعنوي عند الإنسان ، فهو جملة النشاط الذهني الذي

يقوم به الإنسان لإدراك معاني الأشياء الحسية والمعنوية ، ويمثل الفكر أسمى صور العمل الذهني التي تعتمد على إعمال العقل ، وتتعين تلك الصور في تحليل وتركيب وتنسيق ما هو معلوم بهدف الوصول إلى ما هو مجهول ، وللإيضاح نعمد إلى تحليل هذا التعريف في الآتي :

- الفكر هو أول مراحل الإدراك المعنوي عند الإنسان : خلق الله الإنسان وزرع فيه وسيلتين لإكتناه حقائق الأشياء والموجودات ، الوسيلة الأولى وهي الأدنى ، وتختص بالتعرف على حقائق الأشياء والموجودات بالحواس الخلقية المعروفة ، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، والوسيلة الثانية وهي الأرقى والأعلى ، وتتعلق بالتعرف على حقيقة الأشياء والموجودات بالمعاني والرموز والقدرة على التخيل ، وهذا ما يعرف بالفكر ، وعليه فالفكر هو أول مراحل الإدراك المعنوي عند الإنسان .

- الفكر عبارة عن جملة النشاط الذهني لإدراك معاني الأشياء : الفكر في عمومه بمثابة جملة النشاط الذهني الذي يقوم به الإنسان لإدراك معاني الأشياء الحسية والمعنوية ، فالفكر إذن نشاط وحركة فعالة ، يقوم بها ذهن الإنسان بهدف إدراك معاني الأشياء الحسية والمعنوية ، وقد يختلف هذا النشاط الذهني من شخص لآخر وهذا ما يميز المفكرين عن غيرهم من بني البشر ، إذ أن أذهان هؤلاء اكثر نشاطاً وحيوية في اتجاه إدراك المعاني والحقائق .

- الفكر يمثل أسمى صور العمل الذهني التي تعتمد على إعمال العقل : مما تقدم نستخلص أن الفكر يمثل أسمى صور العمل والنشاط الذهني ، فهو يرقى بذلك النشاط ليصل به إلى أعلى درجات النشاط والحركة ، حيث يعمل العقل بكامل قدرته ، ويصبح جاهزاً لإفراز الفِكَر ، وإخراج الطروحات التي تتفق مع الفطرة السوية .

– تتمثل صور العمل الذهني في مجموعة صور : تتمثل صور العمل الذهني في مجموعة صور هي تحليل وتركيب وتنسيق ما هو معلوم للوصول إلى ما هو مجهول ، ومن ثم يتوصل العقل – كما سبق الإيضاح – إلى جديد الفِكَر وحديث الطروحات ، من خلال هذه الصور أو إن شئنا سميناها بالعمليات الذهنية ، ويتميز الأفراد فيما بينهم فيما يتعلق بنشاط وحيوية هذه الصور أو العمليات ، وتقود هذه الفروق الفردية إلى تباين الأفكار والتوجهات الإنسانية .

❖ الثقافة :

لقد قُدمت تعاريف عديدة لهذه الكلية الفكرية الجامعة والمتداخلة مع الكثير من المفاهيم والمدركات العقلية والذهنية الأخرى ، وربما تأثرت تلك التعاريف إلى حد ما بالهوية الفكرية والثقافية لمقدميها ، وقلّما وجدنا تعريفاً عاماً محايداً وموضوعياً لهذه الكلية يعطيها وضعها الطبيعي من العمومية والإنسانية والذاتي ، فالثقافة تجمع بين العمومية والإنسانية والذاتية في مزيج أو مركب عقلي فكري جديد بالتأمل ، كذلك فيها النقل والتأثر بأفكار الغير وآرائه ، وفيها الإبداع والابتكار والطرح ، وتقديم الخصوصية والذاتية إلى الناس كافة ليضفي عليها صفة العمومية والإنسانية ، كل ذلك في الثقافة ، فما هي إذن الثقافة ! .

فالثقافة عملية عقلية فكرية مركبة من عدة عمليات فرعية : أولها الإلمام الواسع والعميق بحقائق الأشياء والظواهر وعلاقاتها وتجارب الآخرين ، وثانيها مزج ما تقدم في العملية الأولى بالتجارب الخاصة والرؤى الذاتية والعادات والتقاليد والموروثات الحضارية والقيم الأخلاقية والدينية والمثل والمبادئ ، وثالثها إخراج هذا المزيج في شكل إفراز عقلي يحمل طروحات ورؤى تعكس وجهة شخص أو مجموعة أو مجتمع نحو معالجة كافة تعاملات الإنسان مع ذاته وأقرانه وعناصر الموجود .

وهذا التعريف للثقافة يحتاج إلى تحليل لعناصره ومفرداته حتى يسهل استيعابه وإدراك مراميه ومقاصده ، ويمكننا القيام بذلك التحليل من خلال الآتي :

– الثقافة عملية عقلية فكرية مركبة من عدة عمليات ذهنية : فهي عملية وهذا يعني الحركة والديناميكية ، ويقود تلك العملية العقل الإنساني فهو راشدها ، ويدخل فيها الفكر بالمعنى الذي سبق وعرفناه ، ثم أنها عملية مركبة ، تتركب من عدة عمليات فرعية سوف نوضحها حالاً .

– أول عمليات الثقافة الفرعية تتمثل في الإلمام الواسع والعميق بحقائق الأشياء والظواهر والعلاقات بينها وتجارب الآخرين : وقد يمكننا القول إن شئنا أن هذه هي أول مراحل عملية الثقافة ، حيث تتمثل في إلمام الفرد أو الأفراد أو المجتمع ، الواسع والعميق بحقائق الأشياء والظواهر وعلاقاتها وتجارب الآخرين ، وببعض التدقيق نكتشف أن هذه المرحلة هي مرحلة المعرفة ، فهي إلمام والتقاط واكتساب واسع وعميق ، وكلما اتسمت المعرفة بالاتساع والعمق ، اتسمت بالتالي الثقافة بالاتساع والعمق ، ومعنى ذلك أن أول مراحل الثقافة هي المعرفة ، وأركان المعرفة هي : حقائق الأشياء والظواهر والعلاقات بينها وكذا تجارب الآخرين ، وفي هذه المرحلة تتجلى سمات العمومية التي تتسم بها المعرفة التي تمثل أولى مراحل الثقافة وكذا العالمية ، وذلك من خلال طبيعة القضايا والموضوعات التي يتم اكتسابها والتقاطها والإلمام بها ، وهي حقائق الأشياء والظواهر وعلاقاتها وتجارب الآخرين ، وبعد ذلك تأتي سمة أخرى تتمثل في الموضوعية ، فكافة الموضوعات المذكورة لابد من معرفتها كحقائق مجردة يدركها العقل والذهن وأخيراً تأتي آخر سمات هذه المرحلة أو المعرفة وهي المتمثلة في إمكانية بل ضرورة النقل عن الآخرين فيما توصلوا إليه من حقائق ، وما اكتشفوه من ظواهر ، وكذا تجاربهم الخاصة .

وترتبط المعرفة بالفكر ، فالمعرفة هي الإدراك الحسي أو المعنوي للأشياء والإلمام بها ،

واكتساب التجارب والخبرات كتراكمات توسع المدارك ، وتعمق المفاهيم ، وتوطد العلاقة بين الإنسان وما يحيط به من عناصر الوجود وموجودات الكون ، وعليه وحتى تسهل عملية الربط بين الفكر والمعرفة وبين المعرفة والثقافة يمكننا زيادة إيضاح معنى المعرفة من خلال الآتي :

○ المعرفة هي الإدراك الحسي والمعنوي للأشياء : والمعرفة في هذه المرحلة تتشابك مع الفكر ، حيث يبدأ كل منهما بإدراك الأشياء حسياً أو معنوياً ، وللإدراك الحسي – كما سبق الإيضاح – أدواته ، وكذلك للإدراك المعنوي أدواته ، إلا أنه في حالة الفكر يقترن الإدراك بنشاط ذهني قائم على تفعيل المدركات تمهيداً لتمريرها في عمليات عديدة سبق إيضاحها ، أما في حالة المعرفة فالإدراك قد يتوقف عند حد الإلمام والاكتساب ولا يجاوز ذلك إلى النشاط الذهني .

○ الإلمام بالأشياء واكتساب التجارب والخبرات كتراكمات : كذلك يصحب عمليات الإدراك الحسي والمعنوي للأشياء في حالة المعرفة الإلمام بالأشياء واكتساب التجارب والخبرات ، ويعمد الإنسان بعد ذلك إلى تكديس كل ذلك في شكل تراكمات تتضخم مع الزمن ، وتعتبر هاتان العمليتان أهم ما في مدرك المعرفة ، فالإدراك بنوعيه الحسي والمعنوي هو المرحلة الأولى ، والإلمام بالأشياء واكتساب التجارب والخبرات هو المرحلة الثانية ، فالمرحلة الأولى الجهد فيها محدود ، أما المرحلة الثاني فأكثر تعقيداً وتركيباً ، حيث يخوض الإنسان بعض العمليات التفاعلية مع عناصر الوجود والموجودات في شكل تجارب ، إلا أن نتائج التجارب وخبرات الآخرين قد تصله دون جهد منه ، فيعتبر ذلك نوع من الاكتساب دون تفاعل ، والخلاصة أن المعرفة تعتمد على اكتساب مدركات جديدة وخبرات وتجارب وتوسيع للمدارك .

○ المعرفة مرحلة مهمة ومقدمة منطقية للفكر وحلقة وصل بينه وبين الثقافة : مما تقدم

نصل إلى ما مؤداة أن المعرفة مرحلة مهمة ومقدمة منطقية للفكر وحلقة وصل بينه وبين الثقافة ، حيث أن الفكر مرحلة أكثر نضجاً وتقدماً من المعرفة ولكنه يترتب عليها ، فالمعرفة من مدخلات الفكر والأخير لابد أن يبدأ بالمعرفة ، ثم يطور التراكمات المعرفية عبر النشاط الذهني وعملياته إلى فِكّر وطروحات الثقافة ، المعرفة إذن اكتساب وإلمام وتركيم أو تكديس ، أما الفكر فتفعيل ثم إفراز وإخراج وتوصل إلى المجهول عبر المعلوم ، كما أن المعرفة لا تنتج فكراً بالضرورة ولا تفرز طرحاً ولا تكتشف مجهولاً ، أما الفكر فلابد أن ينتج فِكَراً وطروحات ويُجلي الغيم عن المجهول ، وعليه فهو يلتقي مع الثقافة في كونه يفرز طروحات ولكنها أضيق نطاقاً وتحديداً وتخصيصاً من الثقافة التي هي أوسع نطاقاً وأكثر عمومية وشمولاً بما يجعلها تشمل كافة عناصر الوجود وموجودات الكون .

– ثاني عمليات الثقافة الفرعية تتمثل في مزج ما تقدم في العملية الأولى : أي مرحلة المعرفة والاكتساب ، بالتجارب الخاصة والرؤى الذاتية والعادات والتقاليد والموروثات الحضارية والقيم الأخلاقية والدينية والمثل والمبادئ ، وهنا تبدو سمات الذاتية والخصوصية ، حيث يختلط النقل الوارد بالتعبير النابع من الذات ، فالأول يمثل العالمية والإنسانية ، والثاني يمثل الخصوصية والذاتية ، وتتجسد التعبيرات الذاتية في التجارب الخاصة للأفراد والجماعات والشعوب والأمم ورؤاهم الذاتية وعاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم الحضارية وقيمهم الأخلاقية والدينية ومثلهم ومبادئهم ، وبداخل هذا المزيج تتم عملية تفاعل واسعة النطاق ، تحدث فيها عمليات نزاع وصراع وصدام وحوار ، تتخللها عمليات طرد وعمليات إبقاء ، وتكون النتيجة النهائية إنبثاق مزيج مكون من الفصيلين : المعرفة المكتسبة والتعبيرات والتكوينات الذاتية الخاصة ، وهذا التكوين أو المكون إن هو إلا إفراز جديد يحمل سمات وخصائص مستقلة ومتفردة ، ولكنها تحمل بعض سمات الفصيلين معاً ! .

– وأخيراً تأتي العملية الثالثة من عمليات الثقافة : وهي المتمثلة في إخراج المزيج المشار إليه في شكل إفراز فكري عقلي ، يكون بمثابة طروحات ورؤى تعكس وجهة شخص أو مجموعة أو مجتمع نحو معالجة كافة تعاملات الإنسان مع ذاته أو أقرانه أو عناصر الوجود إجمالاً ، ومعنى ذلك أن المزيج أو المكوّن الناتج عن العمليتين السابقتين سوف يضع أسس وقواعد ومعايير ومقاييس يتم بناءً عليها تحديد وجهة نظر الفاعل سواء أكان فرداً أو جماعة أو مجتمع ومنطقه في التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، وعليه يصبح هذا المكوّن الجديد هو مِلك فكري يحدد رؤية الفرد والمجتمع إلى الكون والوجود ، وفي هذه المرحلة يبدو بجلاء كيف يتشكل الطرح والإبداع والابتكار الذي سيكون بدوره مادة أولية للآخرين ليبدءوا منها عملية تبلور ثقافة من جديد ، وهكذا تستمر الثقافات والمعارف الإنسانية في التفاعل والتشكل والتجدد الدائم .

إن ما سبق من عمليات ومراحل خاصة بتشكل وتبلور الثقافة قد لا يستطيع أي فرد أو حتى أي محلل أن يلحظه أو يستنبطه بسهولة ، وعليه فقد قدمنا في تعريفنا للثقافة بأنها كلية فكرية تبدو دوماً في كلٍ شامل ، لها أشكالها وتعبيراتها ومكوناتها وإفرازاتها ومخرجاتها ، ولا تُرى من خارجها إلا هكذا أما بداخلها فتدور عمليات وتفاعلات عديدة وصفنا جُلها فيما تقدم .

ثانياً : مصادر ثقافة العرب قبل الإسلام [اكتساب المعرفة] :

يمكننا أن نسير على هدي ما رسمناه في البند السابق ، والمتعلق بتشكل وتبلور الثقافة ونحن بصدد تحليل البيئة الفكرية والثقافية عند العرب قبل مجيء الإسلام ، ونبدأ ذلك بالحديث عن مصادر ثقافة العرب قبل الإسلام ، أو بعبارة أكثر دقة المصادر والمنابع التي استمد منها العرب وعيهم وإدراكهم للحقائق والظواهر الكونية والإنسانية التي تحيط

بهم ، ولا يمكننا وصف هذه المصادر والمنابع أو استنباط طبيعتها وطبيعة تأثيرها على العرب إلا بعد الوقوف عليها وتحليلها ، وتتمثل تلك المصادر والمنابع في الآتي :

❖ المعرفة من الأمم القديمة :

لقد كان اطلاع العرب علي معارف الأمم القديمة محدوداً ، ربما بسبب انعدام وسائل النقل والتعريب أو ما يُعرف بالترجمة ، أو بسبب اكتفاء العرب بتجاربهم الخاصة ومعارفهم الذاتية ، ولكن ربما كان للعرب بعض الاطلاع على معارف الآخرين وبصفة خاصة في المسائل ذات الطبيعة الدينيــة ، فقد عرفوا عن المسيحية ومنهم من اعتنقها وعرفوا كذلك عن اليهودية واعتنقوها ، وعرفوا عن ملة إبراهيم أو الحنيفية ، فإلمامهم كان أعمق نسبياً وأوسع بالمعارف الدينية عن المعارف الأخرى .

❖ المعرفة من الأمم المجاورة والمعاصرة :

أما عن المصدر الثاني من مصادر المعرفة عند العرب فقد تمثل في الاطلاع على معارف الأمم المجاورة والمعاصرة مثل : الفرس والروم والحبش والهنود والصينيين ، وقد قلل العرب من اطلاعهم على معارف الأمم المذكورة لأسباب عديدة ، يمكننا أن نتعرض لأهمها في الآتي :

– الظروف الطبيعية التي أُوجدت فيها بلاد العرب فرضت على تلك البلاد ما يشبه العزلة الطبيعية : وقللت من فرص الاختلاط والتفاعل السلس مع الأمم والشعوب المجاورة التي بدت بعيدة جغرافياً ، فالصحراء الشاسعة الصعبة الاجتياز والجبال الوعرة المستحيلة العبور ، كلها عزلت العرب في بلادهم ، وباعدت بينه وبين من جاورهم من الأمم والشعوب ، وقد مثل ذلك أول عوامل الفصل لا الوصل بين العرب والآخرين .

– قلة أو انعدام حلقة الوصل وهي الترجمة ومعرفة لغات الآخرين : وقد انسحبت هذه الإشكالية على وضعية العرب في علاقاتهم بمعارف ولغات الأمم والشعوب القديمة

والمعاصرة ، وذلك أن العرب لم يختلطوا بتلك الأمم والشعوب اختلاطاً مباشراً من خلال الغزو أو الهجرات ، وكان ذلك يعد من خصائص الأمم والشعوب قبل مجيء الإسلام ، حيث حافظت كل أمة على نقاء هويتها الثقافية من حيث التكوينات والتفاعلات والإفرازات والتعبيرات والنماذج ، وكان ذلك هو حال العالم في تلك الأيام ، حيث أن عوامل وعمليات التواصل الثقافي والمعرفي كانت محدودة للغاية ، ولم تحدث حالات تواصل واتصال على نطاق واسع إلا من خلال ظروف بعينها ترتب عليها ما يمكن أن نسميه " بالتوحد المكاني وسيادة الأقوى " والتي سميت حديثاً " بالعولمة " مثل الغزوات الكبرى التي صاحبتها وأعقبتها عمليات انتشار معرفي وثقافي صاخب وملفت للانتباه وواسع النطاق ، مثل الإسكندر المقدوني وإمبراطوريته الأسطولية الشاسعة ، ثم جاء الإسلام ليحدث عملية مماثلة في الحراكية والاتصال المعرفي والثقافي مع الاختلاف في طبيعة التكوينات والتفاعلات وهدف ومقصد العملية الاتصالية بالكامل .

– اقتصار علاقات العرب بالآخرين على التجارة والتبادل المادي : يتمم ما تقدم أن علاقات العرب بغيرهم ممن عاصروهم على مر الأزمان لم تتجاوز العلاقات الاقتصادية المادية المتجسدة في التجارة ، ولم تتعمق أو تمتد إلى الأمور المعرفية الخاصة بمعارف الآخر وعلومه إلا في أضيق نطاق ، وربما اكتفى العرب بهذا الضرب من العلاقات تعويلاً على ظروفهم وارتباطاً بطبيعة بلادهم وظروفها الطبيعية ، وانكفاءً على ذاتهم المتواضعة معرفياً ، وربما كان ذلك من قبل الآخر الذي لم يمنحهم فرصة التعمق في معارفه والتبحر في علومه ، وقد نزيد ذلك إيضاحاً فيما سيلي .

– اعتماد العرب على أنفسهم في المعارف : لما كان ما تقدم هو واقع حال العرب في علاقاتهم مع الآخر ، فقد بات لزاماً عليهم أن يعتمدوا في التقاط المعارف وتجميعها وإثراء مدركاتهم وإنماء وعيهم على الموروث المعرفي والخبرة الذاتية والتجربة الخاصة ولذلك

كانت الثقافة العربية بمنطلقاتها المعرفية وتفاعلاتها الفكرية ، ثم في إفرازاتها ومخرجاتها وطروحاتها من الثقافات النقية الخالصة الصريحة التي لم تجنح إلى الاقتباس من الآخر ، وعندما تضطر إلى الاستعانة بما يملكه الآخر من أنساق معرفية كان ذلك يتم في أضيق نطاق .

وقد كان ذلك يرجع في شق منه إلى وجود العرب في بلاد وعرة شديدة التضاريس وشبه معزولة ، كما كان يرجع في شق آخر إلى قلة تعداد السكان العرب مقارنة بالمساحة الشاسعة التي ينتشرون عليها ، ويرجع كذلك إلى أنفة العربي الذي اعتاد الاعتماد على ذاته وعلى قدراته الخاصة في التعرف على ما يحيط به من حقائق وظواهر ، ولم يألف أن يأخذ من الآخر إلا القليل ، ويرجع أخيراً إلى الوضعية الحضارية الأقل مستوى من مجاوريه التي جعلته بدائياً بسيطاً وربما هامشياً في اكتساب معارفه ، وكذا في مصادرها ومنطلقاتها ، كل ما تقدم كان من شأنه أن يحدد عناصر ومنطلقات المعرفة العربية المكتسبة .

– النظرة الدونية التي عانى منها العرب من الآخر : البحث في تاريخ العرب خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين يوصل إلى نتيجة مؤداها أن العرب بوضعيتهم الحضارية التي سبق لنا وأوضحناها لم يتركوا أي أثر يمكن أن يذكر فيمن جاورهم من الأمم والشعوب .

لم يكن الفرس والروم يعرفون عن العرب الكثير ، وقد كانت نظرتهم إلى العرب على أنهم أقوام أقل منهم حضارة وفكراً واقتصاداً ، فهم ليسوا إلا بدو رحالة متخلفين هامشيين يعمل أمثلهم في التجارة ونقل البضائع بين الفرس والروم والحبش والهنود والصينيين ، ولعل النظرة الدونية التي كان ينظرها الآخرون إلى العرب كانت وراء تهميشهم والتقليل من دورهم ، وكانت كذلك وراء عدم انفتاحهم على معارف الآخر والانكفاء على الذات

والاكتفاء بالمتلك المعرفي الخاص .

ولقد حاول عدد غير قليل من المستشرقين إبراز هذه النظرة في أشكال وتعبيرات تحمل إساءة إلى العنصر العربي ، إلا أن تلك النظرة كانت قد برزت بشكل واضح ومؤثر على العرب المسلمين عند انبعاث العقيدة الإسلامية من بلاد الحجاز ، وقد استلزم ذلك سيادة نزعة كفاحية لدى العقيدة الناشئة ، وبالفعل كافحت العقيدة الإسلامية من أجل معالجة تلك النظرة واستبدالها بغيرها بما يرفع من شأن تلك العقيدة ويمنحها هيبتها ووقارها الواجبين .

– المراكز الحضارية العربية في الشمال والجنوب وحرية حركة التواصل المعرفي : ربما اختلف الحال إلى حد ما بالنسبة للمراكز الحضارية العربية في الشمال والجنوب ، فقد كانت مراكز الشمال على اتصال مباشر ومتعدد الأغراض مع الثقافتين العريقتين والمسيطرتين في ذلك الوقت وهما الفرس والروم ، وقد كان الأخميديون على اتصال مباشر بالثقافة والحضارة الفارسية ، كما كان الغسانيون على اتصال مباشر بالثقافة والحضارة الرومانية ، في حين كانت مراكز الجنوب على اتصال مباشر ومتعدد الأغراض كذلك مع حضارة وثقافة الأكسوميين في الحبشة ، ويمكننا أن نخلص إلى خلاصة مفادها أنه على الرغم من أن مراكز الشمال العربية كانت أكثر تأثراً بثقافة وحضارة كل من الفرس والروم من تأثر مراكز الجنوب بحضارة وثقافة الأكسوميين الحبش إلا أن الشماليين احتفظوا بهويتهم العربية ومصادرهم الذاتية في الحصول على المعرفة ذات الموروث التاريخي المتأثر بالبيئة والظروف الطبيعية والمؤثرات العرقية الآثينية ، ولكنه كانوا في ذلك أقل من الجنوبيين الذين كانوا أكثر حرصاً على الاحتفاظ بمصادر معارفهم ذات الطبيعة الذاتية والخصوصية العرقية الآثينية .

- المراكز الحضارية في الحجاز وحالة خصوصية مصادر المعرفة : كانت المراكز الحضارية العربية في الحجاز أقل من المراكز الحضارية في الشمال والجنوب من حيث الاتصال والتواصل مع معارف الآخرين ، وقد كان للعوامل الطبيعية والظروف الجغرافية والمناخية دورها الفاعل في ذلك ، إضافة إلى عوامل أخرى تمثلت في احتفاظ عرب الحجاز بخصائصهم العرقية والآثينية كعنصر نقي يحافظ على نقاء الجنس العربي ، وترتب على ذلك أن عرب الحجاز اعتمدوا لأنفسهم مصادر خاصة بهم لاستقاء معارفهم وإنماء مداركهم وتوسيع وعيهم ، وكانت أهم تعبيرات ذلك ونماذجه متمثلة في الاجتهاد الذاتي والتأمل الشخصي ، ولم يكن ذلك معروفاً على نطاق واسع في الشمال والجنوب ، وربما كان ذلك وراء نزعة التدين والتأمل التي انتشرت في إقليم الحجاز في شكل خلوات تعبدية ، وكان هؤلاء المتأملون المتعبدون هم أول من صدق الرسول الكريم في بداية بعثته ، ومنهم وعلى رأسهم الأرقم بن أبي الأرقم من أقارب السيدة خديجة زوج الرسول الكريم وأم المؤمنين ، يضاف إلى ما تقدم أن المعرفة الدينية قد لعبت دوراً مهماً في بلورة معارف العرب قبل الإسلام ، وبصفة خاصة في إقليم الحجاز .

ثالثاً : المملوك الذاتي والإرث الخاص لدى العنصر العربي :

بالرغم من المستوى الحضاري المتواضع الذي أحرزه العنصر العربي مقارنة بالعناصر المجاورة له سواء من الفرس أو الرومان إلا أنه كان يعتمد في اكتساب معارفه ومكوناته الثقافية على ما لديه من مملوك ذاتي وإرث خاص تشكل عبر الزمن ، وشكّل معه كل من الوعي والإدراك والفكر الجماعي للعرب ثم صنع في النهاية هوية العرب ، والمملوك الذاتي والإرث الخاص لدى العنصر العربي عبارة عن مركب متجانس من المفردات والمكونات ، يمكن تحليل عناصره على النحو التالي :

❖ الموروث الحضاري :

يُقصد بالموروث الحضاري ، ما تتناقله الأجيال الخلف عن السلف من أنماط حضارية ، والأنماط الحضارية تعني ما توصل إليه الناس من أسلوب حياة ومعيشة نتيجة تعاملهم مع عناصر الوجود ، وقد صاغ العرب نتيجة تعاملهم مع عناصر الوجود في بيئتهم التي عاشوا فيها وتفاعلوا مع معطياتها في بلاد العرب نمطين حضاريين هما : نمط البداوة ونمط المراكز المستقرة ، وقد توارث العرب الخلف عن السلف هذين النمطين الحضاريين ، وكان لهما تأثيرهما الواضح في المكون الثقافي للعرب المتعلق بالملوك الذاتي .

لقد كان الموروث الحضاري من أهم المملوكات الذاتية في المكون الثقافي العربي ، فقد شكلت تلك الموروثات الحضارية الإدراك العام والوعي الجماعي للعرب بوجودهم الذاتي وعلاقتهم بما حولهم من عناصر الوجود وموجودات الكون ، وقد كان لذلك أكبر الأثر في صياغة وتشكيل بقية المكونات الثقافية الأخرى للثقافة العربية وصبغها جميعاً بصبغته الخاصة ، فطريقة الحياة وأسلوب المعيشة شكّل العادات وصاغ التقاليد وقعّد العُرف وامتد إلى الدين وكذا نسق القيم وأخيراً التجارب الذاتية والخبرات الخاصة .

إن هذه العلاقة الممتدة بين الموروث الحضاري والمكون الثقافي للثقافة العربية قبل الإسلام تبدأ من البيئة أو الطبيعة بمعطياتها التي أسميناها عناصر الوجود وموجودات الكون ، تلك البيئة بظروفها الخاصة كان لها أثر بليغ في تشكيل النمط الحضاري الذي جاء نتيجة التعامل بين البشر وتلك البيئة ، ثم عاد ذلك النمط مرة أخرى ليصبغ حياة الناس بطابعه فيؤثر في عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ودينهم وقيمهم وحتى تجاربهم الذاتية وخبراتهم الخاصة ، ومن ثم يكون الموروث الحضاري أول وأهم المملوكات الذاتية والإرث الخاص بالنسبة إلى الثقافة العربية .

❖ العـادات :

العادة هي الحالة التي تتكرر على نهج واحد ، وأعتيدت حتى صارت تُفعل بشكل تلقائي ودون جهد ، وعليه فالعادة جزء مـن حيـاة الإنـسان سـواء في فكـره أو سـلوكه ، والعـادة يكتسبها الإنسان من نمط حياته ، فهي وثيقة الصلة بالنمط الحـضاري الـذي يتـشكل مـن جماع علاقة الإنسان بالكون وعناصر الوجود ، والعادة بهذا الوصف تساهم في صياغة وعي الفرد وإدراكه لذاته وللوجود من حوله ، وتعبر في ذات الوقت عن مدى عمق ذلـك الـوعي واتساع الإدراك ومعلوم أن الوعي والإدراك من المكونات الثقافية المهمة التي شكلت الثقافـة العربية في فترة ما قبل الإسلام .

❖ التقاليد :

التقاليد ترتبط بالعادات ارتباطاً عضوياً ، فالعادة حالة تتكرر بوتيرة واحـــدة ، والتقاليـد إن هي إلا عادات متوارثة يقلد فيها الخلف السلف ، فهي إذن عادات انتقلت بـالإرث ، ومعنى ذلك أن هناك عادات ابتكرها النـاس وصـنعتها الأجيـال ، وهنـاك عـادات أخـرى توارثوهـا وانتقلـت إلـيهم مـن أسـلافهم ، والأخـيرة هـي التقاليـد الـتي لم يبتكروهـا أو يصنعوهـــا بل توارثوها ، فعادات اليوم ستصبح تقاليد الغد .

وتشترك العادات مع التقاليد في مزيج متجانس يشكل أحد المكونات الثقافيـة النابعـة مـن الذات والمعبرة عن خصوصية الأنا الإنسانية ، فهـي لم تـأت مـن الآخـر ، ويباشـر مـزيج العادات والتقاليد دوره في تشكيل الوعي والإدراك ، وهي بدورها مكونات ثقافية أساسية .

إن عادات العرب وتقاليدهم التي تـأثرت ببيئـتهم الطبيعيـة وبأنمـاطهم الحـضارية كانـت رافداً مهماً من روافد ثقافتهم قبل الإسلام ، بل ومن هذه العادات والتقاليد ما اسـتمر بعـد مجيء الإسلام وباشر دوره في الثقافة الإسلامية التي اتسعت لتستوعب العديد من مثل هذه

العادات والتقاليد لدى الأمم والشعوب الأخرى مثل الفرس والبربر وغيرهم .

❖ الأعـراف :

العُرف هو ما تعارف عليه الناس إلى ما يشبه الاتفاق في العادات والمعاملات وعليه فالعرف أيضاً عادة معروفة ومتفق عليها في الفكر أو السلوك أو التعامل ، والعُرف في الفكر والسلوك هو العادات والتقاليد ، وفي المعاملات هو العرف الذي يعد قانوناً غـير مكتـوب ، والعـرف مثله مثل العادات والتقاليد يساهم في صنع الملـوك الـذاتي والإرث الخـاص لـدى العنـصر العربي ، وكان العرف مـن القـوة والـصلابة والتـأثير إلى درجـة أنـه حـل محـل القـوانين والتنظيمات الإدارية والسياسية ، حتى بعد تشكل الدولة بصيغتها المتعارف عليها في بلاد العرب .

❖ الـدين :

هو الملة أو النحلة أو العقيدة ، وجميعها تعني غاية ما ينتهـي إليـه الإنـسان وهـو بـصدد البحث عن خالقه المـستحق لعبادتـه ، والـدين قـد يكـون رحلـة تأمليـة فكريـة يخوضـها الإنسان من أجل الوصـول إلى خالقـة والمـستحق لعبادتـه ، وفي هـذه الحالـة يكـون الـدين بمثابة فعل شخصي ذاتي يجمع بين التأمـل والفكـر ، وينتهـي إلى قناعـة فاعتقـاد يـنظم علاقة دائمة وأبدية بين الإنسان وخالقه .

وقد يكون الدين رسالة جاءت من عند الله إلى البشر عن طريق الوحي عبر الرسل والأنبيـاء لكي توصل إليهم حقائق الإله الخالق المعبود والكون وكيفية التعامـل مـع عناصـره وكيفيـة استثمار الحياة الدنيا لصناعة حياة أخرى فيها الخير إلى الأبد ، وعلى الإنـسان أن يعتقـد ويحدد علاقته بخالقه على أساس فهمه واستيعابه لهذه الرسالة وتسليمه بما جاء فيها .

وقد ألف العرب هذين النمطين من الأديان ، فعرفوا الـدين الرســالة الـسماوية ، وعرفـوا

كذلك الدين كحالة تأملية ورحلة فكرية توصل من الشك إلى اليقين ، فالدين الرسالة وصلهم مع المسيحية واليهودية والحنيفية ، والدين الاجتهادي الشخصي تفرقوا إزاءه شيعاً أشتاتاً ، بدأ بالالتزام والفكر الرشيد القويم وانتهى إلى العته والسفه الأول تجسد في الخلوات التعبدية التأملية ، والثاني تشكل في عبادة الأصنام والأوثان والمخلوقات ، وقد كان الدين بنمطه الأخير هو الأكثر انتشاراً بين العرب ، وكانت عبادة المخلوقات هي السائدة بينهم ، وعلى أساسها تشكلت أنماط حياتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية .

وكان الدين يلعب دوراً مهماً في تشكيل المكون الثقافي عند العرب وبصفة خاصة أن الدين كان يدخل ضمن الموروثات ، فقد ورث العرب عن آبائهم وأجدادهم الدين كمعتقد وكعبادة ، بل وجعلوا أسماء آلهتهم من أسماء كبرائهم وعظمائهم ، لقد كان الدين كموروث فكري معتقدي يدخل في تشكيل الوعي والإدراك عند العرب ، فقد كانت توكل للآلهة مهمة قضاء حوائج الناس وتحقيق رغباتهم والتوسط بينهم وبين الإله الخالق ، وقد شكل ذلك التفكير ثقافة العرب قبل الإسلام .

❖ نسق القيم :

القيمة هي معنى أو فكرة إنسانية مطلقة تحقق رغبات الإنسان في حياة فاضلة ومثالية ، وتتفق مع الفطرة السوية ، ولكل مجتمع إنساني مهما كان مبلغه من التحضر والتمدن قيمه التي تشكل مجتمعة نسقاً متماسكاً .

ويلعب نسق القيم دوراً مهماً في تشكيل المكون الثقافي للعرب ، وقد اختلط ببقية المكونات الأخرى مثل العادات والتقاليد والأعراف والدين والموروث الحضاري ، وتوزع النسق القيمي العربي على جميع مناحي الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية .. إلخ ، وبالرغم من إنسانية القيم وشيوعها إلا أن الأنساق القيمية تختلف من مجتمع إلى آخر

من حيث سلم ترتيب تلك القيم الذي يصنفها وفق أهميتها ودورها كضوابط للأفكار والسلوك .

وقد اشتمل نسق القيم العربي على العديد من القيم في كافة مناحي الحياة مثل : نصرة المظلوم وإجارة الضعيف والكرم والشجاعة والمروءة واحترام أصحاب الخبرة والتجربة من كبار السن ، وكان لكل ما تقدم من قيم موقعه وأثره في مكونات الثقافة العربية عند العرب قبل الإسلام .

❖ التجربة الذاتية والخبرة الخاصة :

يضاف إلى ما تقدم من مكونات المملوك الذاتي والإرث الخاص بالعرب التجربة الذاتية والخبرة الخاصة ، فالعربي سواء كان يعيش في البادية أو مركز حضري مستقر يملك رصيداً تراكمياً من التجربة الذاتية والخبرة الخاصة التي تكونت لديه من خلال علاقته بعناصر الوجود وموجودات الكون ، وقد ساعدت تلك التجربة والخبرة في بلورة وعيه ومدركاته بما يحيط به من حقائق وظواهر ، ومنحته القدرة على الحياة والتفاعل مع تلك الموجودات ، وأضيف كل ذلك إلى مكونات الثقافة .

مما تقدم يمكن أن ننتهي إلى حقيقة مؤداها أن المملوك الذاتي والإرث الخاص بالعنصر العربي كان أقوى تأثيراً في المكونات الثقافية والإفرازات الفكرية من المكتسبات المعرفية من معارف الغير وممتلكاته الفكرية ، ومن ثم كانت الثقافة العربية ثقافة أصيلة وثيقة الصلة ببيئتها ومتأثرة بممتلكاتها الذاتية وإرثها الخاص ، فهي ثقافة صريحة خالصة وليست ثقافة مزيج أو شتات ، ولذلك كان يحلوا للبعض أن يصفها بأنها ثقافة منعزلة ! .

رابعاً : الإفرازات الثقافية العربية :

لقد كان العقل العربي بمثابة البوتقة التي جمعت المعارف والمكتسبات من الأمم القديمة والمعاصرة مهما كانت ضئيلة ومحدودة ، ثم أضافتها إلى المملوك الذاتي والإرث الخاص ، ثم صهرت الجميع ، وأخرجت منه مزيجاً يحمل خصائص وميزات خاصة تعبر عن الهوية العربية ، ويمكننا متابعة هذا الإفراز بعد أن تبلور في شكل تعبيرات وأشكال ثقافية من خلال ما يلي :.

❖ **أشكال وتعبيرات الثقافة العربية :**

لقد بدأت قريحة العرب تفرز أشكالاً وتعبيرات شتى من المزيج الذي تكون بفعل العنصرين السابق الإشارة إليهما ، ويمكننا الحديث عن أهم تلك الأشكال والتعبيرات الثقافية في الأدب الذي اعتبره البعض وإلى زمن قريب مرادفاً للثقافة أو هكذا كان في زمن العرب قبل الإسلام ، ولقد كان الأدب لغة التعبير الوحيدة والأساسية عند العرب ، فقد كان يمثل الوعاء الذي يحوي كافة التعبيرات الفكرية التي تفرزها قريحة العربي ، والتي كانت تشمل الشعر وما سواه مما كان يطلق عليه النثر ، وهو كل فنون التعبير باستثناء الشعر .

وقد كان الأدب يشتمل على شتى ضروب المعرفة ، وحتى تلك التي تنحوا منحى يقترب من العلم ، ومن ثم حل محل الثقافة ، وقد تعامل العرب مع الأدب على أنه حفظ الشعر ومعرفة التاريخ والإلمام بشيء من كل علم .

لقد كان الاعتماد أكثر ما يكون على فنون الأدب ذات التعبيرات اللفظية أو القولية ، حيث كانت هي المتاحة والمتداولة ، أما التعبيرات المكتوبة فلم تكن إلا نادراً ، وذلك لأن أمة العرب لم تكن أمة كتابة وتحرير حروف بل كانت أمة أمية تعتمد بالأساس على القول والإلقاء والسماع والحفظ والنقل ، ولذلك عُرف تاريخها بالرواية والسماع والنقل ،

ولم يعرف بالكتابة والتسجيل والتأريخ ، وقد ذكر ذلك الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز عندما قال ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [1] .

فثقافة العرب إذن قبل الإسلام كانت ثقافة نابعة من القريحة ومنسابة من الملكة ، تعتمد على الاثنين في كثيرها وعلى ما لدى الآخر في قليلها ، والثقافة عند عرب ما قبل الإسلام تبدت في الأدب بشقيه الشعر والنثر ، ولم يكن الأدب في ذلك الزمن كما هو عليه الآن كل قول يقصد به إمتاع النفس ويصل إلى جميع الناس ، بل كان يعني ملكة إقراض الشعر وإلقاء الخطب والحكم والمواعظ وسعة المعرفة والإلمام بكل ما هو معروف .

إن ما تقدم يفضي إلى القول بأن الثقافة هي التعبير عما تفرزه قريحة الإنسان من مضامين ومحتويات لها أهداف ومقاصد متعددة هي إمتاع الناس وبث الفائدة والنفع والتعليم ، وذلك من خلال تعبيرات محددة أشهرها ثلاثة : القول والكتابة والرسم ، فالقول ما يُلفظ ويُسمع ويُحفظ ، ثم ينقل بالرواية ، والكتابة ما يحرر أو يسجل ثم ينقل بحالته إلى الأجيال ، والرسم هو نوع من الكتابة ولكنه بالشكل والهيئة وليس بالحرف والرمز .

لقد كان العرب أهل فصاحة وبلاغة ، خبروا فنون اللغة وتعبيراتها ، وبالذات الشعر فكان أهم سماتهم ومجال بروعهم وإبداعهم ، والشعر كأحد تعبيرات الثقافة وأشكالها كانت له أشكاله ونماذجه المحددة والمشهورة بين العرب ، وكان في أحيان كثيرة يحمل المعاني والتعابير الإنسانية والأخلاقية والقيمية .

وإلى جانب الشعر كان هناك الخطب والمواعظ والرسائل ، وكلها تحمل العبر والحكم وتعبّر عن رؤية العربي للحياة وقيمتها وفضائلها والتأمل فيها وفيما تؤول إليه ، ورؤيته

---

[1]. سورة الجمعة : ٢ .

للموت والحياة الآخرة وما إلى ذلك ، وبذلك تكون الثقافة هي الأشكال التعبيرية عن رؤية العربي لمعنى الوجود وعناصره وعلاقته به .

❖ **منافذ التعبير عن الثقافة العربية :**

تعددت منافذ التعبير عن الثقافة العربية ، فكان لكل شكل من أشكال تلك الثقافة وسيلة التعبير عنه ، ولعل أهم تلك المنافذ يتمثل في الآتي :

– الأسواق الأدبية : اشتهر عند العرب الأسواق الأدبية التي كانت بمثابة تجمعات سنوية وملتقيات فكرية يقصدها العرب ويجتمعون فيها من كل مكان لكي يعبروا عما تفتقت عنه قرائحهم من الشعر أو الأفكار الجديدة في الخطب والأمثال والحكم وكافة فنون الأدب ، وكان يقصد هذه الأسواق العرب من كل مكان وعادة ما تتزامن مع مواسم الحج ، وأشهرها كان سوق عكاظ وذي المجاز وهي من أشهر الأسواق الأدبية عند العرب قبل الإسلام .

– الصالونات والمنتديات عند كبار القوم والمتنفذين : كذلك اشتُهر كبار العرب بمجالسهم التي جمعت الشعراء والحكماء والأدباء ، وكانت تلك المجالس متنفساً لما تجود به قرائحهم من إفرازات ثقافية من شعر وخطب وأمثال وحِكم ، ثم تنتقل تلك الإفرازات في كل أحياء العرب بالرواية والنقل .

– تعليق القصائد المشهورة على أستار الكعبة : عُرف عن الشعراء العرب الذين يكتبون أنهم كانوا يكتبون قصائدهم الطويلة الشهيرة ، أو يكتبها الكتاب للشعراء الذين لا يكتبون ، ثم يعلقونها على أستار الكعبة ليقرأها زوار البيت الحرام وحجاجه ، وعُرفت هذه القصائد الطويلة التي تتجاوز المائة بيت بالمعلقات وهي عشرة معلقات شهيرة ممتلئة بالحِكم والمواعظ والتوجيهات .

المبحث الخامس

الظروف الاجتماعية

في هذا المبحث نتناول الظروف الاجتماعية للعرب قبل الإسلام ، وتعتبر الظروف الاجتماعية من أهم العوامل التي واجهت العقيدة الجديدة وكانت من أهم معوقاتها وذلك لأسباب عديدة تمثلت في طبيعة الظروف الاجتماعية في بلاد العرب التي اتسمت بسمات خاصة ، حيث قامت على القبلية المتجذرة في أعماق المجتمعات العربية بنمطيها الحضاريين : نمط البداوة ونمط الحواضر المستقرة .

وبنظرة فاحصة يمكن الانتهاء إلى أن الطبقية لها وجودها الغائر في تاريخ المجتمعات العربية وعلاقتها وثيقة بالقبلية ، وبهذه وتلك يرتبط توزيع المهن والحرف في تلك المجتمعات ، وفي هذه التركيبة الاجتماعية المتداخلة في مجتمعات العرب قبل الإسلام يصعب البحث عن المرأة ودورها ، حيث نجدها مغمورة مطمورة في ركام ذلك المجتمع الذي تعامل معها دائماً كوسيلة لغاية ، إما للكسب والثراء ، وإما للسلطة والنفوذ ، وإما للمتعة والتسلية ، ولقد كان للمجتمع العربي قبل الإسلام عاداته وتقاليده وقيمه التي تناقلها الخلف عن السلف ، كما كان له كذلك ظروفه وترتيباته وتنظيماته السياسية والإدارية ، وفي خضم هذه الظروف والترتيبات ظهرت الخدمات الاجتماعية التي أولاها المجتمع اهتماماً يتناسب مع طبيعته وتطور نمطه الحضاري ، والتفصيل فيما يلي :

أولاً : القبلية أساس المجتمع العربي :

كان للقبلية دورها الأساسي في المجتمع العربي قبل الإسلام ، كما كانت لها كذلك إرساباتها بعد الإسلام ، ولا تزال كثير من المجتمعات العربية حتى يومنا هذا تفسح مجالاً للفكر القبلي وتعول عليه في تكريس الولاء للأنظمة السياسية والدول الحديثة ،

ونظراً لأهمية القبلية في المجتمع العربي قبل الإسلام ، وأهميته كذلك في التنظيمات السياسية والإدارية في تلك المجتمعات فقد رأينا تناول القبلية في المجتمعات العربية قبل الإسلام من خلال زمرة الأفكار التالية :

❖ جذور القبلية في المجتمع العربي وتطورها التاريخي :

إن القبيلة هي أساس المجتمعات العربية ، وذلك أن تلك المجتمعات بدأت بالمجتمع البدوي الذي تأسس على القبيلة ، وظلت القبيلة متجذرة في تلك المجتمعات مهما تطورت مدنياً أو حضارياً ، والقبيلة هي امتداد للأسرة في شكل فصيلة ثم العشيرة ، وهذا التطور الاجتماعي مرت به المجتمعات البدوية العربية قبل أن تستقر في الحواضر والمدن ، ومن ثم فالقبيلة هي عصب التطور الاجتماعي في تلك المجتمعات وعموده الفقري .

وقد تابع القرآن الكريم أشكال التطور الاجتماعي في المجتمعات العربية ، وقد بدأ تلك المتابعة من الحديث عن الفصيلة على اعتبار أنها الأسرة الكبيرة التي ينتمي إليها الفرد ، فهي أول أشكال التجمع البشري في مجتمع البداوة ، قال تعالى ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴾ [1] .

كما تناول الشكل التالي من أشكال التطور الاجتماعي في المجتمعات البدوية العربية قبل أن تتطور إلى المجتمعات الحضرية ، فقال تعالى عن العشيرة : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [2] .

---

[1]. سورة المعارج : ١٣ .

[2]. سورة التوبة : ٢٤ .

وقال تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] .

وقـال تعـالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

❖ أهمية القبيلة في المجتمع العربي :

تطور المجتمع العربي منذ طور البداوة من الأسرة فالفصيلة فالعشيرة فالقبيلة وكانت القبيلة هي التطور الاجتماعي الذي كان بمثابة نقطة الارتكاز الأساسية والمؤثرة في ذلك التطور ، وذلك لأن القبيلة كانت هي نهاية تطور الوحدة الأساسية التي هي الأسرة ، وهي في ذات الوقت بداية التطور نحو كيان آخر أكثر تعقيداً هو الدولة التي أخذت شكل القرية أو المدينة ثم مجموعة القرى أو المدن أو الولايات .. إلخ ، فالقبيلة إذن هي محور التطور ومنطلقه الأساسي في المجتمع العربي ، ولذلك ظل إلى الوقت الراهن يترك آثاره على كافة أشكال تطور ذلك المجتمع ابتداءً من القرية فالمدينة فالدولة الواسعة متعددة القرى والمدن .

ولكن ما هي أسباب هذه الأهمية المحورية للقبيلة في المجتمعات العربية بكافة أشكالها ونماذجها الحضارية والمدنية ! إن أول أسباب هذه الأهمية يكمن في ارتباط القبيلة برابطة الدم التي تعني رابطة العصب ، حيث أن رابطة الدم والعصب هي أهم رباط يربط بين أعضاء التكوين الاجتماعي المتمثل في القبيلة ، ومن ثم فالعلاقة بين أبناء القبيلة الواحدة

---

[1]. سورة الشعراء : ٢١٤ .

[2]. سورة المجادلة : ٢٢ .

هي رابطة تسمو فوق أية علاقة أخرى ، لأنها علاقة دم وعصب ورحم ، أما ثاني أسباب أهمية القبيلة فيمكن تلمسه في اعتبار القبيلة أداة أساسية لتمتين العلاقة بين أفراد التجمع أو المجتمع ، وإحراز ولاء الجميع وترسيخه لمجتمع القبيلة ، أما السبب الثالث من أسباب أهمية القبيلة وهو سبب يجمع في ثناياه السببين المتقدمين فهو المتعلق بكون القبيلة أداة ذات طبيعة شمولية حيث عن طريقها يتكون المجتمع وتترسخ أركانه ويعرف بعضه أصول بعض ، ويستهدف الجميع الصالح العام ، وتتحدد اتجاهات الولاء ومنطلقاته ، وقد ورد ذكر القبيلة في القرآن العظيم ، وقد بين الخالق سبحانه أهم أسباب وجودها مركزاً إياه في سبب يجمع كافة الأسباب وهو التعارف ، فقال جلّ وعلا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [1] .

❖ **علاقة التمدن والتحضر بوجود القبيلة وكيانها وأهميتها :**

التحضر أو التمدن يسير دوماً في اتجاه التقليل من شأن القبيلة ومن تأثيرها في الحياة وفي المجتمع ، وهذا لا يعني ولا ينبغي أن يفهم على أن القبيلة تعني التخلف أو عكس التحضر والتمدن ، ولكن الأمر يتعلق بمسألة أخرى هي طبيعة العلاقات الاجتماعية ومدى قوتها ، فالتحضر أو التمدن يقلل من شأن العلاقات الاجتماعية ، ويقلل في ذات الوقت من قوتها ، ولا يعول كثيراً عليها ، ويفرض مكانه علاقات أخرى ، فمحور الاهتمام في هذه الحالة يتعلق بالولاء واتجاهاته ، فالولاء في المجتمعات البدوية والأقل تحضراً أو تمدناً يكون أقوى للقبيلة ويتجه نحوها دون سواها ، أما في حالة المجتمعات الأكثر تحضراً فالولاء الأقوى يكون لرموز أخرى مثل الدولة أو النظام السياسي أو النظام الإداري أو النظام العام أو حتى نظام أخلاقي وقيمي معين .

---

[1]. سورة الحجرات : ١٣ .

والسؤال الآن الذي يطرح نفسه في هذا السياق يكون كالتالي : هل يمكن أن يكون الولاء للقبيلة قوياً في المجتمعات الأكثر تحضراً ؟ في المجتمعات العربية قبل الإسلام كان الولاء للقبيلة لا يضاهيه أو يناظره ولاء لرمز آخر ، وقد استمر ذلك الولاء على حاله في المجتمعات الأكثر تحضراً في المراكز المستقرة في الشمال والوسط والجنوب ، إلا أن شكل ذلك الولاء ربما يكون قد اختلف بعض الشيء ، ووجه الاختلاف أن الولاء للقبيلة برز معه ولاء آخر لرموز أخرى مثل النظام العام أو النظام السياسي أو النظام الإداري ، وهنالك كان الحديث عن ازدواجية الولاء أو تعدد الولاءات ، وهنالك أيضاً برز السؤال التالي : هل يمكن أن يكون ثمة تعارض أو تصادم بين الولاءات ! .

❖ العلاقة بين القبيلة والنظام العام :

التمدن والتحضر يزيدان من تعقيد العلاقات بين أفراد المجتمع ، ويخلقان علاقات جديدة يكون أساسها الولاء لرموز سياسية أو إدارية أو قيمية أو أخلاقية جديدة ، وفي ذلك طغيان على علاقات الولاء للقبيلة ، والنظام العام عبارة عن رمز يفرض على الجميع احترامه والولاء له ، والمجتمعات العربية وبالذات البدوية منها كانت تتحايل على مسألة العلاقة بين القبيلة والنظام العام ، وذلك بجعل النظام العام منبثقاً من العلاقات والتفاعلات القبلية وعندئذ يبدو النظام العام متناغماً ومتداخلاً مع فكر القبيلة ، وعندما تعقدت علاقات المجتمعات العربية بأن أصبحت أكثر تمدناً وتحضراً انفصل تدريجياً النظام العام كرمز واجب الولاء عن الفكر القبلي والولاء له والارتباط به ، وذلك الانفصال بين النظام العام والفكر القبلي خلق نوعاً من التعارض والتنافر بين الاثنين ، وبالتالي بين الولاء لكل منهما ، فأصبح الولاء للنظام العام يتعارض إلى درجة التصادم مع الولاء للقبيلة ، وذلك التصادم كان دوماً ينتهي لصالح القبيلة ، حيث كانت هي الأقوى أثراً وفعالية في النظام الاجتماعي العربي .

ثانياً : التنظيمات السياسية والإدارية :

لقد مد التركيب القبلي للمجتمع العربي آثاره إلى التنظيمات السياسية والإدارية التي عرفتها المجتمعات العربية على اختلاف أنماطها الحضارية سواء في نمط البداوة الحضاري أو في نمط المجتمعات الحضرية المستقرة أو حتى في نمط الدولة ، كما وجدت في الشمال والجنوب ، بل إن تلك التنظيمات انبثقت من ذلك التركيب واستوحت هياكلها وآلياتها من أفكاره ، ويمكن التعرض لأهم التنظيمات السياسية والإدارية التي وُجدت في المجتمعات العربية قبل الإسلام من خلال الآتي :

❖ في نمط البداوة الحضاري :

في نمط البداوة الحضاري في صحراء بلاد العرب قبل ظهور الإسلام كانت التنظيمات السياسية والإدارية هي الأبسط والأكثر التصاقاً بالتركيب والفكر القبلي ، حيث أن ثمة توحداً بين المجتمع وتنظيماته السياسية والإدارية والقبيلة ، فالأخيرة هي المجتمع وتنظيماتها السياسية والإدارية هي السائدة ، وكان شيخ القبيلة هو قمة هرم السلطة السياسية والإدارية في القبيلة ، وهو في ذات الوقت أساس العلاقات الاجتماعية فيها ، فهو الحاكم والمرجعية النهائية في كل شيء ، ومُصَرِّف شئون القبيلة ومرتب أمورها ، ولا يصل إلى هذا المكان ولا يحتل هذه المكانة بسهولة بل بالجاه والنفوذ والقوة والمال والخبرة والتجربة وعزة النفر والأتباع ، ولا مانع أيضاً من قبول الناس له وتوقيرهم إياه وإذعانهم لصلاحياته المقرونة بسلطات واسعة النطاق .

وفي المعتاد كان يعاون شيخ القبيلة بشكل مباشر أو غير مباشر مجموعة مختارة من كبار رجالات العشائر التي تضمها القبيلة ، وكان هؤلاء من كبار القوم والمتنفذين على أسس شبيهة بالمقدرات المتوافرة للشيخ الكبير الذي سيكون أحدهم خليفة له بعد رحيله ،

والذي يعتبر رديفاً لـه حـال حيـاته ، وكـان هـذا المجلـس المعـاون للـشيخ يقـوم بمهـام عديدة ، تتعلق بكافة شئون القبيلة في حلها وترحالهـا وفي سـلمها وحربهـا وكانـت تلـك المهام تتوزع على مهام التشريع والتنفيذ والحكم بين أفراد القبيلة وتنفيذ الأحكـام ورعايـة من لا راعي لـه ، وكان العُرف هو قـانون القبيلـة الواجـب التطبيـق والنفـاذ والاحـترام ، والعرف هو ما تعارف عليه الناس إلى درجة العادة أو التقليد أو القانون .

❖ في نمط المراكز الحضرية المستقرة :

وإذا انتقلنا إلى نمط المراكز الحضرية المستقرة في الوسط أساساً ثم في الجنوب وفي الـشمال ، نجد أن التركيب القبلي وفكر القبيلة هو السائد كـذلك ، ولكنـه يختلـف في بعـض الأمـور التي كرستها عملية الاستقرار في مجتمعات أكثر تحضراً وتمدناً ، فالاسـتقرار – كمـا سـبق القول –كان لـه آثاره التي حدّت من وطأة وحدّة الطـابع القبلـي ، ولكنهـا لم تـتمكن مـن القضاء عليها ، بل ربما أبرزته ولكن في شكل وصيغة مختلفتين .

برزت أول معالم الاستقرار متجـسدة في آليـة الحكـم والـسياسة الـتي سـادت تلـك المراكـز المستقـرة ، حيث تشكلت تلك الآلية في مجلس القبائل الـذي يـضم كـبراء القبائـل والـذي يعكس في ذات الوقت الطابع القبلي وتركيبه المتوارث ، ثم يترأس ذلـك المجلـس ويقـوده شيخ أو كبير تجتمع لـه أمارات الخبرة والتجربة والسيادة والإمارة بكافة أشكالها المعنويـة والمادية ، وهذا يعكس مرة أخرى الفكر القبلي والتركيب القبلي ، ولكـن بـشكل وأسـلوب يتواءمان مع مجتمع مستقر تجمعت لـه عوامل التحضر والتمدن .

وقد كان للمجلس القبلي سلطات واسعة النطاق تشمل التـشريع والتنفيـذ والقـضاء وتوزيـع الثروة في المركز الحضري ، وهو شبيه إلى مدى بعيد بمجلس العشائر في القبيلة في مجتمـع البدو الرحّل ، إلا أن مجلس القبائل في المركز الحضري هو في المعتـاد مجلس قبائل ولـيس

مجلس عشائر ، لأن المركز الحضري يضم مجموعة قبائل وليس مجموعة عشائر كما في حالة القبيلة في المجتمع البدوي .

وعادة ما يكون المركز الحضري أكثر تنظيماً سياسياً وإدارياً من النمط البدوي ، والتنظيم يعني التعقيد المكتسب من التطورات الحضارية ، ويبدو ذلك التنظيم في تفريعات سياسية وإدارية شبيهة بالإدارة المحلية ، وتتغلغل تلك التفريعات السياسية والإدارية في كافة أجزاء المركز الحضري ، فتضفي عليه أمارات المدنية والتحضر .

وفي المراكز الحضرية المستقرة كان العرف هو القانون السائد الذي يحترمه الجميع في البدو والحضر ، وقد كان لذلك العرف قوته الخارقة في تنظيم شؤون المجتمع بكافة مناحيها ونشاطاتها .

❖ في ممالك ودويلات الجنوب والشمال :

ثم ننتقل إلى الحديث عن التنظيمات السياسية والإدارية في ممالك ودويلات الجنوب والشمال من بلاد العرب ، وقد نقلت إلينا المرجعيات الشرعية جانباً يعتد به ويعول عليه من تلك التنظيمات ، ويمكننا ذكر ذلك في عجالة عنى النحو التالي :

- الحاكم أو ولي الأمر : لقد عرفت تلك الممالك والدويلات الحاكم أو ولي الأمر ، وهو قمة هرم السلطة السياسية والإدارية في المملكة أو الإمارة أو الدويلة ، ويستشف من تلك المرجعات رفيعة المستوى التي هي القرآن الكريم أن الحاكم كان يتولى مسئولياته ، إما بمقدرات ومؤهلات خاصة ، وإما باختيار الناس وقبولهم ، وإما بالاثنين معاً ، فملكة سبأ كانت تنحدر من أسرة عربية معروفة بسيادتها في العرب وكبير قوم تُبّع كان كذلك ، وفي الشمال اشتهر النعمان بن المنذر بن ماء السماء أنه كان من أسياد العرب وكان الغساسنة كذلك ، وعرف ذلك أيضاً عن مملكة كندة ، وهذا ما أُثر عن المصادر التاريخية

ذات الثقة .

- المجلس الاستشاري : لقد أُثر عن الممالك والدويلات العربية التي نشأت في الجنوب والشمال ومن خلال ما توفر لدينا من معلومات معظمها من مرجعيات شرعية وبعضها من مصادر تاريخية ، أنها كانت تتضمن تنظيمات سياسية ذات طابع ومهام استشارية تزود الحاكم بالآراء ، كما يمكن النظر إليها على أنها قوى فاعلة مشاركة في الحكم وصناعة القرار ، وكان هذا التنظيم واضحاً فيما تحدث به القرآن الكريم عن بلقيس ملكة سبأ ومجلسها الاستشاري الذي استفتتهم في أمر رسالة سليمان التي كانت تحمل في طياتها ما ينذر بإقدام المجتمع على وضعية خطيرة قد تفضي به إلى فقدان استقلاله ، ومن ثم كان لابد من أن يعد لهذا الأمر عدته ، وقد كان أهل سبأ أولي قوة وأولي بأس شديد في الحروب والصراعات ، وكانوا على قدر يعتد به من التنظيم السياسي والإداري .

ولقد بسط الذكر الحكيم لجاني من الوضعية السياسية أبرز فيها دور المجلس الاستشاري في تلك المملكة ، وكيف كان يؤدي ذلك الدور ، فقال تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [2] .

[1]. سورة النمل : ٢٢ و ٢٣ .

[2]. سورة النمل : ٢٨ : ٣٤ .

وكذلك تشير المصادر التاريخية إلى وجود تنظيمات سياسية شبيهة في ممالك مثل إرم ذات العماد بالأحقاف ، وحميَر ومعين وقوم تبّع باليمن ، والأكسوميين بالحبشة ، وأيضاً في ممالك الشمال مثل قوم ثمود في الحجر والدويلات الأحدث في الحيرة وغسان ، فكان لكل حاكم مجلسه الاستشاري الذي يتولى مهام المشورة وصناعة القرار .

وبالرغم من أن هذه التنظيمات السياسية قد وُجدت في أنماط حضارية لعلها الأرقى والأكثر تطوراً على مستوى بلاد العرب إلا أن التفكير القبلي والتركيب القبلي قد امتدا إلى تلك التنظيمات فجعلا تشكيل هذه التنظيمات يتم على أسس ومعايير تلعب فيها القبلية دوراً بارزاً حيث مثلت جميع القبائل التي تتكون منها تلك المجتمعات .

ثالثاً : جذور الطبقية في المجتمع العربي :

في هذه الجزئية نعمد إلى تناول الطبقية في المجتمع العربي وكيف لعبت دوراً مهماً في تشكيله وتطوره وتفاعله قبل ظهور الإسلام ، وكيف أثرت على العقيدة منذ انبعاثها ثم على مسار حركتها وانطلاقتها فيما بعد وهي بصحبة الحضارة والثقافة الإسلامية ، وسيتم ذلك التناول من خلال الآتي :

❖ إطار نظري :

منذ نشأة المجتمع الإنساني وهو يقوم على وجود الفروق بين أفراده وعلى الاعتراف بتلك الفروق وقبولها والاقتناع بها ، وتختلف معايير تلك الفروق ، فوفق المعايير الاقتصادية المادية وُجدت الطبقات المختلفة مثل : طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء ، أي الذين يملكون والذين لا يملكون ، وعلى أساس معايير المهنة أو الحرفة أو الدور الاقتصادي وُجدت مهن الزراع والصناع والرعاة .. إلخ ، وحسب معايير الوضع الاجتماعي وجدت طبقتا السادة والعبيد ، وهكذا كانت الفروق بين أفراد المجتمع البشري في كافة المجالات والمناشط

إحدى الأساسيات التي ارتكزت عليها تلك المجتمعات ، وثمة مسألة دقيقة وحساسة في هذا السياق تحتاج إلى فهم واستيعاب عميقين ، وهذه المسألة تتعلق بالعلاقة بين الفروق الفردية التي تعتبر إحدى المسلمات التي ارتكزت عليها كافة المجتمعات الإنسانية والتي خلق الله الناس عليها وبين الرغبة في المساواة والمطالبة بها كقيمة إنسانية وكفريضة شرعية ! .

فالفروق الفردية التي ميز الله بها الأفراد بعضهم عن بعض يترتب عليها إحراز ميزات وتحقيق أفضليات تؤدي إلى اختلاف أقدار الناس وتفاوت أوضاعهم ، فكيف تنسجم هذه الأوضاع والظروف التي تبدو طبيعية وقد لا يكون للإنسان دخل فيها مع قيمة المساواة التي يراد لها أن تسود بين الناس اجتماعياً وأخلاقياً وشرعياً ! .

إن تحقيق ما تقدم يكمن في أن المساواة ينبغي أن تسود بين الناس من قِبل من يملك التقويم ، بحيث لا يجعل الآثار والنتائج المترتبة على الفروق الفردية أداةً أو معياراً للمفاضلة بين أفراد المجتمع ، فالحق تبارك وتعالى يفاضل بين عباده على أساس أو معيار التقوى ، فهو يكرم ويحب التقي الورع مهما كان أصله أو عرقه أو مركزه الاجتماعي أو مبلغه من المال أو من الجاه والسلطان ، وكذلك ينبغي على الحاكم والسلطات التابعة له أن تتعامل مع كل الناس باحترام وتقدير نابعين من طبيعتهم الإنسانية وكونهم أكرم المخلوقات وليس على أساس الأصل أو العرق أو المركز الاجتماعي أو المركز المالي والاقتصادي ، وبنفس الطريقة ينبغي أن ينظر الناس إلى بعضهم البعض ويقيم بعضهم الآخر ، فالصلاح هو أساس التفاضل والتفضيل وليس الأعراض المترتبة على الفروق الفردية من أصل عريق أو منحط أو من غنى أو فقر أو من مركز كريم أو وضيع .. إلخ ، وأخيراً لا ينبغي للإنسان أن ينزل نفسه منزلة رفيعة ، أو يضع نفسه في مكان مميز ترتيباً على ما تحصل عليه من مترتبات على الفروق الفردية .

إن هذه الأفكار الأخلاقية ذات الطابع المثالي لم تعرفها المجتمعات العربية قبل الإسلام ، فقد عرفت كافة أنواع المفاضلات المترتبة على جميع الفروق الفردية ، فعرفت التفرقة على أساس عراقة الأصل فكان هناك السادة والعبيد وعرفت التفرقة على أساس المركز الاجتماعي فكان هناك الشرفاء والوضائع وعرفت التفرقة على أساس الوضع المادي فكان هناك الأغنياء والفقراء .

إن مفهوم الطبقة ينصرف إلى تفرد فئة أو جماعة من الناس بقواسم مشتركة وسمات ذات خصوصية ، قد تكون في الأصل أو العرق الذي ينحدرون منه وقد تكون في المركز الاجتماعي ، وقد تكون في الوضع المادي ، وعليه فالطبقية هي تقسيم أو تصنيف لأفراد المجتمع وفق أحد المعايير السابقة أو أية معايير أخرى ، إلا أن كثيراً من الدراسات الاجتماعية اتجهت نحو إقران الطبقة بالبعد الاقتصادي ، فطبقات المجتمع لا يتم تقسيمها أو الحديث عنها من وجهة نظر تلك الدراسات إلا على أساس المعيار الاقتصادي أي معيار الملكية ودرجة الغنى والثراء .

والمجتمعات العربية بكافة أنماطها الحضارية عرفت الطبقية بشكلها المطلق العام ، وعرفتها كذلك بشكلها القائم على أساس المعيار الاقتصادي ، وإن كان يلاحظ أن كثيراً من المعايير ترتبط ببعضها ، ولكن الدقة تستوجب التفرقة فيما يتعلق بالطبقية بين الأنماط الحضارية المختلفة ، إلى درجة سيادة قاعدة مؤداها أنه كلما تعمقت وتطورت درجة التحضر والتقدم كلما عرف المجتمع الطبقية وترسخت فيه ، ومعنى ذلك أن نمط البداوة الحضاري لم يكن يعرف التفرقة بين أفراده على أسس طبقية كما عرفها نمط المراكز الحضرية المستقرة ، كما أن النمط الأخير كان أقل استيعاباً لفكرة الطبقة من النمط الحضاري الخاص بالممالك والدويلات ، ولو أن النمطين قد عرف الطبقية ورسخاها في صور عديدة وبناء على معايير متعددة .

وقبل الحديث عن بعض النماذج الطبقية في المجتمعات العربية قبل الإسلام ينبغي الإشارة إلى التداخل الذي كان سائداً بين المعايير وكذا بين الطبقات وبعضها ، فمثلاً ترتب على معيار الأصل تقسيم المجتمع إلى سادة وعبيد ، وفي ذات الوقت كان السادة هم الذين يملكون والعبيد لا يملكون بل كانوا أنفسهم ملكاً للسادة ، وعلى أساس معيار المركز الاجتماعي توزع المجتمع إلى شرفاء ووضائع ، وكان الشرفاء هم الذين يملكون وهم الأغنياء ، وقد يكونوا من المزارعين ملاك الأرض وهكذا .

❖ التقسيمات الطبقية في المجتمعات العربية :

التقسيمات الطبقية التي سادت المجتمعات العربية المختلفة لا تكاد تختلف كثيراً ، وذلك بسبب التجانس الطبيعي والبشري الذي ساد بلاد العرب ، ويمكننا متابعة التقسيمات الطبقية التي وجدت داخل المجتمعات العربية وفق المعايير التالية :

– وفق معيار العرق والأصل : يقصد بالعرق أو الأصل نسب الإنسان الذي ينحدر منه وكان للعرق أو الأصل أهميته التي لا تضاهى في بلاد العرب ، فالعرب أقوام يهتمون بأعراقهم ، ويعتبرونها أساس منزلة الشخص ووضعه الاجتماعي ، ولم يعرف عن أقوام آخرين أنهم اهتموا بمسألة الأصل والعرق على شاكلة العرب ، ولطالما كان الفخر بالأصول والأنساب مجالاً خصباً للشعر العربي ، وعلى أساس العرق والأصل انقسم المجتمع العربي إلى طبقتين : طبقة السادة وطبقة العبيد والتفصيل في الآتي :

○ طبقة السادة : هم كبار القوم والذين ينحدرون من أصول وأعراق هي أساس العرب وانطلاقاً مما نسب إلى هؤلاء من عراقة الأصل سادوا غيرهم ، ولم تكن طبقة السادة واضحة المعالم لدى المجتمعات البدوية نظراً لتشكل تلك المجتمعات في معظمها من قبائل مستقلة أو متجمعة ، ولكنها ذات أصول معروفة وواضحة ، وبالرغم من ذلك عرفت المجتمعات

البدوية طبقة السادة ، وكان العبيد في ركاب تلك الطبقة كخدم وعمال .

أما في المجتمعات الحضرية في المراكز المستقرة المتناثرة على امتداد بلاد العرب في شكل قرى ومدن ، فقد كانت طبقة السادة أكثر وضوحاً وتأثراً في تلك المجتمعات ، فقد كانوا هم رؤساء وكبراء القبائل الشهيرة المعروفة بعراقة أصلها وسمو نسبها ، وقد كان هؤلاء السادة متنفذين بحكم أصلهم وعرقهم ، كما كانوا يملكون معظم ثروة المجتمع ، سواء كانت من أرض زراعية أو ضياع أو من التجارة التي كان يملكها هؤلاء ويديرها آخرون ، وهنا يلاحظ تلاقي معيار عراقة الأصل والنسب مع معيار الوضع المادي ، وكذا مع معيار المركز الاجتماعي ، فالسادة هم الشرفاء الأغنياء ذوو المهن النبيلة مثل ملكية الأرض والضياع والتجارة وقطعان الإبل والماشية وكافة الأنعام بما فيها الخيل .

كذلك كان اتصال طبقة السادة بالحكم والرئاسة والسياسة والإدارة وثيقاً ، فالسادة هم أولياء الأمور وصناع السياسة وأصحاب الرئاسة ، يسوسون الناس ويديرون شؤونهم ويرتبون أمورهم ، وكان ذلك هو واقع حال كافة الأحياء والقرى والمدن العربية المعروفة في بلاد العرب مثل مكة والطائف ويثرب وبقية المدن الأخرى .

وإذا انتقلنا إلى النمط الحضاري العربي الأكثر رقياً وتطوراً ، والمتمثل في الممالك والدويلات التي عرفتها بلاد العرب في الشمال والجنوب والتي سبق الإشارة إليها ، لوجدنا أن طبقية السادة لها كذلك وجودها وتأثيرها وسيطرتها على كافة مقدرات تلك المجتمعات ، وبالذات أن الفرصة مهيأة في تلك المجتمعات لبروز الانقسامات وازدهار تلك الطبقة نتيجة كثرة السكان وزيادة عدد العوام وقد كانت طبقة السادة هي طبقة الحكام والأمراء والقادة والمتنفذين ، وقد تملكوا ثروة المجتمع من أرض وما عليها من بشر وأنعام ومن تجارة وعقار .

○ طبقة العبيد : الطبقة الثانية وفق هذا المعيار هي طبقة العبيد ، وهي طبقة تابعة لطبقة السادة ، بل إن العبيد ملك للسادة ملكية مطلقة ، ومن ثم فهم يقومون على خدمتهم ويأتمرون بأمرهم في كل شيء ، والسيد يتصرف في عبده المملوك له كما يتصرف في أي ممتلك عنده سواء كان ثابتاً أو منقولاً ، وكان الاستعباد منتشراً في بلاد العرب كما كان كذلك في كافة الأمم المجاورة لهم ، وهذه الطبقة لا تملك من أمر نفسها شيئاً ، وكل مهمتها هي خدمة السادة وطاعة أمرهم ، وتشمل هذه الطبقة الذكور والإناث ابتداءً من الأطفال وانتهاءً بالشيوخ مروراً بالغلمان والفتيان من الجنسين .

ومصدر هذه الطبقة تمثل في الشراء أو الأسر في الحروب ، فالعبد يباع ويشترى ، وأسير الحرب والسبايا هم عبيد استرقهم من أسروهم ، وكان ثمة أسواق مخصصة لبيع وشراء وتجارة العبيد أو الرقيق معروفة في بلاد العرب ، وكان العرب يسمحون للسادة بمكاتبة العبيد ، والمكاتبة بمثابة اتفاق بين السيد وعبده على مال يقسطه له فإذا ما وفاه العبد صار حراً .

وكان لطبقة العبيد عند العرب دور مهم في اقتصاد تلك البلاد ، فقد كانت من الناحية الفعلية هي الطبقة العاملة والمنتجة والتي لا تتقاضى مقابل عملها إلا قوت يومها ، وعملت هذه الطبقة في كافة أنواع الأعمال من زراعة وتجارة وحرف وغيرها .

– وفق المعيار الاقتصادي المادي : عند الحديث عن الطبقات التي وجدت في بلاد العرب قبل الإسلام وفق المعيار الاقتصادي المادي سيتضح جلياً التداخل بين هذا المعيار والمعيار الذي سبقه وهو المتعلق بالعرق والأصل ، والمعيار الاقتصادي المادي ينصرف إلى الملكية بكافة أشكالها ، حيث يتوزع أفراد المجتمع إلى فئات أو طبقات حسب حجم ما تملكه كل فئة أو طبقة من مصادر ومقدرات الثروة في المجتمع .

وتجدر الإشارة منذ البداية إلى الفارق الدقيق بين معياري العرق والأصل من جهة والملكية وحجم الثروة من جهة أخرى ، فمعيار العرق والأصل ينصرف بالأساس إلى السيطرة السياسية والمركز الاجتماعي أكثر من تركيزه على التملك وحجم الثروة ، وإن كان ذلك المعيار لا يغفل عوامل التملك وحجم الثروة فيغتد بها ويعول عليها كنتائج ومترتبات وليست كأسس ومرتكزات .

وحسب المعيار الاقتصادي المادي يمكن تقسيم المجتمعات العربية قبل الإسلام إلى أكثر من طبقة ، وأساس ذلك التقسيم هو مقدار ما يتملكه الشخص أو الأسرة من ثروة وتشمل الثروة كل عقار ومنقول ومعادن نفيسة وأحجار كريمة وعبيد وجواري ، والتفصيل في الآتي :

○ طبقة الأغنياء : هي طبقة المالكين أو الملاّك الذين يملكون ثروة المجتمع من أرض وأنعام وتجارة ومساكن وعبيد وكل ما له قيمة ، وقد تعددت وتنوعت مصادر ثروة هؤلاء وما هم فيه من ثراء ، وذلك وفق طبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه ووضعه الحضاري ، فمن قبائل العرب من تجمعت لديهم الثروة بسبب العمل في المهن المختلفة مثل الرعي أو الزراعة أو التجارة ، ومن تلك القبائل من تجمعت لديهم الثروة بالميراث .

إن الطبقية في بلاد العرب قبل الإسلام كانت معروفة ومتجذرة في أعماق المجتمعات العربية ، وبصفة خاصة في الأنماط الحضارية الأكثر تقدماً من نمط البداوة مثل نمط المراكز الحضرية المستقرة ونمط الممالك والدويلات ، وقد برزت الطبقية في كثير من تلك المجتمعات بشكل بغيض وتركت آثاراً سيئة فيها ، ولقد عمد الإسلام منذ بدايته إلى تلافي تلك الآثار ومحاولة تقريب الفوارق بين طبقتي الأغنياء والفقراء ، واستخدم من أجل ذلك أساليب كثيرة ، وكلها أبدعت في سبيل إحراز ذلك الهدف السامي ، ليس من خلال إفقار الأغنياء وسلب ثرواتهم وتوزيعها على الفقراء ولكن من خلال إغناء الفقراء وتوزيع

مقدرات الإنتاج والإنماء عليهم ، وكذلك نشر وترسيخ قيم الإخاء والتكافل الاجتماعي والعدالة الاجتماعية من خلال وسائل شرعية تمثلت في فريضة الزكاة والصدقات .

وقد أشار الذكر الحكيم إلى طبقة الأغنياء في مواضع عديدة ، فقال تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[4] .

وقد كان للغنى عند العرب درجاته ومراتبه فهناك الغنى أو الثراء الشديد عند كبار القوم والسادة من الملوك والأمراء والحكام والتجار وملاّك الأرض الزراعية والضياع ، وهناك من هم أقل درجة أو مرتبة من ملاّك الأرض الزراعية والضياع والتجار ، وهناك من هم في

---

[1]. سورة البقرة : ٢٧٣ .

[2]. سورة آل عمران : ١٨١ .

[3]. سورة التوبة : ٩٣ .

[4]. سورة الحشر : ٧ .

المرتبة الثالثة حيث لم يكن غناهم شديداً أو فاحشاً ، ولكنهم يملكون ثروات يعتد بها .

وكان العرب شديدي الحرص على ثرواتهم ، فشرّعوا من التشريعات والأعراف ما كفل لهم الحفاظ على تلك الثروات من التفتت أو الأيلولة بالميراث ، ومن أجل ذلك حرموا ميراث المرأة بل ومنعوها من الزواج بعد موت زوجها فقد كانت تنتقل بالإرث إلى ورثة زوجها من الذكور .

كذلك عرف العرب إنماء الثروات بكافة الوسائل والسبل التي منها التجارة والربا ، وكانوا بالفعل تجار مهرة ، عملوا في تجارة النقل والتوصيل بين كافة الإمبراطوريات التي كانت تحيط ببلادهم ، وبرعوا في ذلك أيما بروع ، كما أنهم تفننوا في كل مذاهب الربا وضروبه ، وقد كان الربا سبباً في تضخيم الثروات إذ كان مباحاً كما كان سبباً أيضا في محق ثروات أخرى ، وقد عرف العرب الربا وأخذوه عن اليهود وتعاملوا معهم كذلك بالربا .

وقد كانت طبقة الأغنياء في كثير من الحالات مستبدة ، وتعاملت مع الطبقات الأخرى الفقيرة باستغلال واستحقار شديدين ، وقد كانت الفروق الطبقية بشعة ومخيفة ، وتركت آثاراً مدمرة على المجتمعات العربية ، وكثيراً ما نشرت البغضاء والحقد بين أفراد المجتمعات العربية ، في الوقت الذي كان هناك أغنياء اشتهروا بالكرم والعطف على الفقراء والعطاء السخي .

o طبقة الفقراء : من حيث الملكية المادية والاقتصادية تعد طبقة الفقراء هي الطبقة المقابلة لطبقة الأغنياء ، وهي طبقة العوام ، وسمتها الغالبة أنها لا تملك إلا قوت يومها ، أو تملك ملكية محدودة للغاية ، فالفقير من لا يملك إلا أقل القوت ، أما المسكين فهو الذي ليس عنده ما يكفي من يعول ، وكانت هذه الطبقة بسماتها وفروقها عن الطبقة الغنية أكثر بروزاً في النمط الحضاري الخاص بالمراكز الحضرية المستقرة في بلاد العرب ،

وكذا في نمط الممالك والدويلات المنتشرة في الجنوب والشمال .

وكانت طبقة الفقراء والمساكين من الاتساع بما جعلها تـشمل العبيـد المملـوكين للسادة مـن طبقة الأغنياء ، وعليه فالفقير أو المسكين قد يكون حراً ، وقد يكون عبداً مملوكاً لـسيده ، وبمقدار اتساع حجم هذه الطبقة كانت مشاركتها وإسهاماتها الفعالة في اقتصاد المجتمعات العربية قبل الإسلام ، فقد كانت هي الطبقة المنتجة والتي تقوم بكافـة الأعمـال في مجـال الزراعة والرعي والتجارة والحرف ، وبالرغم من ذلك فقد كانت متحصلات تلك الطبقة من هـذه الإسـهامات محـدودة للغايـة ، فقـد كانـت تعمـل باسـتمرار وتعطـي دون توقـف والمستفيـدون هم الأغنياء والسادة الذين يسخرونهم ويسلبونهم جهودهم .

وهكذا كانت الفوارق الطبقية شاسعة في بلاد العرب بين طبقة شديدة الثراء إلى حد الفحش ومحدودة العدد ، وبين طبقة أخرى كادحة دون رحمة ومسخرة بلا آدمية وعظيمـة العـدد ، وتعطي كل مجهودها لغيرها ، وهي شديدة الفقر إلى درجة الدقع ، وكان من شأن تلـك الفوارق أن تخلق نوعاً من الصراع بين الطبقتين كامناً في معظم الأحيان ، ولكنه كان يطفـو على السطح عندما تتاح الفرصـة ، وسـوف تبـدو أهميتـه الحاسمـة عنـدما تنبعـث عقيـدة التوحيد ، وتبدأ في الانتشار بين أفـراد الطبقـة المعدمـة فتبعـث فـيهم الأمـل في اسـترداد آدميتهم التي طالما افتقدوها في علاقتهم مع السادة الأغنياء .

❖ الحراك الاجتماعي في المجتمعات العربية :

انتقال الأفراد داخل المجتمعات العربية قبل الإسلام من طبقة إلى أخـرى كـان مـن الأمـور المستحيلة ، ومعنى ذلك أن الطبقة العليا كانت محكمة التحصين ، والحدود بينهـا وبـين الطبقة الأدنى صارمة ولا يمكن تجاوزها تحت أي ظرف مـن الظـروف ، وكانـت أسـباب ذلك عديدة :

– من هذه الأسباب أن الفوارق بين الطبقتين كانت تتعلق بالأصول والأعراق التي ينحدر منها أفراد كل طبقة والتي لا يمكن تغييرها أو المساس بها ، فهي من الحتميات الاجتماعية التي وجدت في بلاد العرب كمعطيات ومسلمات .

– ومن هذه الأسباب كذلك أن الارتباط كان عضوياً بين معياري التقسيم الطبقي في المجتمعات العربية وهما : معيار الأصل والعرق ومعيار الملكية والوضع الاقتصادي والمادي ، فالسادة الذين ينحدرون من الأصول والأعراق النبيلة كانوا هم أنفسهم الأغنياء الذين يملكون الثروات ومصادرها ولم يكن من المتعارف عليه أو المقبول في المجتمعات العربية أن يغتني الأفراد فجأة ويصبحون من ذوي الثروات ومن ثم يمسون مؤهلين للانتقال من طبقتهم الدنيا إلي الطبقة الأعلى الأكثر رقياً وسمواً مادياً واجتماعياً .

– ومن هذه الأسباب أيضاً أن القيم الاجتماعية السائدة في المجتمعات العربية كانت تقدس ذلك التقسيم الطبقي وتتعامل معه بحدة وصرامة ، كما أن تلك المجتمعات قد اعتمدت تلك التقسيمات واستوعبتها داخل نسيجها كمفردات منها ، ومن ثم فقد كان الخروج عليها يعد خروجاً على نواميس تلك المجتمعات وأعرافها التي كانت قد وصلت إلى حد القوانين .

– ومن هذه الأسباب أخيراً أن القيم الدينية والأخلاقية كانت تكرس ذلك التقسيم الطبقي ، ولم تكن تسعى لإيجاد نوع من التسامح والإخاء والمساواة في الإنسانية بين الأفراد ، فعبادة الأوثان والأصنام لم تكن تنشر إلا التمايز الطبقي والانقسام المبني على أساس ذلك التمايز ، فقد كان لكل قبيلة معبودها الذي ارتضته لنفسها وهو يتناسب مع وضعها العرقي ، فكلما ازداد السمو العرقي للقبيلة كلما ارتقت في اختيار آلهتها ! .

رابعاً : المهن المتعارف عليها بالمجتمعات العربية :

ترتبط المهن التي انتشرت في بلاد العرب ارتباطاً عضوياً بالطبقات التي تحدثنا عنها في البند السابق ، فالمهن هي الأساس والجوهر في تكوين الثروة التي هي بدورها أساس الطبقات والتقسيم الطبقي والتي ترتبط كذلك بالأصول والأعراف الخاصة بالممارسين لها فعلياً أو المالكين لرؤوس الأموال الموظفة في تلك المهن ، ويمكننا الحديث في هذا السياق عن المهن التالية التي وجدت في بلاد العرب والتي تواءمت مع الظروف الطبيعية والبشرية لتلك البلاد ، والتفصيل فيما يلي :

❖ مهنة الزراعة :

من أقدم المهن وأهمها التي عرفها العرب وبصفة خاصة في الجنوب ، حيث مياه الأمطار في بلاد اليمن السعيد التي حملت اسمها من اليُمن والبركة الناتجين عن الزراعة القائمة على مياه الأمطار التي ينظمها ويدخرها سد مأرب الشهير ، وقد اشتهرت بلاد العرب في الجنوب في اليمن وحضرموت بالزراعة بجميع أشكالها سواء المزروعات أو الثمار أو المحاصيل ، وقد تحدث القرآن الكريم عن الزراعة في بلاد اليمن وعن أهمية المياه للحضارات العربية في حضرموت ، فقال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [2] .

---

[1]. سورة سبا : ١٥ .

[2]. سورة هود : ٥٢ .

وقـــال تعـــــالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [1] .

كذلك عرفت بلاد العرب في الشمال الزراعة على مياه الأمطار والأنهار منذ أيام قوم ثمود وشعيب الذين هم أصحاب الأيكة إلى الأخميديين في الحيرة والغسانيين في الشرق ، قال تعـــالى ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [2] .

وفي الوسط كانت الزراعة من الحرف أو المهن غير الأساسية ، وذلك لندرة الأمطار والاعتماد على المياه الجوفية التي كان من الصعب الوصول إليها ، إلا أن الزراعة كانت أساسية في الواحات التي انتشرت في الوسط مثل واحة الطائف وخيبر ويثرب .

وانطلاقاً من كون الزراعة حرفة السكان الأصليين في الجنوب فعندما أصيبت بلاد الجنوب بالجفاف وهجرها أهلها اتجهوا شمالاً واحترفوا الزراعة في مناطق الوسط مثل مكة والطائف ويثرب التي اشتهر فيها من قبائل الجنوب قبيلتا الأوس والخزرج .

وقد امتلك الأرض الزراعية والضياع السادة الملاك الأغنياء وعمل فيها العبيد والفقراء والمساكين بأجور متواضعة تسد بالكاد قوت يومهم ، إلا أنه وجد في بلاد العرب من أجر الأرض على جُعل أو لقاء مقابل مادي أو حصة من المحصول ، وكانت الزراعة من المهن التي تدر عائداً لا بأس به على أصحابها ، وكان المزارعون أو ملاك الأرض الزراعية يسكنون الواحات أو القرى وضواحي المدن ، ويتميزون في عاداتهم وتقاليدهم وأساليب معيشتهم التي تواءمت إلى حد بعيد مع طبيعة مهنتهم المرتبطة بالأرض الزراعية ،

---

[1]. سورة الشعراء : ١٣١ ــ ١٣٤ .

[2]. سورة الشعراء : ١٤٦ ــ ١٤٩ .

والتي تتطلب الاستقرار والأمن والحياة الرتيبة الهادئة التي ترتكز على مرتكزات أساسية مثل ترقب مياه المطر أو انتظار نضج المحصول في صبر وتؤدة .

❖ مهنة الرعي وتربية الحيوانات :

كانت مهنة الرعي وتربية الحيوانات من أوسع المهن انتشاراً في بلاد العرب حيث ارتبطت بالزراعة ثم تفوقت عليها في الانتشار والأهمية ، وذلك لصلاحيتها لكافة الأقاليم المناخية والنباتية المنتشرة في كافة أرجاء بلاد العرب ، فهي لا ترتبط بصلاحية التربة للزراعة بل ترتبط بالكلأ والمرعى اللذين ينبتان بشكل تلقائي عقب سقوط الأمطار .

وتعد هذه المهنة مهنة رئيسية في نمط البداوة الحضاري ومصدر الدخل الأساسي لسكان هذا النمط ، ويعمل في هذه المهنة أخلاط كثيرة من البشر ، ولا يتورع عن العمل فيها كبار القوم وخاصتهم ، فالعديد من الأنبياء والمرسلين عمل بهذه المهنة ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عمل بها كذلك ، كما عمل بالتجارة ، وكان قائداً لقافلة تجارية عظيمة ، كذلك كان يعمل في هذه المهنة العبيد لدى سادتهم أصحاب قطعان الماشية ، وأهم الحيوانات التي يربيها العرب هي الماعز والضأن والإبل والأبقار والخيول .

❖ مهنة التجارة :

من المهن المهمة كذلك في بلاد العرب التجارة ، وقد انتشرت هذه المهنة في كافة بلاد العرب وأقاليمهم المختلفة ، وقد برع كل إقليم في التجارة لأسباب خاصة به ونابعة من ظروفه الطبيعية والبشرية ففي الشمال برع العرب من خلال ممالكهم في التجارة بسبب موقعهم بين الإمبراطوريتين الساسانية في طيسفون والرومانية في القسطنطينية وفي الوسط احترف العرب في مكة والطائف ويثرب هذه المهنة وتفننوا فيها بسبب فقر بيئتهم ، حيث لم يكن أمامهم إلا التجارة لمواصلة البقاء والتفاعل مع من حولهم ، وفي الجنوب عرف

العرب التجارة لقضاء حوائجهم والاستفادة منها في تصريف منتجاتهم التي ينتجونها محلياً .

وكانت التجارة مهنة الشرفاء والسادة من خلال رؤوس الأموال التي يمتلكونها ، أما من يديرونها فقد كانوا أناساً من أواسط القوم اشتهروا بالصدق والأمانة لتوكل إليهم مهمة قيادة القوافل وتوصيل الأمانات ، وقد عرف العرب نوعين من التجارة : النوع الأول ، تجارة النقل والتوصيل حيث يقوم عرب الوسط بالذات والذين برعوا في هذا النوع من التجارة بنقل منتجات الشمال إلى الجنوب والعكس ، حيث لم يكن أهل الحجاز لديهم ما يمكن أن يتاجرون فيه أو ينقلوه إلى العالم المحيط بهم من بلاد العرب أو الأمم الأخرى النوع الثاني ، التجارة مع الأمم والمجتمعات المجاورة والمحيطة من خلال منتجات محلية تنتجها تلك الأقاليم ثم تنقلها إلى تلك الأمم والمجتمعات وتقايضها بمنتجاتها .

وقد عرف العرب التجارة بالمقايضة أو بالنقود حيث انتشرت في بلادهم الدرهم الروماني الذهبي والدرخمة الساسانية الفضية ، ومع ذلك كان للعرب عملتهم الخاصة بكل منطقة ولكنها كانت أقل شأناً وقيمة من العملتين الرومانية والساسانية .

❖ مهن وحرف أخرى مختلفة :

إلى جانب المهن الرئيسية التي ذكرناها هناك مهن أخرى عرفتها بلاد العرب في أقاليمها المختلفة مثل الصناعات ، كصناعة الثياب وأدوات الصيد وعدد الحرب والنجارة والحدادة وغيرها .

خامساً : المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام :

تناول وضع المرأة في المجتمعات العربية قبل الإسلام له أهميته لأنه يسد ثغرة مهمة فيما يتعلق بالأوضاع الاجتماعية لتلك المجتمعات ، ويأخذ هذا التناول أبعاد عديدة تتمثل

في الآتي :

❖ وضعية المرأة العربية مقارنة بالمرأة في الأمم الأخرى :

لم تختلف المرأة العربية عن المرأة في الأمم الأخرى إلا في بعض الأمور التي أبرزت خصوصية المرأة العربية في ذاتها وفي مجتمعها التي نشأت وعاشت فيه ، فالمرأة العربية لم تختلف كثيراً عن مثيلاتها في الأمم الأخرى فهي لم تكن إلا في الدرجة التالية للرجل ، وقد قلل ذلك من أهميتها وجعلها تابعاً لـه ، ولكن لم يتحدث أحد عن المساواة بين الرجل والمرأة ولم يطالب أحد بتحسين وضعها ، بل كان هناك من بالغ في الحط من قدرها والتحقير من شأنها والعجيب أن ذلك قد صدر من أشهر الفلاسفة والمفكرين .

لقد اختلف وضع المرأة العربية على امتداد تاريخ العرب من حقبة تاريخية إلى أخرى كما اختلف وضعها كذلك من مكان إلى آخر على امتداد أقاليم العرب ، فهناك حقب تاريخية وفي أماكن بذاتها سمت فيها مكانة المرأة وارتفع شأنها ووصلت إلى الملك والرئاسة مثل بلقيس وزنوبيا ، وكذلك في مجالات أخرى عديدة ، وبالمقابل هناك حقب تاريخية انحطت فيها تلك المكانة وتواضع شأنها ، وكانت على غرار النساء في الأمم والمجتمعات الأخرى مغلوبة على أمرها .

❖ المرأة البدوية أكثر تحرراً :

ثم ننتقل إلى خصوصيات المرأة العربية وتتمثل أولى تلك الخصوصيات في الحديث عن وضعية المرأة البدوية ، ولعله من المفارقات في هذا الصدد القول بأن المرأة البدوية كانت أكثر تحرراً من المرأة في أي نمط حضاري آخر ، وقد بدا تحرر المرأة البدوية في دورها الفعال في حياة الأسرة ثم في حياة العشيرة فالقبيلة ، ومن شأن هذا الدور الفعال أن يقرب المرأة من الرجل ومن ثم ظهرت في البادية نماذج عديدة من النساء اللائي برعن في كثير

من مجالات الحياة العملية والاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية .

إن نمط البداوة الحضاري قد حمل من السمات والخصائص ما كرس تحرر المرأة العربية ، فهذا النمط بقسوته وصعوبة ظروفه يحمل الجميع أعباء الحياة ولا يعفي أحداً من دوره المرسوم له داخل ذلك المجتمع ، فطبيعة الحياة تفرض على الجميع العمل والعطاء ، والمجتمع يحتاج إلى جهود جميع أفراده رجال كانوا أم نساء ، عندئذ كان على المرأة البدوية أن تتحمل الدور الذي يوزع عليها مهما كانت قسوة هذا الدور .

انطلاقاً مما تقدم كانت المرأة البدوية متحررة من أغلال كثيرة تكبل سواها من النساء فهي تخرج إلى العمل ، وتعمل في كافة المجالات التي تقدر عليها ، وتباشر دوراً حيوياً وربما أساسياً في تسيير أمور العشيرة أو القبيلة بل وتشترك في الحروب والدفاع عن القبيلة إلى اقتضت الضرورة ذلك .

❖ التحضر والمدنية لم يكونا في صالح المرأة العربية ! :

إكمالاً للمفارقة التي تناولنا شقها الأول في الجزئية المتقدمة نتحدث عن شقها الآخر وهو أن التحضر والمدنية لم يكونا في صالح المرأة العربية ، فالتحليل الاجتماعي التاريخي لوضعية المرأة العربية في الأنماط الحضارية الأكثر تقدماً من نمط البداوة الحضاري يفضي إلى نتيجة مؤداها أن المرأة العربية في تلك الأنماط الأكثر رقياً أصبحت أقل تحرراً وانزوت وانعزلت مقارنة بمثيلتها في البادية ، وأسباب ذلك أن تفاعلات ومنشآت الحياة اليومية في القرية أو المدينة هي أكثر ثباتاً ولا تتطلب حركة وحيوية من المرأة التي تمارس وظائف عديدة في البادية تبدأ بأعمال المنزل ثم رعي الحيوانات وفلاحة الأرض وتنتهي بالمشاركة في القتال .

❖ أهمية المرأة في المجتمع العربي :

لم تكن للمرأة أهمية في حد ذاتها ، فهي دوماً في المرتبة الثانية بعد الرجل ، ولكن أهميتها تكمن في ما يمكن أن تجلبه للقبيلة من فائدة مادية أو معنوية ، فالمرأة قد تزيد مما لدى القبيلة من عز وجاه تعويلاً على مكانتها الاجتماعية المتمثلة في الأصل والعرق والنسب ، وكذلك تكمن أهمية المرأة في خصوبتها وما تساهم به في زيادة عدد القبيلة ، حيث كانت العرب يتحفون بالذرية ويحبذون كثرتها .

❖ جريمة وأد البنات عند العرب :

تفرد العرب على سائر الأمم باقتراف جريمة بشعة تمثلت في وأد البنات ، ومبعث هذه الجريمة أن العربي كان ينظر إلى الأنثى على أنها شر لابد أن التخلص منه ، وهي وليدة بالوأد أي بدفنها في التراب وهي حية ، أو هي بالغة بتزويجها والاستفادة المادية من ورائها بقبض الصداق الخاص بها ، الذي كان يغالي فيه العربي بشكل يعضل زواج البنت ، مما يجعلها تتجه إلى الانحراف الأخلاقي أو الوجداني .

ولقد صور القرآن الكريم بشاعة هذه الجريمة والأفكار التي ارتبطت في أذهان العرب بالأنثى ونظرتهم إليها ، فقال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ

[1]. سورة الأنعام : ١٥١ .

مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾[4] .

ولم يعرف على وجه اليقين إذا كانت هذه الجريمة البشعة تقترف في سائر بلاد العرب أم لا ، ولكن الثابت يقيناً أنها انتشرت في بلاد الحجاز وفي مكة على وجه التحديد ، حيث ذكر عمر بن الخطاب أنه وأد لـه أنثـى ، ولم يكـن للمـرأة في المجتمعـات العربيـة علـى اختلاف أنماطها الحضارية شخصية مستقلة محددة الملامح تجتمع لها مرتكـزات وثوابـت بناءً عليها تتم تفاعلاتها مع المجتمع الذي وجدت فيه وهذه المرتكـزات لشخـصية المـرأة هي ما درج على تسميته في زماننا بحقوق المرأة التي أعطاها الإسلام أهمية قصوى بوصـفها نفساً بشرية وروحاً إنسانية لا تفترق عن الرجـل في شـيء إلا في التركيـب البيولـوجي ومـا يترتب عليه من نتائج اجتماعية مختلفة ، ومن ثم يكـون مـن غـير المنطقـي وغـير المقبـول كذلك الادعاء بالبحث عن حقوق المرأة في الإسلام لأن الإسلام في ذاته حق لكل آدمي ومـن

---

[1]. سورة النحل : ٥٧ ــ ٥٩ .

[2]. سورة الإسراء : ٣١ .

[3]. سورة الزخرف : ١٥ ــ ١٩ .

[4]. سورة التكوير : ٨ و ٩ .

ذلك المرأة [1] .

سادساً : العادات والتقاليد والقيم العربية :

ارتكزت شخصية العربي في فكره وسلوكه على ثلاثة مرتكزات أساسية انتقلت إليه عبر الأجيال وهي : العادات والتقاليد والقيم ، وثلاثتها ساهمت مشتركة في صياغة وتشكيل النظام الاجتماعي للمجتمع الذي نشأ فيه مهما كان النمط الحضاري لذلك المجتمع ، بداوة أو مراكز مستقرة أو دويلات وممالك ، وفي عجالة يمكننا إلقاء بعض الضوء على عادات العرب وتقاليدهم وقيمهم التي تغلغلت في نسيج مجتمعهم وأصبحت جزءً منه ، والتفصيل فيما يلي :

❖ العادات :

العادات العربية المتوارثة شملت كافة مجالات ومناحي الحياة . وهذا هو واقع الحال في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية المتعارف عليها في ذلك الوقت ، والعادات تتعلق بالأفكار كما تتعلق كذلك بالسلوك ، وقد تواءمت عادات العرب قبل الإسلام مع طبيعة حياتهم البيئية وظروفهم المادية المرتكنة على تلك البيئة . فعادات مثل الاقتصاد والقناعة والتحايل في طلب الرزق والجلد والجفوة في التعامل هي عادات اكتسبها البدوي ، وتوارثتها الأجيال العربية من البيئة بظروفها الوعرة وأحوالها القاسية ، كذلك عادات مثل الميل إلى البطولة والقيام بالأعمال الجليلة والشرف والمروءة والكبرياء والكرم والضيافة

---

[1] انظر للمؤلف في تفصيل موقف الإسلام من المرأة والأصول التي وضعها لجعلها عنصراً فعالاً في المجتمع بما يواكب وضعها الطبيعي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة : المجلد الرابع ، الذات الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية) الجزء الثالث : تشكيل النظام الاجتماعي ، الفصل الخامس : تشكيل النظام الاجتماعي منذ فجر الحضارة الإسلامية .

والتفاخر بالأنساب كلها عادات توارثها العرب مصبوغة بطابع بلادهم وخصائصها الطبيعية .

لقد عاينت بلاد العرب ثلاثة أنماط حضارية – كما سبق وأوضحنا – كان أولها وأساسها نمط البداوة ، ثم نمط القرية أو المدينة ، وهو نمط المركز الحضري المستقر ، ثم نمط الدولة ، وكل هذه الأنماط الحضارية عايشت نفس العادات بالرغم من التفاوت الحضاري فيما بينها ، وكان أساس تلك العادات هو النمط البدوي ، وكل ما حدث أن تلك العادات نفسها احتفظت بجوهرها النابع من النمط البدوي ، إن هذا يعني أن أساس العادات العربية وجوهرها واحد وتعبيراتها وأشكالها مختلفة باختلاف الأنماط الحضارية المتباينة .

ولعل من الأمور الجديرة بالتركيز في هذا السياق ما يلاحظ من التناقض بين العادات في النمط الحضاري الواحد وربما بين الأنماط الحضارية الثلاثة ، فقد نجد العادة ونقيضها في نفس المجتمع أو النمط الحضاري ، ومغزى ذلك أن المجتمع العربي لم يكن على وتيرة واحدة من النهج الفكري أو السلوكي ، بل كان يجمع التباين والتفاوت الذي يمكن تأويله وتخريجه في نهاية المطاف على أنه ضرب من الحرية الفكرية والسلوكية .

لقد كان اعتزاز العرب بعاداتهم طاغياً وتمسكهم بها غير محدود وغيرتهم عليها لا توصف ، وقد كان ذلك حجر عثرة أمام العقيدة التي انبعثت حديثاً والتي كافحت من أجل تغيير الكثير من عادات العرب التي لم تعد توائم الدين الجديد بقيمه ومثله ومبادئه ، وكان العرب يعتبرون عادات آبائهم جزءً من حياتهم ولا يقبلون أي مساس بها .

لقد كانت عادات العرب مرتكزاً مهماً من محاور الممتلك الذاتي الخاص بالثقافة العربية قبل الإسلام ، فالعادات المتوارثة تعبر عن الذاتية والخصوصية التي تهم العرب وبلادهم كقوم لهم خصائصهم العقلية والفكرية والنفسية والوجدانية .. الخ ، وقد غلبت عادات

العرب على ما جلبوه من موروثات وممتلكات الغير لأنها نابعة من ذاتهم ومعبرة عن سجيتهم ، فظلت تلك العادات تميزهم وتسمهم على مر الأجيال ، بل وربما انتقل الكثير من تلك العادات إلى الأجيال الحديثة والمعاصرة ، ويعد حفاظ العرب على عاداتهم المتوارثة نوعاً من الأصالة وتعبيراً عن عراقة العنصر والأصل .

وكان اتصال عادات العرب بتدينهم وأديانهم وثيقاً للغاية . وذلك أن ظاهرة الأديان وعاطفة التدين المنتشرة في بلادهم كانت هي نفسها من قبيل العادات الأصيلة المتجذرة في بيئاتهم والتي تحمسوا لها وتمسكوا بها بشكل يتواءم مع قيمتها وطبيعتها كأديان لها القداسة والاحترام ، وسوف نزيد هذه المسألة وضوحاً وتفصيلاً في المبحث التالي .

❖ التقاليد :

أما التقاليد فكانت أكثر عمومية وشمولية كأفكار وسلوكات جماعية تعبر عن العقل الجماعي والفكرة الجماعية والسلوك الجماعي الغالب للمجتمع أو لطائفة منه ، وتقاليد العرب هي الأخرى مثل عاداتهم ؛ كانت وثيقة الصلة ببيئاتهم الطبيعية والمادية الاقتصادية ، ولم يكن العرب في ذلك بدعاً ، فالعادات والتقاليد تحددها دوماً ظروف المجتمع الطبيعية ، وكذا المادية والاقتصادية وغيرها من المحددات التي تعد معطيات بيئية .

وانطلاقاً من كون العادات أقرب إلى السلوك الفردي والتقاليد أوثق بالسلوك الجماعي فإن التقاليد العربية انتقلت إلى النمطين الحضاريين الأكثر رقياً من نمط البداوة وتأصلت فيهما أكثر من العادات ، لأن العادات بدأت تأخذ أشكالاً وتعبيرات تتواءم مع الطبيعة الحضرية والمدنية الجديدة . أما التقاليد فكانت تصرفات جماعية لم تؤثر فيها النقلات الحضارية تأثيراً ملموساً .

وعلاقة التقاليد بالدين والتدين عند العرب كانت علاقة حميمة ، إذ أن النسك والشعائر التي ورثها العرب عن آبائهم كانت من صميم التقاليد الدينية ، حتى أسماء الآلهة كانت هي الأخرى من تقاليد العرب ، وقد عبر العرب عن ذلك صراحة عندما واجههم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالعقيدة الجديدة ، فاحتجوا عليها بأنها تحمل أفكاراً جديدة ، لم يألفوها من قبل ، ولا يمكن لهم أن يتخلوا عن تقاليد آبائهم في مجال المعتقد ، لإلفهم لها واعتزازهم بها ، فطغى بالتالي الانتماء والولاء للموروث على الفكرة الجديدة ، حتى ولو كانت عقلانية ورشيدة ومقبولة بالمنطق ، وفي ذلك بالضبط جاء قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2] .

وكان للتقاليد عند العرب دورها البادي الذي لا ينكر في ثقافتهم ، فكانت إلى جانب العادات وكذا النسق القيمي تشكل مفردات المتلك الذاتي الذي طبع ثقافتهم ووسمها بالخصوصية ، وربما كان للتقاليد وقعها الأكثر فعالية في ذلك المتلك من العادات ، وذلك تأسيساً على اتصال التقاليد بالسلوك الجماعي والعقل العام للمجتمع ، والتمسك بالتقاليد يعد تعبيراً عن الأصالة إذا كانت تلك التقاليد في سياق القيم الإنسانية ومجرى المثل والمبادئ ذات الطبيعة العامة .

❖ **النسق القيمي :**

يعد النسق القيمي أعلي مفردات ومكونات المتلك الخاص بأي مجتمع ، وقد انقسم النسق

---

[1]. سورة البقرة : ١٧٠ .

[2]. سورة الصافات : ٦٩ و ٧٠ .

القيمي في المجتمعات العربية بين قيم فردية تخص الفرد في فكره وسلوكه ، وأخري تهم المجتمع في عقله الجماعي وسلوكه العام .

وقد ساهمت القيم العربية في صياغة وتشكيل فكر الفرد وسلوكه ، وكذا العقل الجماعي للمجتمع وسلوكه العام ، وكثير من القيم التي كانت سائدة قبل مجيء الإسلام كان لها دورها الحيوي المهم في مساندة العقيدة وترسيخ القيم الإسلامية في المجتمع العربي . وهـ التلاقي بين القيم العربية قبل الإسلام وبعد مجيئه يوضح مدي إنسانية تلك القيم ومدي اتفاقها مع الفطرة السوية .

وبالرغم من ذلك كانت هناك بعض القيم التي شكلت عائقاً في سبيل انتشار العقيدة وتعارضت مع الكثير من قيم الإسلام ، فمثلاً المبالغة في التحزب للعرق والأصل كقيمة عربية أصيلة كانت دوماً حجر عثرة أمام قيم الإخاء والمساواة والعدالة بعد ظهور الإسلام ، إلي غير ذلك من القيم .

سابعاً : الخدمات الاجتماعية في المجتمعات العربية :

ارتبطت الخدمات الاجتماعية في المجتمعات العربية بطبيعة النمط الحضاري السائد في المجتمع ، فيُفترض أن الخدمات الاجتماعية هي عبارة عن خدمات تقدمها جهة ذات طبيعة مؤسسية ، أو مؤسسة أو شخصية اعتبارية عامة لمصلحة عموم أفراد المجتمع ، ويلاحظ أن الخدمات الاجتماعية التي عرفها نمط البداوة الحضاري وكذا نمط المراكز الحضرية المستقرة في القرى والمدن هي أقرب إلي الخدمات التي يقدمها الأفراد بصفتهم الشخصية ، فمثلاً خدمات الضيافة والكرم ونصرة المظلوم وإجارة الضعيف واستيفاء الحقوق كانت جميعها تتم من خلال أشخاص ، وإن كانت تقدم لعموم المجتمع ، وذلك لعدم وجود التنظيمات السياسية والإدارية التي تكون بمثابة المؤسسات أو الأجهزة التي

تقدمها باسمها هذه الخدمات .

ولكن اختلفت الحال في نمط الدويلات والممالك الحضاري ، حيث قامت التنظيمات السياسية والإدارية التي مثلت السلطة العامة والجهة الاعتبارية وهي الدولة التي شرعت تقدم الخدمات الاجتماعية لأفراد المجتمع ، وقلت الخدمات التي تقدم بشكل شخصي أو بمجهوذ أو بمسعى فردي .

ثامناً : التعليم ومؤسساته :

التعليم عند العرب كان يُقصد به تعليم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الأساسية مثل الحساب التي تستعمل في الحياة العملية ، ثم التأديب الذي يعني تعليم أصول اللغة والإلمام بأشعار العرب وتاريخهم ، وقد كانت العرب أمة بلاغة وفصاحة لسانية من خلال تعبيرات مسموعة تمثلت في الشعر والخطابة ، ولم تكن أمة قراءة وكتابة . فقد كانت أمة أمية أي لا تتقن الكتابة والقراءة ، ولكن وٌجد فيها من تعلم القراءة والكتابة .

وقد كانت مؤسسات التعليم عند العرب قبل الإسلام محدودة للغاية ، وتمثلت في المؤدِب الذي يذهب إليه طالبو العلم أو يذهب هو إليهم ، وكاد التعليم في النمط البدوي الحضاري أن يكون معدوماً ، وكان محدوداً في نمط القرية والمدينة ، في حين كان أكثر بروزاً في الدول والممالك ، حيث أشارت الحفريات والآثار إلي وجود ما يشير إلي المؤسسات التعليمية ، كما وٌجدت آثارهم وأخبارهم مكتوبة مما يدل على اعتماد الكتابة كأداة للتأريخ لتلك الدويلات والممالك في الجنوب والشمال .

ومعلوم أن الفصاحة وتعلم القراءة والكتابة لم تكن حكراً علي الرجال بل وُجد من النساء الشاعرات والمتعلمات وبصفة خاصة في نمط المراكز المستقرة الحضاري والدول والممالك .

المبحث السادس

الحياة الدينية المعتقدية

ثم نتحول لدارسة وتحليل ناحية أخرى من نواحي حياة العرب المتعددة ، نغوص في أعماق لجة من التفاعلات والعلاقات هي جماع الفكر والثقافة وملتقى الموروث ، إنها الحياة الدينية المعتقدية التي تشكل محوراً مهماً وجوهرياً في حياة الإنسان بشكل عام والعربي بشكل خاص .

إن ظاهرة الدين وعاطفة التدين عند العرب من الأمور الجديرة بالدراسة والبحث ، كما أن أديان العرب قبل الإسلام وطرق ممارستهم لشعائرهم ونسكهم من المسائل ذات الاهتمام ، لأن كل ذلك سيمثل ثقلاً له مغزاه في مواجهة العقيدة الجديدة المنافس الخطير الذي سيقضي علي كافة تلك الأفكار وسيفرض فكرة جديدة تخص الدين والتدين والشعيرة والعقيدة وكل ما يرتبط بهذه القضايا الحساسة في حياة العربي ، من أجل ذلك نطرح الأفكار التالية للإجابة عن تساؤلات عديدة في هذا الخصوص :

أولاً : ظاهرة الدين وعاطفة التدين عند العرب :

يوصلنا التأمل في حياة البشر منذ بدء الخليقة إلي حقيقة مفادها أن هؤلاء البشر منذ أن وُجدوا على ظهر الأرض ، وهم منقسمون من ناحية التفكير والتأمل في صانع الكون والحياة وخالق الناس إلى فريقين :

❖ الفريق الأول :

بدأ رحلة التفكير والتأمل وهداه ذلك إلى الاعتقاد في قوى عديدة على أنها هي المحرك لشئون الحياة وأمور الكون وإيجاد المخلوقات ، ولم يوصله ذلك إلى معرفة الإله الخالق ،

ولكنه برهان على وجود ونمو عاطفة التدين وتبلورها في البحث المتواصل عن الإله الخالق ، ثم إن ذلك يوصل في نهاية المطاف إلى الدين الذي هو الاعتقاد النهائي في قوة ما لها القدرة على الفعل بكن فيكون .

❖ أما الفريق الثاني :

فقد وفر على نفسه عناء الخوض في تلك الرحلة ، فلم يجهد نفسه بالتفكير ، ولم يتجشم عناء التأمل ، وسلم بوجوده وعاش في الحياة كأحد موجوداتها ، يعيش ويموت وما يهلكه إلا الدهر ، واسلم كل أموره وشئونه للصدفة والطبيعة ، فزعم أنه وُجد بالصدفة ويفنى بالصدفة ! .

فكان إرسال الرسل من الإله الخالق لهداية البشر من الفريقين إلى معرفته والإيمان به سبحانه ، فآمن من آمن ، وظل على جهله وغيه من لمْ يهده الله سبل الرشاد من الفريقين ، وعرف الخلق طريق الله ، وأصبح الدين هو الإيمان بالله الواحد الأحد ، وعاطفة التدين هي حب الإله والتقرب إليه وطاعته بكل أنواع وأشكال القربات من الأقوال والأفعال والاعتقادات .

وقد بُعث في قدماء العرب أنبياء عديدون ، منهم من ورد خبره في القرآن الكريم وهم : هود وصالح وإبراهيم وإسماعيل ، ومنهم من لم يرد خبره في القرآن الكريم ، أما اليهودية والمسيحية فقد كان العرب على اتصال بهما بأشكال شتى سوف نوضحها بعد قليل ، في حين كان للحنيفية ديانة إبراهيم الخليل وجودها المتواصل في بلاد العرب وبالذات في إقليم الحجاز ، إلا أنه بعد إبراهيم وابنه إسماعيل لم يختص الله جل وعلا العرب برسل أو أنبياء – وذلك كما ورد في كتاب الله الجليل– قبل بعث عقيدة التوحيد التي حملها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وعليه فقد كان الوضع الديني للعرب بعد إبراهيم

وإسماعيل له معالمه وملامحه التي يمكن أن يُستدل من خلالها على بروز ظاهرة الدين وازدهارها ، ويستشف كذلك منها خصب عاطفة التدين وإيناعها . فالدين كان قائماً في بلاد العرب متجسداً في دين إبراهيم واليهودية والمسيحية في الجنوب ، والمسيحية في الشمال ، والوثنية في الوسط أو إقليم الحجاز ، أما عاطفة التدين فكانت كذلك ملازمة لحياة العربي ووجدانه وملموسة في تمسكه بأي ديانة من الديانات السماوية المذكورة ، وحتى في وثنيته التي تجسد بحثه المتواصل عن واسطة أو وسيلة تربطه بالإله الخالق ، ومن ثم يمكن القول بأن العرب قبل عقيدة التوحيد لم يكونوا أرضاً بائرة ستغرس فيها النبتة الجديدة بسهولة فتترعرع سريعاً ، ولكنها كانت عامرة بأفكار مسبقة ساعدت مرة في نشر العقيدة ، وعاقت أخرى انتشارها ، وهذا ما سوف نعكف على تفصيله في العنصر التالي .

ثانياً : أديان العرب قبل الإسلام :

إذا كنا قد أكدنا على عاطفة التدين التي كانت مصاحبة للعربي في حياته على اختلاف أنماطها الحضارية من البداوة وحتى الاستقرار والمدنية ، فينبغي أن ندعم ذلك التأكيد بالبحث في الأديان التي اعتنقها العرب ، وذلك من خلال الآتي :

❖ في الجنوب (اليمن) اليهودية ثم المسيحية :

دخلت اليهودية إلى اليمن في جنوب بلاد العرب في النصف الأول من القرن السادس الميلادي ، من خلال هجرات بشرية اتجهت من الشمال إلى الجنوب وقد حدثت هجرات أخرى عكسية للديانة اليهودية من الجنوب إلى الشمال . لتستقر في مناطق عديدة في إقليم الحجاز أشهرها في يثرب وواحة خيبر شمال المدينة بمائة كيلو متراً .

عقب ذلك بعدة عقود وفي نفس القرن السادس انتقلت المسيحية إلى اليمن عن طريق

إمبراطورية الأكسوميين في الحبشة وعن طريق بعض الهجرات الوافدة من الشمال من المستعمرات الرومانية في الشام ومصر وشمال إفريقيا .

ولم تقتصر الديانتان على حامليها من المهاجرين بل انتقلت إلى العرب من أهل البلاد الأصليين ، وتشير الوقائع التاريخية إلى أن اليهودية اتجهت نحو الشمال في هجرات عكسية – كما سبق القول – واستقرت في إقليم الحجاز ، وعشعشت اليهودية في اليمن والحجاز . أما المسيحية فلم يقدر لها أن تتجه شمالاً نحو الحجاز وبلاد العرب الشمالية واقتصرت على اليمن فقط وبالذات في نجران ، وسوف نلاحظ أن الحجاز قد استقبل الهجرات اليهودية من الجنوب (اليمن) وتلاقى معها ، في حين لم يتماس مع المسيحية إلا في شكل روايات وأخبار قادمة من العرب المسيحيين في الشمال من بلاد الغسانيين والأخميديين .

❖ في الشمال المسيحية هي الأساس :

وفي شمال بلاد العرب كانت المسيحية هي الأساس ، وكانت هذه الديانة منتشرة عن طريق الإمبراطورية الرومانية ومستعمراتها في الشام ومصر وشمال إفريقيا ، وكانت المسيحية تمتد إلى وسط بلاد العرب وبالذات في إقليم الحجاز ، ليس من خلال انتشارها كدين ولكن من خلال أخبارها وتعاليمها التي يتناقلها التجار والقوافل العابرة ، وما تقدم يعني في نهاية المطاف أن العرب كانوا على اتصال باليهودية والمسيحية ، وكان لذلك أثره في تشكيل الخلفية الدينية عند العرب ، ومن أهم مرتكزات تلك الخلفية القناعة بوجود الله خالق معبود يرسل الأنبياء والرسل والرسالات السماوية التي منها اليهودية والمسيحية ، وهذا سينعكس كذلك على ديانة العرب الوثنية ، حيث سيعتبرون الأصنام والأوثان وسائل تقربهم إلى الله زلفى كما كانوا على إطلاع على التوراة والإنجيل عن طريق اليهود

والنصارى الذين أبلغوا العرب الوثنيين الكثير من تعاليم زينك الكتابيين ، ومعلوم أنهم كانوا يستشيرون اليهود في معظم أمور العقيدة الجديدة وحتى رسولها العربي الكريم الذي جاء ذكره صريحاً وصفاته دقيقة في التوراة والإنجيل .

❖ في الحجاز : الوثنية والحنيفية والتلاقي مع اليهودية والتماس مع المسيحية :

وضع الأديان في الحجاز يحتاج إلى وقفة ، فقد كانت منطقة الحجاز ملتقى لكافة الأديان المتعارف عليها من وثنية وحنيفية ويهودية ومسيحية ، حتى أنها كانت على مقربة من ديانة عبادة النيران ، وكذا عبادة النجوم والكواكب والأشجار في جنوب بلاد العرب وشمالها ، وهذه تدخل كذلك ضمن الوثنية والتفصيل فيما يلي :

– الوثنية : هي ديانة عبدة الأصنام سواء كانت من حجر أو من نحاس أو من فضة وكذا المخلوقات مثل : النجوم والكواكب والأشجار والأنهار .. إلخ ، وقد عرف العرب عبادة الأصنام واعتنقوها ، ثم عرفوا كذلك عبادة النجوم والكواكب ، وكذا عبادة الأشجار والأنهار .

وربما كانت عبادة النجوم والكواكب أقدم العبادات في بلاد العرب ، حيث عُرفت بالأساس في الجنوب في مملكة سبأ ، وفي ذلك قال تعالى ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2] .

---

[1]. سورة النمل : ٢٤ .

[2]. سورة فصلت : ٣٧ .

كذلك وُجد في بلاد العرب من عبدوا الأشجار مثل قوم شعيب في منطقتهم التي تقع بين المدينة والشام ، وهم المعروفون بأصحاب الأيكة ، وفيهم قال الحق تبارك وتعالى ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾[1] ، وقال فيهم أيضاً ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2] ، وقال فيهم كذلك ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾[3] ، وقال فيهم ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[4] .

كذلك عبد العرب الأنهار والمجاري المائية ، وقد ورد في ذلك قول الحق تبارك وتعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾[5] ، وأصحب الرس هم جماعة أو أمة في بلاد العرب الوسطى عكفت على عبادة أحد المجاري المائية أو البئر وعُرفوا بأصحاب الرس .

أما عبادة الأصنام من الأحجار والمعادن فقد عُرفت منذ قوم إبراهيم عليه السلام إذ كان أبوه آذر صانعاً للتماثيل ، وبعد ذلك انتقلت عبادة الأصنام والتماثيل إلى منطقة الحجاز ، ووصلت حتى الجنوب في اليمن ، وكانت كل قبيلة تتخذ لها إلهاً ، فتفتتت هذه العبادة وتوزعت على القبائل ، وأطلق العرب على الأصنام التي عبدوها من دون الله أسماء كثيرة أشهرها : اللات والعزى ومناة وهبل ، وقد ذكرها القرآن الكريم في قول الله عز وجل ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾[6] .

وقد انعكست القبلية على عبادة الأصنام التي سادت عرب الحجاز قبل ظهور الإسلام ،

---

[1]. سورة الحجر : ٧٨ .

[2]. سورة الشعراء : ١٧٦ .

[3]. سورة ص : ١٣ .

[4]. سورة ق : ١٤ .

[5]. سورة ق : ١٢ .

[6]. سورة النجم : ١٩ و ٢٠ .

فكان لكل قبيلة إلاهها ، وكانت القبيلة تختار الإله الصنم الذي يتواءم مع سبقها وشرفها ونسبها في العرب ، وكان السادة والشرفاء هم الأكثر قرباً من الآلهة ، والقائمون على خدمتهم والوسطاء بينهم وبين الناس .

وقد اعتقد العرب أن هذه الآلهة الأصنام هي رموز لا تفعل أكثر من أن تقربهم إلى الله زلفى ، حيث يرون أن الإله الخالق يقبل شفاعة هؤلاء فيهم ! وفي ذلك قال تعالى ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[1] .

وقد كان العرب على علم بقدرة الإله الخالق ، وأنه سبحانه الذي خلق المخلوقات في الكون وأن قدرته مطلقة لا تقارن بها قدرة الآلهة التي يعبدونها قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] ، وهذا إنما يدل على تدين العرب ومعرفتهم بالله الواحد الأحد ، وهم يدّعون عن جهل وكذب بأن ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان إن هو إلا بمشيئة الرحمن ، فهو مفروض عليهم ومسموح به فلا جناح عليهم ، كما أن أمر عبادتهم للأصنام ليس إلا موروثاً منقولاً إليهم ، وهم له متّبعون ، قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[4] .

---

[1]. سورة الزمر : ٣ .

[2]. سورة الزخرف : ٩ .

[3]. سورة الزخرف : ٩ .

[4]. سورة الزمر : ٣٨ .

وقـــال تعـــالى ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾[1] .

– الحنيفية : من الثابت أن بلاد العرب هي بلاد الرسالات الإلهية ، وقد حكى القرآن الكريم أن جميع الرسل والأنبياء قد أُرسلوا إلى أقوام وقرون في بلاد العرب ، ومن ثم فإن اليهودية والمسيحية وقبلهما الحنيفية ملة إبراهيم الخليل عليه السلام قد نزلت جميعها في بلاد العرب ، وإلى جانب الرسالات الإلهية وُجدت الوثنية ، وقد سبق لنا الحديث عنها ، وكانت الحنيفية هي ديانة قلة من العرب الذين اتسموا بخصائص محددة ، من ضمنها الانحدار من سلالة أقوام على صلة وثيقة بهذه الديانة ، وكذلك امتلاك شخصية مفكرة متأملة ، وكان على رأس هذا الفريق من أصحاب الديانة الحنيفية أمية بن أبي الصلت ، وكانت الحنيفية على اتصال وثيق بملة إبراهيم الخليل ، وقد ضعفت تلك العلاقة إلى أن انتهت بالتمسك والثبات على مجموعة من المسائل والأحكام تمثلت في الآتي :

○ إنكار الوثنية واعتزال الأصنام : تمثلت أهم مرتكزات الحنيفية في التمسك بعبادة الإله الواحد الأحد ، ولعلها كانت الديانة الوحيدة التي حافظت على نقاء عقيدة التوحيد دون اليهودية التي أشركت مع الله عزيراً ، والمسيحية التي أشركت معه سبحانه المسيح ، كذلك كانت الحنيفية هي حلقة الوصل الوحيدة التي ربطت بين الإسلام في صفائه ونقائه كعقيدة توحيدية وبين ما جاء قبله من رسالات إلهية .

لقد أنكرت الحنيفية عبادة الأوثان ، وبعدت تماماً عن تأليه الأصنام ، ورأت في ذلك

[1] سورة الزخرف : ٢٠ ــ ٢٢ .

سفهاً فكرياً واختلالاً عقلياً لا ينبغي أن يكون ، كما دعت تعويلاً على ما تقدم إلى إنكار الأوثان كعبادة وشعيرة ومعتقد ، واعتزال أصحابها في التعامل والاختلاط والتفاعل ، فقد كان الحنيفيون يعتزلون الناس في خلوات تعبدية تأملية ، يمارسون فيها أنواع من النسك والشعائر بمثابة صلوات ودعوات وأذكار ، وكانت في ذلك أقرب إلى خلوات أحبار اليهود ورهبان المسيحية في الصلوات (جمع صالوت) والبيع .

وكان اتصال الحنيفية بالإسلام جد وثيقاً ، فبالإضافة إلى الاشتراك في مبدأ التوحيد كان هناك الاتفاق في كثير من العبادات والأحكام والحدود .

○ عبادة الحج : معلوم أن عبادة الحج أساسها والداعي إليها هو إبراهيم الخليل ، فهو الذي أعاد بناء البيت الحرام ومعه ابنه إسماعيل بعد أن كاد أن ينطمر ، وكان الفضل لهاجر ورضيعها إسماعيل في تفجير بئر زمزم المبارك ، ثم أمر الله سبحانه خليله إبراهيم بإعمار البيت ، ثم أمره أن يؤذن في الناس بالحج ، وتعهد سبحانه بإيصال صوته إلى كل فج وحدب ، إلى كل ذلك تعتبر باقي شعائر الحج حنيفية خالصة ، أداها إبراهيم الخليل أفعالاً على أرض الواقع ثم أصبحت نسكاً تعبدياً من بعده ، مثال : نحر الفداء أو الأضحية فداءاً لابنه إسماعيل ، ثم الرجم الرمزي لإبليس اللعين الذي قام به الخليل إبراهيم حقيقة واقعة ، إلى غير ذلك من الشعائر وانتقلت عبادة الحج من الحنيفية إلى الإسلام كما هي ، وأصبحت ركنه الخامس ، ومن ثم فالحنيفية والإسلام ينطلقان من عقيدة التوحيد ثم يرتكزان على مرتكزات متشابهة من ضمنها وفي أولها عبادة الحج .

○ الختان : كذلك اتصلت الحنيفية بالإسلام من خلال سمة مميزة في شخصية المؤمن بالديانتين ولصيقة بشخصيته وتكوينه العضوي ألا وهي خصلة الختان ، والختان يشمل كافة ذكران المسلمين ، وهو طهارة بالأساس ، بالإضافة إلى فوائده العظيمة صحياً ونفسياً .

كل ما تقدم من ديانات وملل انتشرت في بلاد العرب ، وكان لكل ملة موضعها ومعتنقوها الذين روّجوا لها وعملوا على بثها في تلك البلاد ، وبالرغم من أن بلاد العرب كانت مهبط هذه الرسالات والديانات السماوية إلا أن العرب لم يدينوا بها إلا اللمم ، بل كان معظمهم على الوثنية وقليلهم على الحنيفية .

ثالثاً : المكانة الدينية لمكة :

كانت مكة بؤرة الاهتمام الديني عند العرب ، وعصب حياتهم المعتقدية ، الوثنيين بالأساس وكذلك عند أصحاب الديانات والملل الأخرى ، فكيف حصلت مكة على هذه المكانة بالرغم من أنها لا تمثل تلك الملل والديانات تمثيلاً حقيقياً ، لقد وهب الله هذه البلدة من المقدرات والمؤهلات ما جعلها قبلة كل البشر على اختلاف معتقداتهم قبل أن تكون قبلة التوحيد على ملة الإسلام يمكننا البحث في أسباب حصول مكة على تلك المكانة من خلال ما يلي :

❖ المكانة التاريخية :

البحث في تاريخ نشأة مكة يتم وفق منهجين : المنهج الأول هو المنهج التاريخي البحت الذي يعتمد على الرواية التاريخية دون غيرها ، ووفق هذا المنهج يمتد تاريخ نشأة مكة إلى ما قبل إبراهيم أبو الأنبياء وزوجه هاجر وابنه إسماعيل ، حيث يتوغل ذلك المنهج في روايات متضاربة لرواه من مشارب فكرية شتى ، ربما تخلط ذلك التاريخ بالأساطير الخاضعة للموروث المتشبع بالذاتية والخصوصية ، وينصرف ذلك إلى الرواية اليهودية لتاريخ نشأة هذه المدينة العربية الإسلامية العريقة المكرمة ، المنهج الثاني هو المنهج الذي يعتمد على النص القرآني الذي يدعم الرواية التاريخية وينقي ويقوم ما بها من جنوح صوب الأسطورة والتخمين ، ووفق المنهج الثاني يمكن البحث في تاريخ نشأة مكة منذ أن

أسكن إبراهيم أبو الأنبياء زوجه هاجر ووليدها إسماعيل بالوادي القفر غير المزروع عند بيت الله المحرم ، وقد ورد ذلك في قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] ، والمتأمل لهذه الآيات الكريمات يمكن أن يستخلص أن مكة كان لها وجود عمراني قبل مجيء إبراهيم إليها ، وعندما حضر إليها كانت قائمة ، ويدل على ذلك اسم الإشارة للقريب " هذا البلد " ، فكأنها كانت عيناً كائنة ، إلا أنه يمكن الزعم بأن ذلك الوجود كان رمزياً في شكل معالم ومحددات فقط ، أما قول الخليل إبراهيم " هذا البلد " فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون ، أي إشارة إلى مستقبل مكة بلد الله الحرام ، وقد استجاب الحق تبارك وتعالى لدعوة خليله إبراهيم بأن جعل مكة بلداً حراماً آمناً ، فقال في موضع آخر ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾[2] وهنا اسم الإشارة إلى مكة وقت نزول الآية الكريمة ، أما قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم " ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم .. " الآية ، فالثابت أن البيت المحرم كان قائماً ، وقد أعاد الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل بناءه ، أما قول الحق تبارك وتعالى على منطقة مكة " بواد غير ذي زرع " فهي أنها كانت عبارة عن منطقة مقفرة لا يوجد بها الماء ، وأرضها صخرية مجدبة والذي يمكن استخلاصه بشكل نهائي أن البيت الحرام هو أساس وجود مكة المكرمة وأنها كانت قائمة قبل مجيء إبراهيم إليها ، ولكنها لم تكن عامرة بالشكل المعهود والذي أصبحت عليه بعد مجيئه .

[1]. سورة إبراهيم : ٣٥ ــ ٣٧ .

[2]. سورة التين : ٣ .

وعليه فتاريخ مكة قديم ويرتبط ببيت الله الحرام ، وقد اختلط ذلك التاريخ في تناغم بديع بوجود بيت الله الحرام والنسك التعبدية الشعائرية التي سنتناولها بعد قليل ، وكان لهذا التاريخ وقعه المؤثر في مكانة مكة بين حواضر إقليم الحجاز بل وبين حواضر العرب جميعاً .

❖ المكانة الخاصة بالنسب والعرق :

اجتمع في مكة بمكانتها التاريخية التي اختلطت بوضعها الديني القبائل ذات الأصول والأنساب العربية العريقة ، فالراجح أن أول القبائل العربية التي سكنت مكة هي قبيلة جرهم التي كانت في طريقها من الجنوب إلى الشمال ، وصادفت انبجاس بئر زمزم فقررت أن تستقر بالقرب من الماء الذي أشاع في المكان العمران ونشر فيه النماء ، ومنذ ذلك الحين ومكة موطن القبائل ذات النسب والعرق العربي الأصيل إلى أن انتهت بقريش التي ظلت تمثل رمز الأصالة العربية .

لقد حافظت مكة المكرمة على عراقة أصل القبائل العربية التي سكنتها ، ليس على مستوى إقليم الحجاز فقط ولكن على مستوى كافة بلاد العرب ، وسبب ذلك أن مكة لم يتطرق إليها أية هجرات من خارج بلاد العرب أو من الأمم المجاورة مثل الفرس والروم والحبش الذين يمكن أن يكونوا قد تسربوا إلى مناطق الشمال والجنوب من خلال الهجرات أو الغزوات ، فقد تعرضت مناطق الجنوب في اليمن لغزوات الحبش الذين اختلطوا بالأصل العربي فيها ثم عندما استعان عرب اليمن بالفرس ليخرجوا الحبش اختلط الفرس بعرب اليمن مرة أخرى وتزاوجوا معهم ، وكذلك تعرضت مناطق الشمال لغزوات الفرس والروم ، واختلطت أصول عرب الشمال بالأصول الفارسية والرومانية ، هذا في الوقت الذي احتفظ عرب الحجاز بأصولهم العربية الأصيلة التي لم تشبها شائبة الاختلاط بالعناصر الأخرى .

وهكذا أصبحت مدن الحجاز الثلاث وبالذات مكة موطن القبائل العربية العريقة الخالصة ، وأضحت مبعث العادات والتقاليد العربية الصريحة ، وصارت مرجع العرب في كل ما يتعلق بتاريخهم وموروثهم الحضاري والثقافي ، وبصفة خاصة أن إقليم الحجاز قد غلبت عليه خصائص وسمات نمط البداوة الحضاري .

❖ المكانة الثقافية والفكرية :

كانت المكانة التاريخية لمكة بالإضافة إلى مكانتها الخاصة بنسب وأصل أهلها ركيزتين أساسيتين لأن تتسنم موقعها الرائد والمتميز للثقافة العربية والفكر العربي الذي بلغ ذروته في منتصف القرن السادس الميلادي ، ولقد كانت هاتان المكانتان سبباً مباشراً في أن تحفظ مكة للثقافة العربية عراقتها وأصالتها من خلال الحفاظ على منابع وأصول تلك الثقافة خالصة من كل دخيل ونقية من كل شائبة ، ومن خلال تمثيلها وتجسيدها لتلك الثقافة خير تجسيد ، ويمكن زيادة إيضاح هاتين المهمتين فيما يلي :

- الحفاظ على منابع وأصول الثقافة العربية ، وذلك من خلال عدم السماح للثقافات الأخرى بالاختلاط بتلك الثقافة وتشويه نقائها ، وقد سبق توضيح ذلك وإذا كان قد قُدر لمكة القيام بهذا الدور ، فذلك لإنقاذ الثقافة العربية مما شابها من إفرازات وشوائب دخلت عليها في الشمال والجنوب من الثقافات الأخرى المجاورة مثل الساسانية والرومانية والحبشية وغيرها .

- تمثيل وتجسيد الثقافة العربية بنقائها ووضوحها وصراحتها حيث انتشرت في مكة التجمعات الثقافية والمنتديات الفكرية متمثلة في الأسواق الشهيرة : عكاظ وذي المجاز ، والتجمعات في مواسم الحج في بيت الله الحرام الذي كان يمثل ملتقى ثقافياً ، بالإضافة إلى ما يمثله من مغزى شعائري نسكي .

❖ المكانة الشعائرية والدينية :

يضاف إلى ما تقدم مكانة مكة الشعائرية والدينية ، وقد تمثلت تلك المكانة في ثلاثة أمور : الأمر الأول احتواؤها على المواضع والأماكن المقدسة المتجسدة في البيت الحرام والكعبة المشرفة والحجر الأسود وبئر زمزم والمواضع الأخرى في منى والمزدلفة ووادي عرفة ، الأمر الثاني أن شعائر الحج كنسك وعبادات تؤدى في رحابها ، الأمر الثالث أن الأمرين الأول والثاني جعلاها موضع احترام وتقديس العرب من كافة البلاد والبقاع .

رابعاً : ممارسة العرب لشعائرهم الدينية :

منذ أن استقر الخليل إبراهيم في مكة وأعاد بناء البيت الحرام هو وابنه إسماعيل والعرب تؤدي شعائر الحج ، وتعتبر هذه الشعائر أهم شعائرهم الدينية التي كانت تعتبر أهم عبادة للأصنام التي نصبوها في بيت الله الحرام إلى جوار الكعبة المشرفة ، ويمكن متابعة ممارسة العرب لشعائرهم الدينية من خلال الآتي :

❖ البيت الحرام مقر الأصنام :

نصب العرب أصنامهم الشهيرة في بيت الله الحرام حيث يحجون إليها سنوياً ليؤدوا لها شعائر العبادة والتقرب ، وكان أهم الأصنام اللات والعزى ومناة وبالإضافة إلى نسك الحج الذي يؤدى سنوياً كان العرب يقومون بزيارة تلك الأصنام للتبرك والتقرب .

❖ التقرب بالذبح :

من شعائر العرب كذلك لعبادة الأصنام تقديم القرابين في شكل ذبائح من جميع أنواع الأنعام ، وقد تناول الذكر الحكيم هذه الشعيرة في قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ

لِشُرَكَآيِٕهِمۡۖ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآيِٕهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾[1] .

❖ الشعائر التعبدية :

كان العرب قبل الإسلام يحجون البيت لعبادة الأصنام التي نصبوها فيه ودنسوه بها وكانوا يصلون للأصنام بطريقتهم الخاصة التي كان يغلب عليها طابعا الهزل والعبث وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى ليصف عبادتهم ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[2] .

❖ الملتقيات الثقافية والفكرية :

كانت مواسم الحج السنوية التي يقصد فيها العرب البيت الحرام لعبادة أصنامهم وتقديم القرابين لها بمثابة تجمعات وملتقيات ثقافية وفكرية يلتقي فيها الشعراء والأدباء والمفكرون في أماكن حددوها لذلك مثل عكاظ وذي المجاز ، فكانت مواسم الحج عبادة وإفرازات ثقافية في ذات الوقت ، يُلقى فيها الشعر والخطب والحِكم وغيرها من التعبيرات الثقافية والفكرية .

❖ الفوائد المادية والاقتصادية :

إلى ما سبق يضاف العنصر المادي والاقتصادي كغاية من غايات العبادة عند العرب والتجمع في البيت الحرام بمكة المكرمة ، فرحلة الحج إذن لم تكن للعبادة فقط بل كانت كذلك للتجارة والمنفعة المادية ، وقد جلب ذلك على مكة فوائد كثيرة رفعت من شأنها

---

[1]. سورة الأنعام : ١٣٦ .

[2]. سورة الأنفال : ٣٥ .

المادي وكذا من مكانتها عند العرب ، وفي هذا السياق كانت عمارة البيت وسقاية الحاج من الأعمال التي رفعت من الشأن المادي لقبائل مكة وبالذات قبيلة قريش ، وقد استمرت الفائدة المادية والاقتصادية مرتبطة بعبادة الحج حتى بعد مجيء الإسلام ، وقد أبرز ذلك الحق تبارك وتعالى في قوله جلّ وعلا ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1] .

❖ كانت الأمم الأخرى تحسد مكة على مكانتها الدينية :

كانت المكانة الدينية لمكة سبباً في حسد الأمم الأخرى وحقدها ، وكان الحبش هم أشد الأمم حنقاً وتبرماً على مكة وعلى مكانتها الدينية ، وقد حاول أبرهة الحبشي غزو مكة لهدم الكعبة وتحويل العرب إلى المعبد الذي بناه في صنعاء وسماه القليس ، فتذهب مكانة مكة الدينية والثقافية والاقتصادية وتنصرف إلى صنعاء ومعبدها . ولم يقدر لأبرهة النجاح في هذا المسعى ، حيث دافع الله عن البيت الحرام ورد أبرهة خائباً خاسراً وأباد جيشه في معجزة تاريخية إلهية زادت من مكانة مكة ومن تقديس العرب لها ولبيتها العظيم ، وفي ذلك نزلت سورة الفيل ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾[2] .

---

[1] سورة الحج : ٢٧ و ٢٨ .

[2] سورة الفيل .

❖ موقع الدين في المكون الثقافي عند العرب :

الدين بالوصف الذي أوضحنا في هذا المبحث كان يمثل عنصراً مهماً من عناصر المكون الثقافي عند العرب ، فكانت الإفرازات الثقافية تعكس الدين وظاهرة التدين ، فدين العرب ظهر في معظم أشعارهم وخطبهم وحكمهم وحتى في أمثالهم ، كذلك ميلهم نحو البحث عن الإله والتقرب إليه بالوسيلة التي هي الأصنام بدت في مخرجاتهم الثقافية ، كذلك اندمج الدين وظاهرة التدين مع بقية عناصر الثقافة العربية من عادات وتقاليد وأعراف .

المبحث السابع

الدور الإقليمي والعالمي لإقليم الحجاز

في منتصف القرن السادس الميلادي

من الأهمية بمكان ومن خلال هذه الإطلالة على وضعية العرب قبل الإسلام أن نتصدى لطبيعة الدور الإقليمي والعالمي لإقليم الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي ، وذلك لأن هذا الإقليم كان يتأهب لأن يحتضن عقيدة التوحيد وينطلق بها ومعها إلى آفاق الأرض مخترقاً النظم والتنظيمات السياسية والإدارية والثقافية والحضارية التي تحيط به متجسدة في شكل إمبراطوريات ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني ، كذلك فهذا الإقليم في هذه الفترة التاريخية وهي منتصف القرن السادس الميلادي كان قد وصل إلى ذروة نضجه السياسي والإداري والاقتصادي والحضاري والثقافي الذي سيستثمر بشكل أو بآخر في مساندة العقيدة المكافحة وما ارتبط بها من حضارة عظيمة .

إن الحديث عن الدور الإقليمي والعالمي لإقليم الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي يعني في ذات الوقت الحديث عن علاقات ذلك الإقليم بالتجمعات البشرية والإمبراطوريات المجاورة ، وقد كان لتلك العلاقات جوانب وأبعاد متعددة سياسية وإدارية واقتصادية وثقافية وحضارية ، وقد تفاوتت تلك الجوانب بين القوة والضعف وبين الوجود والعدم ، وسوف يتضح ذلك من خلال العناصر التالية :

أولاً : الموقع بالنسبة للعالم في منتصف القرن السادس الميلادي :

ماذا عن موقع إقليم الحجاز بالنسبة للعالم المحيط به ؟ ومن ثم كيف كان ذلك الموقع بعلاقاته المتشابكة المتداخلة دافعاً مهماً للانطلاقة الوثابة للعقيدة المكافحة وبصحبتها الحضارة العظيمة ؟ .

في العالم آن ذاك – في منتصف القرن السادس الميلادي – كان إقليم الحجاز يقع في وسطه ، وكل أحداثه قد لا تعنيه ، ولكنها تمر به أو على الأقل يرقبها عن كثب . ولنتأمل ذلك الموقع الفذ للإقليم الذي سيقدر له بعد أقل من نصف قرن أن يقود العالم إلى صروح التقدم ، والإنسانية إلى نور الإيمان ، ومن الأهمية بمكان تعيين حدود ذلك الموقع على النحو التالي :

❖ من الغرب :

كانت الإمبراطورية الرومانية التي ورثت الحضارة الإغريقية الهيلينية تمتد امتدادات عظيمة في جنوب أوربا وشمال إفريقيا وغرب آسيا المطل على المتوسط ، وكانت مصر التي تشاطئ البحر الأحمر من ساحله الغربي تمثل الحدود الغربية لإقليم الحجاز ، كما كانت السودان في جنوب مصر تكمل الحد الغربي لإقليم الحجاز ، وكان هذا الحد الغربي الذي يشغله مصر والسودان يتبع الإمبراطورية الرومانية ، بل إن مصر كانت تعد إحدى أهم مستعمرات تلك الإمبراطورية .

❖ من الشرق :

عندما نتحدث عن شرق إقليم الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي ، نجد أنفسنا نتحدث عن الشرق المباشر أو الملاصق لإقليم الحجاز ، وهي المنطقة الشرقية من شبه جزيرة العرب التي يحدها من الغرب الخليج الذي يفصلها عن بلاد فارس ثم يلي الخليج من ناحية الشرق بلاد فارس نفسها وهي الإمبراطورية الساسانية التي سيطرت على بلاد فارس الأصلية بالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين وبالذات القسم الشرقي منها ، وقد كانت الدولة الفارسية في تلك الفترة في أوج قوتها وعظمتها ، حيث كان نجم حضارة الهند قد أوشك على الأفول ، كما كانت الإمبراطورية الرومانية تعاني من متاعب كثيرة في مستعمراتها وحتى في مركزها الرئيسي .

❖ من الجنوب :

في جنوب إقليم الحجاز كانت هناك بلاد اليمن ، وهي تمثل الشق الجنوبي من بلاد العرب ذات المراكز الحضرية المستقرة ، وفي الجنوب الغربي لبلاد اليمن كانت تقع مملكة الأكسوميين عربية الأصل والتي آلت بالتدريج إلى الحبش وكونت إمبراطورية الحبشة ذات الصلات القوية سياسياً وإدارياً وتجارياً مع بلاد اليمن وإقليم الحجاز والحليف الدائم للإمبراطورية الرومانية والعدو اللدود سياسياً ودينياً للإمبراطورية الساسانية .

❖ من الشمال :

أما في شمال إقليم الحجاز ، فكان الوضع يماثل ما كان عليه الحال في الجنوب ، ففي شمال إقليم الحجاز مباشرة كان هناك عرب الشمال في ثلاثة ممالك : مملكة الأخميديين القريبة من فارس والموالية لهم ، ومملكة الغسانيين المجاورة للرومان والموالية لهم ، ثم مملكة كندة التي بادت ولم يعرف عنها إلا القليل ، وكان وراء تلك الممالك تقع بلاد فارس والروم .

إن معنى ما تقدم أن إقليم الحجاز كان يحاط بإطارين : الأول هو الإطار المباشر وهو إطار عربي في الشمال والشرق والجنوب ، والثاني هو الإطار غير المباشر ، وهو إطار غير عربي يتكون من ثلاثة إمبراطوريات شهيرة كانت تتحكم في حركة العالم في ذلك الوقت وهي الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الحبشية ، وعليه فقد كان إقليم الحجاز يقع في قلب العالم النشيط ، بل وفي قلب القوى المتحكمة في ذلك العالم والمسيرة لحركته .

ثانياً : وضعية مكة والحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي :

ذكرنا أن مكة والحجاز قد اجتمعت لديهما مقدرات متنوعة تاريخية وثقافية واجتماعية ،

وبالرغم من أن هذه المقدرات كانت ذات طبيعة ذاتية داخلية إلا أنها أفرزت نتاج ذات أهمية على المستويين الإقليمي والعالمي ، وسوف تبرز تلك النتائج بعد قليل وتكون بمثابة دافع قوي على المستويين المعتقدي والحضاري ، والسؤال المهم الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو كيف فرضت مكة ومعها إقليم الحجاز نفسها على العالم في ذلك الوقت وسط أولئك العمالقة : الساسانيين والرومان والأحباش ! لقد قُدر لمكة تحديداً أن تتبوأ مكاناً علياً في عالم منتصف القرن السادس الميلادي الصاخب والمشحون بالصراعات والمساومات السياسية والاقتصادية بين أقطابه من خلال سلوك مسلكين غاية في الإبداع جاءا على النحو التالي :

❖ براعة التحايل على شحة العطاء :

أوردنا أن مكة وإقليم الحجاز كانا يعانيان من شحة عطاء الطبيعة وقسوة الظروف البيئية ، وقد قاد هذان العاملان إلى الفقر المادي ، إلا أن أهل هذه البلاد لم يستسلموا لهذه الظروف بالرغم من أنها تدخل في عداد المعطيات الطبيعية الحتمية التي يصعب على البشر الفكاك منها ومن آثارها ، فكان بروع أهل مكة في التجارة والاتصال بالجيران وراءه الكثير من العوامل :

– إفراغ كافة الطاقات الإبداعية في مجال التجارة : لم يكن أمام أهل مكة من بد إلا إفراغ كافة الطاقات الإبداعية في مجال التجارة ، حيث كانت هي المجال الوحيد الذي لم يشغلهم غيره ، ولم تساعدهم ظروفهم الطبيعية والبيئية على البروع إلا فيه فالنشاطات الاقتصادية الأخرى مثل الرعي والزراعة لم تنل حظاً وافراً من المؤهلات البيئية والمقدرات الطبيعية ، فالتربة والمياه لم تكونا مواتيتين لقيام نشاط زراعي ورعوي يستأثر بالقسط الأوفر من نشاط سكان مكة ، ومن ثم كان من الطبيعي بل والحتمي أن يتجه السكان إلى

نشاط آخر لا يعتمد على هذين العاملين غير المتوفرين وكان نشاط التجارة هو النشاط الأنسب لأنه يحتاج إلى الموهبة والخبرة ورأس المال المحدود الذي يمكن أن ينمو مع الوقت ، وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى بروع أهل مكة في التجارة في كتابه العزيز عندما قال ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ (١) إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ (٣) ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ (٤)﴾[1] .

لقد علم الله سبحانه وتعالى مدى أهمية التجارة لأهل مكة ، وأن رزقهم متوقف عليها ، ومن ثم فقد يسر لهم سبل هذه التجارة عن طريقين : الأول بأن روجها لهم وسهل سبلها ، والثاني بأن أمّن لهم طرق هذه القوافل وقطع دابر أبرهة وجيشه الذي كان يهدد تجارة العرب المكيين إلى اليمن .

– تحقيق مكاسب مادية لتأمين شؤون الحياة : لقد كانت التجارة بالنسبة لأهل مكة وسيلة لاكتساب الرزق لتأمين متطلبات الحياة ، ليس للسادة الكبار أصحاب رؤوس الأموال فقط ، ولكن بالنسبة لبقية أفراد الطبقات الأخرى كذلك ، فهي مصدر رزقهم وشغلهم الشاغل في الحياة ، فالتجارة تمثل بالنسبة للجميع حيلة من أجل طلب الرزق في ظل ظروف صعبة وبيئة غير مواتية ، ثم بالإضافة إلى ذلك تمثل للأكابر وسيلة لإثبات الذات وإفراغ طاقات الإبداع وملكات العطاء ، وأعلام العرب المكيون القرشيون معروفون في هذا المجال ثم هي تمثل للفقراء والعبيد مصدر رزق ووظيفة اجتماعية لابد منها ، حتى يعيشوا ويجدوا لهم مكاناً في المجتمع .

– استثمار الخبرات التاريخية المتوارثة : منذ عصور تاريخية غابرة وأهل مكة قد برعوا في التجارة بوصفها المهنة والوسيلة المتاحة لجلب الرزق وتوفير مقومات الحياة المادية ، ومع

[1] سورة قريش .

الوقت أصبحت التجارة خبرة وحرفة يتوارثها الأجيال ، ويبرعون فيها بالتوارث كابراً عن كابر ، ثم تحولت التجارة في مكة وبالنسبة لأهلها إلى تعبير من تعبيرات الجاه والشرف ووسيلة من وسائل استثمار الثروة ، لقد ورث عرب مكة إذن سمة البروع في التجارة جيل بعد جيل فهي خبرة متوارثة .

– الرغبة في البحث عن دور في العالم إقليمياً وعالمياً : كذلك كانت التجارة لدى أهل مكة بمثابة رغبة في البحث عن دور لهم ولبلدهم في العالم ، وتوطيد لعلاقتهم بذلك العالم على مستوييه الإقليمي والعالمي ، وسوف نوضح ذلك بعد قليل ، ولقد ارتبطت تلك الرغبة بالظروف المواتية آن ذاك ، والتي تمثلت في قيام مكة بدورها كحلقة وصل بين مناطق مختلفة من العالم العامر بالحركة والنشاط .

❖ مهارة استثمار الموقع :

بالإضافة إلى براعة التحايل على شحة العطاء التي اتسم بها أهل مكة ، ومارسوا من خلالها التجارة التي وصلتهم بالعالم الخارجي ، كان هناك مهارة استثمار موقع مكة بين الشمال والجنوب ، تلك المهارة التي جعلت أهلها يوزعون رحلاتهم وصلاتهم التجارية بين الجنوب الذي يقصدونه في الصيف ، والشمال الذي يتوجهون إليه في الشتاء ، ولقد كانت مكة بالفعل في ملتقى طرق القوافل ، ولم تكن تقتصر على التجارة مع الجنوب والشمال ، بل كان الأساس هو قيامها بتوصيل تجارة الجنوب إلى الشمال والعكس ، وهذه مهارة فريدة في استثمار الموقع والظروف معاً ، فلقد وفرت مكة على عرب الشمال وعرب الجنوب وكذا إمبراطوريتي الفرس والروم التواصل المباشر مع بعضهم ، وقامت عنهم بذلك ، فأوصلت تجارة الشمال إلى الجنوب وتجارة الجنوب إلى الشمال ، وكذلك كان الحال مع الأعاجم .

ثالثاً : الدور الإقليمي لمكة وإقليم الحجاز في منتصف القرن السادس الميلادي :

على مستوى بلاد العرب كان لإقليم الحجاز ومدينة مكة موقعه المتميز ومكانته المتقدمة بالرغم مما حباه الله من معطيات متواضعة ومقدرات محدودة ، وقد سبق لنا الحديث عن مكانة مكة وإقليم الحجاز في بلاد العرب ، وفي هذا الموضع ننصرف إلى تفصيل علاقات مكة وإقليم الحجاز ببلاد العرب في الشمال والجنوب والشرق ، وذلك من خلال ما يلي :

❖ علاقة مكة بالبدو الرحل من عرب شبه الجزيرة :

كانت مكة تعد حاضرة إقليم الحجاز وأهم مدنه الثلاث : الطائف ويثرب ، وبالنسبة إلى البدو الرحل الذين يحيطون بها ، فهي المركز الحضري والإداري ، وهي كذلك المركز الاقتصادي والمادي الذي يقصده أولئك البدو من أجل قضاء حوائجهم بالمقايضة أو بالنقود ، ومن ثم فقد كانت العلاقات وطيدة ومباشرة بين مكة والبدو الرحل الذين يحيطون بها ويلتفون حولها .

وكما كانت مكة مصدر المدد الاقتصادي والمادي للبدو الرحل الذين يحيطون بها ، فقد كانت كذلك مصدر التفاعل الثقافي والفكري ، فالأفكار الجديدة والأحداث والفعاليات الثقافية تخرج من مكة إلى أولئك البدو الرحل فتنتشر بينهم ، ربما قبل أن تنتقل إلى مدن إقليم الحجاز الأخرى : الطائف ويثرب ، ومن هنا يُفهم أن مكة كانت مصدر الإشعاع الثقافي والفكري للبدو الرحل الذين يحيطون بها وينتشرون في إقليم الحجاز .

❖ علاقة مكة بمدينتي الحجاز : الطائف ويثرب :

تعويلاً على مكانة مكة التي سبق وتناولنا جوانبها المختلفة كانت هي المدينة القائد التي تمثل المركز الاقتصادي والتجاري الزاهر ، وكذلك امتدت أواصر العلاقات والارتباطات الاجتماعية من خلال امتدادات القبائل عبر المدن الثلاث ، فكانت القبيلة الواحدة تتوزع

بطونها على الطائف ويثرب انبعاثاً من مكة ، وعلى المستوى الفكري والثقافي كانت مكة تمثل مركز الإشعاع الفكري والثقافي للمدينتين الأخريين اللتين اعتادتا استقبال جديد الأفكار من مكة ، وكذلك المشاركة في التفاعلات الثقافية التي تحتضنها مكة سنوياً في موسم الحج ، وهكذا كانت مكة حاضرة الحجاز الزاهرة .

❖ علاقة مكة بممالك الشمال : كندة والأخميديين والغسانيين :

كانت علاقات مكة بممالك الشمال المشهورة في كندة والأخميديين والغسانيين محدودة ومحكومة بمجموعة من العوامل والظروف اختلفت من فترة تاريخية إلى أخرى ، ولعل علاقة مكة بمملكة كندة كانت أقوى من علاقاتها بالأخميديين والغسانيين ، في حين كانت علاقة مكة بالغسانيين أقل تلك العلاقات قوة وثباتاً .

لقد كانت الأواصر الاجتماعية والعرقية بين عرب مكة بعرب ممالك الشمال ليست بالقوة التي يمكن أن تخلق نوعاً من التلاحم والتكتل العرقي والاجتماعي ، فأصول قبائل مكة لم تكن تلتقي مع أصول قبائل الشمال في المنبع الواحد ، إلا أن عرب مكة كانوا أقرب إلى عرب مملكة كندة عن عرب مملكة الأخميديين والغسانيين ، في حين كانوا أقرب من عرب الأخميديين عن عرب الغسانيين الذين كانوا على صلة وثيقة بالرومان واختلطت أصولهم بهم .

يرتبط بمسالة الأصل والعنصر والعرق التي تربط بين عرب مكة وعرب الشمال النظرة الدونية التي كان ينظر بها عرب الشمال إلى عرب مكة والحجاز على اعتبار أنهم أقل تقدماً حضارياً وإدارياً واجتماعياً وحتى ثقافياً وفكرياً ، وربما كانت هذه الفكرة سائدة لدى الأخميديين والغسانيين انطلاقاً من علاقتهم الوطيدة بالإمبراطوريتين العظيمتين في فارس والروم ، حيث تأثروا بهؤلاء في حياتهم وأفكارهم .

أما العلاقات الاقتصادية والتجارية فكانت جيدة ، حيث اعتاد عرب مكة تنظيم رحلة سنوية للتجارة مع عرب الشمال بجميع ممالكهم ، وكانت تلك العلاقات هي الأكثر ازدهاراً وإيناعاً ، حيث استفاد منها الطرفان وكانت علاقات مادية بحتة لم تتأثر بعوامل العرق والأصل أو بمسألة الانتماء .

وبالنسبة للعلاقات الفكرية والثقافية فكانت هي الأخرى محدودة ، وتمت عن طريقين : الأول من خلال الاختلاط عبر مواسم الحج بالنسبة للعرب الوثنيين الذين يقصدون مكة لأداء الشعائر ، والثاني من خلال تعاليم وأفكار الديانتين اليهودية والمسيحية التي يعتنقهما معظم عرب الشمال ، وكانت تلك التعاليم تنتشر وتنتقل بين عرب الشمال وعرب مكة من خلال حركة التجارة والقوافل ، وكان تأثير تلك العلاقات محدوداً .

❖ علاقة مكة بعرب الجنوب :

أما عن علاقة مكة بعرب الجنوب فكانت هي الأكثر قوة وثباتاً ، وترجع أهم أسباب ذلك إلى الأصول الواحدة التي تجمع بين عرب مكة وعرب الجنوب ، تلك العلاقة التي خلقت نوعاً من التماثل في الشعور والانتماء ، فلم يشعر أي من الطرفين بأي تمايز أو اختلاف أو تفاضل ، يقوي مما تقدم الهجرات التي تمت من الجنوب إلى الشمال والتي عززت الاختلاط ودعمت الانتماء إلى الأصل الواحد ، فقد هاجرت قبائل الجنوب لتستقر في مدن الحجاز الثلاث : الطائف ومكة ويثرب ولم تنس تلك القبائل أبداً انتمائها إلى موطنها الأصلي .

كذلك كانت العلاقات الاقتصادية والتجارية قوية ، فعلى غرار رحلة الشمال نظم عرب مكة رحلة الجنوب التي عززت العلاقات الاقتصادية والتجارية ، وكذا الاجتماعية مع عرب الجنوب ، وقد كان التناغم الحضاري والسياسي والإداري واضحاً بين عرب مكة

وعرب الجنوب لدرجة اعتبار الحجاز واليمن إقليماً واحداً سياسياً وإدارياً وعرقياً واقتصادياً مع احتفاظ كل منهما بتميزه الدقيق داخل هذا التكامل الأشمل .

ثم انسحبت العلاقات الوطيدة اقتصادياً واجتماعياً على العلاقات الثقافية والفكرية بين عرب مكة وعرب الجنوب ، فكانت الأخيرة على قدر من القوة والثبات يعتد به حيث كانت مساهمات عرب الجنوب في الفعاليات الثقافية والفكرية في مكة فعالة ومؤثرة وساهمت في خلق مكون ثقافي واحد أو متطابق إلى مدى بعيد بين الطرفين .

رابعاً : الدور العالمي لمكة وإقليم الحجاز :

والآن نتجاوز النطاق الإقليمي لنخرج خارج بلاد العرب ، لنقف على علاقة مكة بالأمم المجاورة لبلاد العرب ، وأهم تلك الأمم كانت الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الحبشية ، وذلك من خلال ما يلي :

❖ العلاقة بين مكة والإمبراطورية الساسانية :

لم تكن علاقة مكة بالإمبراطورية الساسانية علاقة مباشرة ، بل كانت علاقة في إطار التفاعلات القومية بين العرب والفرس ، فلم يُستدل على قيام علاقة على المستوى السياسي بين ملوك الفرس وشيوخ القبائل في مكة ، أما الثابت تاريخاً فهو قيام علاقة قوية بين عرب الجنوب في اليمن وبين حكام الفرس ، وأساس هذه العلاقة هو قيام الفرس بطرد الحبش الذين غزوا اليمن وسيطروا عليه ، وأعقب ذلك اختلاط واسع النطاق بين قواد الفرس وعرب اليمن ، انتهى بزواج الكثير من أولئك القواد بنساء عربيات ، وعلى أثر ذلك قامت علاقات متشابكة اقتصادية وتجارية وثقافية بين الطرفين ، حيث ذهب الكثير من الطلاب العرب إلى الجامعات الفارسية لا سيما في جندي سابور ، وعليه توطدت علاقات العرب في الجنوب بالفرس ، في حين ظلت علاقات عرب الحجاز بهم محدودة .

ومع ذلك ظلت مكة حلقة وصل تجارية واقتصادية مهمة بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الحبشية وكذا مستعمرات الإمبراطورية الرومانية في سوريا ومصر ، وفي هذا السياق لا ينبغي أن نغفل النظرة المتعالية التي كان ينظر بها الفرس إلى عرب الحجاز ، حيث كانوا يعتبرونهم بدواً رحلاً متخلفين ، وكانوا يتجاهلون أو ربما يجهلون وجودهم كجيران ذوي ثقل سياسي .

❖ العلاقة بين مكة والإمبراطورية الرومانية :

كانت اتصالات مكة التجارية والاقتصادية بالمستعمرات الرومانية في مصر والشام واضحة وكثيفة إلى حد ما ، أما علاقات مكة بمركز الإمبراطورية الروماني فلم يكن لها وجود تقريباً ، وذلك بسبب الفارق الحضاري والسياسي والإداري الشاسع بين إمبراطورية تقتسم زعامة العالم وبين مدينة ذات ثقل حضاري واقتصادي متواضع ، إلا أن الثابت من خلال الوثائق والأحداث التاريخية أن علاقات مكة بالروم لم يكن يسودها أو يغلفها التعالي أو العجرفة التي كان يتعامل بها الفرس مع عرب مكة ، وقد وضح ذلك جلياً في تعاطف العرب جميعاً وعرب مكة بشكل خاص مع الروم في صراعهم مع الفرس ، كذلك من الأحداث ذات الدلالة في هذا السياق استدعاء هرقل كبير الروم لأبي سفيان ليسأله عن الرسول الكريم وعن دعوته التي يدعوا إليها ، عندما وصلته رسالة الرسول التي يدعوه فيها للإسلام ، فقد سال عن الرسول الكريم في تواضع وتوقير ، ومن خلال أسئلته واستفساراته استشف أن دعوته يغلفها المنطق ويسودها الرشد ، فهو من أهل الكتاب ويؤمن بالله ، وعلى النقيض من ذلك ننظر إلى رد فعل إمبراطور الفرس عندما وصلته الرسالة نفسها ، فقد تعامل مع الرسالة والرسول الذي يحملها بفظاظة وصلف واحتقر ما جاء فيها ومزقها ، فصدقت عليه دعوة الرسول الكريم ومزق الله ملكه وشتت شمله وفتح العرب بلاد فارس قبل أي بلدان أخرى .

❖ العلاقة بين مكة والإمبراطورية الحبشية :

لقد كانت علاقات الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الحبشية علاقات تحالف سياسي وأيديولوجي وعقيدي ، فكلاهما يلتقيان حول المسيحية كمعتقد والصراع المشترك مع الإمبراطورية الساسانية ، ومن ثم كانت علاقة مكة بالإمبراطورية الحبشية علاقة وطيدة اقتصادياً وتجارياً ، حيث كانت تجارة الحبشة تنتقل إلى سوريا وعرب الشمال وحتى إلى الإمبراطورية الفارسية ذاتها عبر مكة ، كذلك كان ثمة تحاور ثقافي ومعتقدي بين إمبراطور الحبشة وعرب مكة ، وقد ظهر ذلك التناغم جلياً في بداية البعثة عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة في الهجرة الأولى والثانية ، حيث تعقب القرشيون المسلمين المهاجرين ، واستثمروا علاقاتهم بالنجاشي إمبراطور الحبشة من أجل طرد المهاجرين والكيد لهم ، ولكنه لم يستجب لأهل مكة تقديراً للدين الجديد واقتناعاً منه بصدق ما جاء به .

من خلال هذه الإطلالة أمكننا أن نقف على الظروف الطبيعية والمعطيات البيئية التي التصقت ببلاد العرب ولازمتها ، وحتمت عليها حالة مادية معينة أساسها الفقر وضيق ذات اليد ، واستطعنا كذلك أن نعاين الوضعية الحضارية لبلاد العرب في ذاتها وقياساً بالأمم التي جاورتهم ، وقُدر لنا أن نعايش البيئة الثقافية والفكرية في بلاد العرب ونرى كيف تكونت الثقافة العربية من جماع المعارف الملتقطة والمكون الذاتي ، وتمكنا من معاينة الظروف الاجتماعية التي عاشتها المجتمعات العربية بأنماطها الحضارية المختلفة ، واستطعنا في ذات الوقت تلمس الحياة الدينية المعتقدية بتداخلاتها وتشابكاتها ، وأمكننا أخيراً أن نحلل علاقات مكة بمحيطيها الإقليمي والعالمي ، وهكذا وقفنا على كافة أبعاد وجوانب البيئة التي انبعثت فيها ثم انطلقت منها عقيدة التوحيد المكافحة وحضارة الإسلام العظيمة .

إن عقيدة الإسلام وحضارته نشأتا وترعرعا في هذه البيئة بالرغم من كل صعابها وتناقضاتها ، وتعد هذه أول أشكال وتعبيرات الكفاحية التي تجلت في عقيدة الإسلام ونقلتها إلي الحضارة التي حملت اسمها فيما بعد وإلي الأبد ، إن البيئة لم تمثل عائقاً لانطلاق العقيدة والحضارة ، بل ربما كانت دافعاً لإبراز خاصية الكفاحية في العقيدة والحضارة المرتبطتين ببعضهما .

الفصل الثاني

الظروف والتكوينات النفسية للرواد الأوائل

(المخاطبين بالعقيدة)

فيما مضى فرغنا من تناول البيئة التي استقبلت عقيدة التوحيد ، والآن وفي هذا الفصل نلتقي مع الفواعل الذين خوطبوا بالدعوة واستقبلوها ، وتحولوا بعد ذلك إلى حاملين لها والداعين إليها في كافة أقطار الأرض .

ينبئنا التاريخ ويشهد على ذلك ويقره كتاب الله العزيز بأن كل رسالة من رسالات الله عز وجل إلى بني البشر كانت تقابل بردود أفعال متباينة من المخاطبين بها ، فمن الناس من يقبل بهذه الدعوة ويعتنقها ، ومنهم من يرفضها وينبري لمحاربتها والتصدي لها ، ومنهم من لا يعيرها اهتماماً يذكر وعلى غرار ذلك جاءت عقيدة التوحيد ، جاءت لتخاطب أخلاطاً من البشر متبايني الأقدار الاجتماعية ، وكذلك الأفكار والتوجهات .

لقد توزع المتلقون الأوائل للعقيدة الإنسانية العالمية المكافحة على نوعين من الناس كانوا يقطنون مكة حاضرة الحجاز : النوع الأول ، هم السادة الذين ينحدرون من أصول عربية تتسم بالشرف والعراقة ، ويملكون معظم إن لم يكن كل الثروة في تلك المدينة المهمة ويسوسون أمورها ويخططون شئونها ، والنوع الثاني ، هم العبيد الصغار متواضعو الأقدار ، لا يملكون من ثورة المدينة إلا الفتات ، أمورهم وأقدارهم بأيدي السادة الكبار ، لهم أهمية قصوى في حركة الإنتاج واستخراج الثروة من مصادرها ، ولكنهم لا يتجاوزون مقدار العبيد المملوكين .

لقد كان لكل فصيل من هذين الفصيلين من البشر ظروفه الخاصة به التي تنبعث من أصوله وترتبط بوضعه ومركزه الاجتماعي ودوره وتفاعلاته في المجتمع ، وقد أفرزت تلك الظروف تكوينات نفسية لدى كل من الفصيلين جعلته ينظر إلى عقيدة التوحيد حال نزولها نظرة خاصة به ، تعكس تلك الظروف ، وتُعرب في ذات الوقت عن رغباته وأهدافه وتطلعاته التي يطمح فيها من وراء العقيدة الجديدة .

كيف استقبل كل فصيل من هذين الفصيلين العقيدة الجديدة ؟ وكيف تفاعل معها ؟ وكيف بذل في سبيلها ما في وسعه ؟ وكيف تحول الفصيلان إلى عدة وعتاد للعقيدة الجديدة ؟ على أيديهم انتشرت ، وحملوا معهم حضارة عظيمة ورسّخوها في ربوع دولة الإسلام ، وهكذا كان الرواد الأوائل ناشري العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة وكانوا في ذات الوقت بناة حضارة الإسلام ، كافة هذه التساؤلات نجيب عليها من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : العبيد الصغار : السباقون إلى اعتناق العقيدة .

المبحث الثاني : السادة الكبار : القوة المحتملة لدعم العقيدة .

المبحث الأول

العبيد الصغار : السباقون إلى اعتناق العقيدة

هل هذا هو شأن الله في خلقه ؟! هل هذا هو ناموس الكون وقانون الحياة الذي أقره الحق تبارك وتعالى وجعله شريعة للحياة ؟! أن يكون الصغار متواضعو الأقدار هم السباقون دوماً إلى اعتناق رسالات الإله الخالق العظيم لقد حدث هذا أيضاً مع عقيدة الإسلام فقد سبق إلى اعتناقها العبيــد الصغار ، ما هي أسباب هذا السبق إلى اعتناق العقيدة الجديـدة ؟ ومـاذا يضيف هؤلاء البسطاء إلى عقيدة تحتاج إلى العون والدعم المادي والمعنوي كي تنتشر وتترسخ أركانها ؟ وضعية هؤلاء الضعفاء المستضعفين ودورهم في نـشر عقيـدة الإسـلام وحـضارته في حاجة إلى بحث وتحليل عميقين ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : الظروف والأوضاع الخاصة بالعبيد الصغار :

الحديث عن ظروف وأوضاع العبيد الصغار يستوجب التعرض لجوانـب حيـاتهم وأبعادهـا المختلفة ، ففي ذلك يمكن البحث عن أسباب اعتناقهم للعقيدة الجديـدة ، ويمكـن كـذلك تقدير ما أضافوه إلى تلك العقيدة ، وذلك فيما يلي :

❖ الأصول والأعراق :

تباينت أصول وأعراق العبيد الذين اعتنقوا عقيدة التوحيد منذ انبعاثهـا ، ولكـن الملاحظـة الجديرة بالتأمل أن في هـذه الـشرذمة تمثلـت كافـة الأمـم المجـاورة للعـرب ، إضـافة إلى الأصول العربية ، ويتضح ذلك من العرض التالي :

– الأصول العربية : من زمرة المستضعفين الأوَل برزت الأصول العربية في حـالتين : الأولى في الأصول العريقة التي تمثلت في الشباب حديثي الـسن الـذين فـروا مـن بيـوتهم العريقـة

وتركوا العز والشرف والتمسوهما في عقيدة التوحيد ، والحالة الثانية في الأصول العربية كذلك التي تجسدت في الشباب الموالي أو العبيد الذين كانوا يعملون في خدمة السادة الكبار .

– الأصول غير العربية : كما ذكرنا ، تمثلت في زمرة العبيد السباقين إلى الإسلام أصول كافة الأمم المحيطة بالعرب ، فقد مثّل العنصر الفارسي سلمان ، ومثّل العنصر الرومي صهيب ، ومثّل بلال العنصر الحبشي ، وقد كان هؤلاء رواداً ودعاه للإسلام ولحضارته بشكل يثير الانتباه ، وفي ذلك دلالة بليغة على أن الدعوة بدأت عالمية إنسانية مثلت كافة أمم الأرض المعروفة في ذلك الوقت ، ولم تكن حكراً على العنصر العربي بالرغم من أنها نزلت في أصحابه وبلسانه !! .

❖ الأوضاع الاجتماعية :

الأوضاع الاجتماعية لأفراد عصابة المستضعفين الأوّل محكومة بأصول ، وكذا كافة شئونهم ونواحي حياتهم ، فقد حتمت عليهم أصولهم التي انحدروا منها أن يعيشوا في قاع المجتمع ويعكفوا على خدمة السادة الكبار ، وكان هؤلاء ضمن طبقة العبيد الفقراء ، ولم يكن لهم وزن اجتماعي يذكر ، وقد كانت أوضاعهم الاجتماعية بالوصف المتقدم تمثل عائقاً يعوق اعتناقهم للعقيدة الجديدة ، فهم مملوكون لأسيادهم ولا يحق لهم أن يتصرفوا إلا بأمرهم ولا يحق لهم أيضاً أن يفكروا إلا برغبتهم .

❖ الأوضاع الاقتصادية والمادية :

كذلك كانت الأوضاع الاقتصادية والمادية تابعة للأوضاع الاجتماعية وللأصول والأعراق التي ينحدر منها أفراد عصابة المستضعفين ، فكانوا لا يملكون أي قسط من ثروة المجتمع ، وكان الفقر المدقع هو سمتهم المميزة ، وذلك بالرغم من أنهم يمثلون القوة المنتجة الوحيدة

في المجتمع ، والتي يعيش على عملها وكفاحها طبقة السادة الكبار ، وكان ضيق ذات اليد بالنسبة لهؤلاء المستضعفين عائقاً أمامهم صعّب عليهم المواءمة بين متطلبات سادتهم ورغبتهم في اعتناق الدين الجديد ، فكان هؤلاء يعجزون عن مكاتبة سادتهم لنيل حريتهم .

❖ الأفكار والمعتقدات :

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن الأفكار والمعتقدات التي كانت سائدة بين المستضعفين أفراد عصابة السباقين إلى الإسلام ، لأمكننا من خلال تحليل معظم حالات أفراد تلك العصابة التوصل إلى حقيقة مؤداها أن أولئك الأفراد كانوا يتمتعون برجاحة عقل ورشد تفكير يفوق أحلام سادتهم ، وأن تلك الرجاحة وذلك الرشد كانا وراء اهتدائهم إلى قوامة الدين الجديد وسلامة عقيدة التوحيد .

لقد كان هؤلاء العبيد الصغار المستضعفون يسخرون من عبادة الأوثان ومن سفه سادتهم واعتلال عقولهم ، ويعجبون من مكابرتهم ويستنكرون إعراضهم عن الحق بالرغم من وضوحه ، ومن ثم فقد اعتنق هؤلاء العبيد العقيدة الجديدة عن قناعة ورسوخ وثبات جعلت من الصعب على سادتهم ردهم إلى الكفر .

ثانياً : أسباب اعتناق المستضعفين للعقيدة الجديدة :

لقد اتسم هذا الرعيل الأول الذي اعتنق عقيدة التوحيد بالرغم من تواضع أقدارهم بالكفاحية والجلد ، ومن ثم فقد كان ثمة تناغم بديع بين هؤلاء وبين العقيدة التي اكتسبت منذ انبعاثها صفة الكفاحية ، ولولا الدّفاحية والجلد والتصميم والإصرار الذي تشبع به هؤلاء لما أمكنهم الصمود على الدين الجديد ، حيث لاقوا من صنوف وألوان العذاب والهوان الكثير ، ولكن ما الذي حمل هؤلاء على تحمل الشدائد وتجشم المشاق ،

ثمة سببان على الأرجح كانا وراء إقدام المستضعفين على العقيدة الجديدة وإصرارهم على الثبات عليها والذود عنها والتضحية بالنفس في سبيلها :

❖ السبب الأول : الاقتناع :

كان الاقتناع هو أساس اعتناق المستضعفين للعقيدة الجديدة ، التي خاطبت فيهم الوازع الإنساني ، وعبرت عن رغبتهم في الإحساس بآدميتهم ، ولعل ذلك كان ملموساً منذ بداية انبعاث الدعوة ، ومتجسداً في نسق القيم الذي جاء مع عقيدة التوحيد ، وارتكز على قيم الإخاء والمساواة والعدالة بين المسلمين وفي الخطاب المباشر من الحق تبارك وتعالى لرسوله الكريم وللمسلمين بتحكيم معيار الإيمان والتقوى على ما عداهما من أصل وعرق أو مركز اجتماعي أو مركز مادي ، فقال تعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1] ، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2] ، وقال تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾[3] ، وقال الرسول الكريم " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " .

هذا التفضيل والتوقير من الإله الخالق ومن رسوله الكريم للمستضعفين الذين سبقوا إلى الإيمان كان كفيلاً أن يجعل ذلك الإيمان يتغلغل في نفوسهم ويتمكن من قلوبهم ويرسخ في عقولهم إلى أن يصبح بالنسبة لهم كل شيء ، فكان إيماناً عن قناعة نابعة من القلب والعقل معاً .

---

[1]. سورة الكهف : ٢٨ .

[2]. سورة الحجرات : ١٠ .

[3]. سورة عبس : ١ ـ ١١ .

❖ السبب الثاني : الإنعتاق من نير الاستعباد من كبراء قريش :

بالرغم مما يبدو من أهمية هذا السبب إلا أنه يأتي في المرتبةً التالية للسبب المتقدم ، ويحتاج هذا السبب إلى إيضاح وإجلاء للبس الذي أحاط به ، فحقيقة الأمر أن زمرة المسلمين الأوائل من مستضعفي قريش كانوا تواقين إلى الإنعتاق من نير الاستعباد الذي عانوا منه الكثير لكبراء قريش ، ولكنه لم يكونوا يقصدون الاستعباد المادي بالتحديد بل كان الأهم لديهم هو الاستعباد الفكري والعقلي ، والدليل على ذلك أن هؤلاء المستضعفين كانوا يقبلون بأن يبقوا على عبوديتهم لأسيادهم الملوكين لهم ويدخلون في الدين الجديد ، ولا يرضون بأن يُعتقوا من عبودية الدنيا وهم على الكفر وكان هؤلاء المستضعفين على يقين بأن الدخول في عقيدة التوحيد سيعقبه إن عاجلاً أو آجلاً الإنعتاق من نير الاستعباد لسادة قريش ، ولم يلبث ذلك اليقين أن تحول إلى واقع .

ثالثاً : ماذا أضاف المستضعفون للعقيدة الإنسانية المكافحة :

لقد كان المستضعفون بحق بالرغم من تواضع أقدارهم قوة لا يستهان بها ، برزت آثارها وأماراتها منذ دخولهم إلى الإيمان واعتناقهم لعقيدة التوحيد ، ويمكن تلمس تعبيرات القوة التي أضافها هؤلاء إلى عقيدة التوحيد في الآتي :

❖ التفاني والعطاء دون انتظار لمردود :

الأسباب التي دفعت عبيد قريش وصغارها إلى اعتناق عقيدة التوحيد كانت كفيلة بأن تجعلهم يتفانون في خدمة الدين الجديد والدعوة إليه والالتزام بأحكامه وتعاليمه وأن يعطوا كل ما يملكون وهي أرواحهم وأنفسهم دون انتظار لمردود أو رغبة في منّ ، وكم كانت العقيدة المكافحة في حاجة إلى هذا الصنف من المؤمنين الذين ينطلقون بها ومعها إلى آفاق الأرض ، ولم تكن في حاجة إلى المؤلّفة قلوبهم المذبذبين بين الكفر والإيمان ، وكذلك فمن

حكمةِ الله البالغة أن يقيّض لهذه العقيدة المكافحة مثل هؤلاء المستضعفين الذين أصبحت بالنسبة لهم قوتهم وعزهم ومنحتهم الكرامة والحياة ، وأن يدخر السادة الكبار للمرحلة التالية حيث التلاقي مع أقوام آخرين والخروج إلى الآفاق الجديدة ، فالتسليم المطلق والطاعة العمياء مطلوبان في البداية ، أما الجدل والحوار والإقناع والاقتناع بالحجة والبرهان فسيكون في مرحلة تالية .

❖ إعطاء المثال والنموذج على التفاني في سبيل العقيدة :

كذلك بدت أهمية الرعيل الأول من المستضعفين الذين آمنوا بالعقيدة الجديدة فيما جسدوه من مثال ونموذج على التفاني والولاء اللذين أثارا إعجاب سادة قريش وكبراءها ، فبالرغم من أنهم كانوا يتشككون في قيمة هؤلاء وجدواهم للدين الجديد إلا أنهم كانوا على يقين من أن في جلدهم ومثابرتهم وصلابتهم على موقفهم ما يمكن أن يضيف الكثير للدعوة الجديدة ، وبصفة خاصة عندما أخذت أعداد أبناء قريش الذين يلتحقون بالإسلام في التزايد ، وتحول التساؤل حول سبب تمسك المسلمين الأوائل من المستضعفين بعقيدة التوحيد إلى هاجس ظل يؤرق سادة قريش ويقض مضاجعهم طيلة الأيام الأولى للدعوة ، وبلور لديهم قناعة كانوا يجاهرون بها من حين لآخر بأن في الدين الجديد أمراً غير مألوف يجعل أبناءه يفرون منه إليه وعبيدهم يتمسكون به رغم تعذيبهم ، وبعد قليل سيكتشفون حقيقة ذلك الأمر عندما يصبحون هم أنفسهم فريسة له ويصيرون حملة العقيدة والداعين إليها ثم يُخرج الله من أصلابهم من يتحمل تبعة ذلك بكل شرف وأمانة وإخلاص .

❖ قوة قتالية لا يستهان بها :

إن الصبر والجلد والصلابة التي تحلى بها المستضعفون من أوائل المسلمين برزت بشكل مثير للدهشة ، وآتت أكلها عند الصراعات العضوية التي نشبت بين المسلمين وسادة

قريش في فجر الإسلام ، فمن المفارقات أن السادة كانوا يواجهون عبيدهم في معارك ضارية ، فكانت ساعة الثأر والتشفي ، وقد أبلى العبيد بلاءاً حسناً في فجر الإسلام وضحاه ، وقد انعكس ذلك على الانطلاقة الأولى للعقيدة المكافحة فجعلها تمضي إلى هدفها كالبرق الخاطف ومعها حضارة الإسلام العظيمة .

المبحث الثاني

السادة الكبار : القوة المحتملة لدعم العقيدة

ثم ماذا عن الفصيل الثاني من المخاطبين بالدعوة ؟ عن أصولهم ، عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، عن أفكارهم ومعتقداتهم ، عن أسباب تصديهم لعقيدة التوحيد التي جاءت إليهم وبلسانهم وعن طريق رسول عربي أصيل ، وماذا عن الذين اعتنقوا الدعوة منهم ؟ وماذا كانت حجتهم ؟ ولماذا اقتنعوا بالدعوة ؟ وكيف انتهى بهم المطاف لأن يصبحوا قوة إضافية جبارة ساندت العقيدة والحضارة الإسلامية ؟ ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : أصول وأعراق السادة الكبار :

كانت قبيلة قريش أكبر قبائل مكة وأعزها شرفاً وجاهاً ، وكان ثمة قبائل أخرى في مكة ، وكانت هي الأخرى على قدر يعتد به من عراقة الأصل ، وقد سبق لنا أن أوضحنا طبيعة هؤلاء السادة من كافة أبعادها ، وفي هذه الجزئية نزيد هذه الأبعد تفصيلاً ، لكي تتضح العلاقة بين طبيعة تلك الحياة والدعوة الجديدة ، ومن ثم الموقف المباشر لأولئك السادة من العقيدة الإنسانية المكافحة التي جاءت إلى ذلك المجتمع .

ولقد تركت عراقة أصول سادة مكة آثاراً واضحة على نظرتهم للحياة الاجتماعية في مكة ، وكذا على موقفهم من الدعوة ، وقد تبدت تلك الآثار فيما يلي :

❖ الصلف والتكبر والتعالي :

اعتاد سادة مكة حياة العز ، وعاشوا بسمعتهم وعراقة أصولهم كعادة العرب دوماً ، وقد زرعت فيهم هذه الحياة سمات الصلف والتكبر والتعالي ، وبهذه السمات تعاطوا مع من

دونهم من طبقة الفقراء والعبيد ، وبالرغم من الخصال الطيبة التي تحلى بها سادة مكة مثل الكرم والمروءة إلا أنهم في ذات الوقت كانوا ينظرون إلى المجتمع بدونية ، ويتعاملون مع من دونهم باحتقار واستصغار ، وقد بدت هذه السمات والخصال بوضوح عند استقبالهم للدعوة إلى العقيدة الجديدة ، فمنهم من نظر إلى هذه الدعوة باستخفاف ، ومنهم من نظر إليها بعدم اكتراث ، ومنهم من تصدى لها بقوة وجبروت وعن جهل .

❖ عدم القبول بأي شيء :

إن وضعية السمو والترفع التي عاش فيها سادة مكة جعلتهم يتعاملون مع الأحداث والتطورات الاجتماعية والفكرية بأسلوب يتواءم مع تلك الوضعية ، فلم يكن من السهل على هؤلاء القوم أن يقبلوا بأية أفكار أو يسمحوا لأية أحداث أو تطورات أن تمر أو لأية تفاعلات أن تتم داخل المجتمع إلا إذا كانت على مستوى وضعية السمو والترفع التي عاشوا فيها .

❖ الطموح في حمل الرسالة :

لقد أراد سادة مكة وانبعاثاً من وضعيتهم التي سبق تبيانها أن يسيّروا التطورات والأحداث وفق نظرتهم الخاصة ومنطقهم الذاتي بعيداً عن موضوعية التطور الإنساني والتفاعل البشري المحكومين بإرادة الله ومشيئته وقد انسحبت هذه النظرة وذاك المنطق على الرسالة حيث كانوا يطمحون في أن يكلف بالتبليغ رجل منهم ، وأن يحتكروا الدعوة احتكارهم للجاه والسلطان وقد بين الحق تبارك وتعالى هذه المسألة ، فقال في كتابه الحكيم

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] .

ثانياً : الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسادة مكة :

ثم ننتقل إلى تحليل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسادة مكة ، وكيف كانت تلك الأوضاع دافعاً قوياً جعلهم يتصدون للعقيدة الجديدة ، كما يلي :

❖ تدبير شئون المجتمع وسياسته :

لقد سيطر سادة مكة على مجتمع هذه المدينة إدارياً وسياسياً ، واعتقدوا بأنهم بهذه السيطرة يمكنهم التحكم في كل مجرياته وتطوراته ، وأن الدعوة إلى العقيدة الجديدة تدخل ضمن هذه السيطرة ، وعليه فهم الذين يسمحون لهذه الدعوة أن تنتشر ، وينبغي أن تمر من خلال سيطرتهم وسيادتهم التي فرضوها على المجتمع بأسره .

❖ التحكم الاقتصادي في المجتمع :

كذلك كان سادة مكة يمسكون بتلابيب اقتصادها وبالذات التجارة التي كانت تعتبر عماد ذلك الاقتصاد ، ومن خلال السيطرة على اقتصاد مكة سيطروا كذلك على طبقة الفقراء

---

[1]. سورة الزخرف : ٢٩ ــ ٣٢ .

[2]. سورة الأنعام : ١٢٤ .

[3]. سورة القصص : ٦٨ .

والعبيد الذين كانوا يعملون تحت إمرتهم بل ورحمتهم وبالتالي كانوا يتحكمون في حرية طبقة الفقراء والعبيد ، وقد انعكست الوضعية الاقتصادية لسادة مكة على حياتهم وسلوكاتهم فأدى ترف الحياة إلى المجون والاستهتار وسلوك السلوكات المستهجنة والمقوتة .

❖ تسخير القدرة الاقتصادية في التصدي للعقيدة :

لم يتورع سادة مكة عن تسخير قدرتهم الاقتصادية في التصدي للعقيدة الجديدة من خلال عدة وسائل منها : منع العبيد والفقراء من الدخول إلى الدين الجديد ، ثم حصار المسلمين اقتصادياً وتجويعهم حتى الموت ، ثم قتالهم للقضاء عليهم ، وقد أوضح الحق تبارك وتعالى ذلك فقال سبحانه ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[1] .

ثالثاً : الأوضاع الفكرية والمعتقدية لسادة مكة :

كانت الأوضاع الفكرية المعتقدية لسادة مكة هي الأكثر تأثيراً في كافة الأوضاع والظروف المتقدمة ، فهي التي سيرت جميع تلك الأوضاع والظروف ، وقد تمثلت أهم أفكار ومعتقدات سادة مكة في الأفكار التالية :

❖ الوثنية :

سيطرت فكرة الوثنية على عقول سادة مكة ، وبات الشرك بالله أساساً من أسس حياتهم ، مما جعل من الصعب عليه تقبل أية أفكار أخرى تدعو إلى الوحدانية ، وإفراد الله بالعبادة ، ومن ثم فقد كان تصديهم للعقيدة الجديدة متأثراً إلى مدى بعيد بهذه الفكرة

---

[1] سورة الأنفال : ٤٧ .

الوثنية ، كما جاء ذلك التصدي قوياً عاتياً متأثراً بما تكتل وراءه من عوامل تاريخية واجتماعية وعرقية متشابكة ومتماسكة .

❖ اللادينية :

اختلطت لدى سادة قريش وكثير من العرب فكرة الوثنية بفكرة اللادينية ، فالوثنية ديانة قائمة على عبادة غير الله ، أما اللادينية فهي فكرة انتفاء الدين بالكلية ، ومن ثم انتفاء التفكير في إله خالق معبود ، وهذه الفكرة كانت قريبة من الأفكار الإلحادية التي ظهرت حديثاً مثل العدمية واللاأدرية وغيرها ، وقد راجت هذه الفكرة لدى العرب من سادة مكة وغيرها بسبب عدم اقتناعهم بالأديان السائدة في ذلك الوقت ، وعدم رغبتهم في إلزام أنفسهم بعبادة إله يحملهم بتكاليف والتزامات وعدم رغبتهم حتى في التفكير في ذلك ، ولم يكن هؤلاء أرض بائرة وبيئة صالحة لبذر فكرة التوحيد التي تحملها عقيدة الإسلام ، بل لم يكونوا أقل صلفاً وعناداً من المشركين .

❖ استبعاد سادة مكة لأن يكون الرسول من العرب ومن عامة الناس :

كذلك من الأفكار التي عشعشت في عقول سادة مكة ووقفت وراء الكثير من سلوكاتهم فكرة استبعاد أن يكون الرسول من العرب ومن عامة الناس ، ويرتبط هذا بفكرتهم كسادة لمكة وللعرب ، فالسيادة والرفعة والسمو لديهم ينبغي أن تنسحب على كل مجريات الحياة الاجتماعي منها والاقتصادي والفكري وحتى الديني ، فالرسالة والنبوة ينبغي أن تكون من اختصاص السادة الكبار ، فعامة الناس وفقراؤهم لا يؤهلهم وضعهم أو قدرهم الاجتماعي في تحمل الرسالة وتلقي النبوة ، وهذا المنطق الفكري كان وراء تصديهم للدعوة منذ أن بشر بها الرسول الكريم وهو من عامة الناس وأبسطهم .

يضاف إلى ما تقدم الفكرة التي رسخت في أذهان العرب والتي مؤداها أن الرسالات

السماوية تنزل إلى اليهود وعلى رسل منهم ، وأن العرب بعد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لم تنزل فيهم رسالة ولم يكلف بها أحدهم ، وقد تشبع سادة قريش بأفكار اليهود في هذا الشأن ، فقد أقنعهم أحبارهم بأنهم حملت النبوة وأصحاب الرسالة وأصفياء الله ، كما أخبر عن مقولاتهم الذكر الحكيم ولا زالوا يرددون بأنهم شعب الله المختار .

❖ الاعتقاد بالمعجزات الحسية :

انسحبت وضعية سادة مكة الاقتصادية وتقديسهم للرفعة والسمو على أفكارهم ومعتقداتهم ، فقد أكسبتهم تلك الوضعية جسارة على التحدي حتى في مواجهة القدرة والإرادة الإلهية ! كذلك ترسخت اعتقادات سادة مكة في المعجزات الحسية التي ترتبط دوماً بالماديات ، وكانت مسألة الغيب والإيمان به من المسائل المستبعدة عن عقولهم .

رابعاً : لماذا تصدى سادة مكة للعقيدة الجديدة ؟ :

قدمنا الكثير عن حياة سادة مكة ، وفي خضم هذه الحياة يعن تساؤل مهم مفاده لماذا تصدى سادة مكة للعقيدة الجديدة ؟ لقد تعددت أسباب هذا التصدي ، ويمكن تناول أهمها فيما يلي :

❖ التأثير على المكانة الاجتماعية والاقتصادية :

انطلاقاً من النزعة المادية الاقتصادية التي تشبع بها سادة مكة سرعان ما قيّموا آثار ونتائج العقيدة الجديدة عليهم وعلى أوضاعهم الاقتصادية بالمعايير والمقاييس المادية ثم على مكانتهم المستمدة من الفعاليات التعبدية والشعائرية فهم سدنة البيت ووسائط الآلهة ، ومن ذلك يستمدون مركزاً اجتماعياً وأدبياً مرموقاً بين العرب ، ثم أنهم المستفيدون اقتصادياً ومادياً من القيام بهذا العمل وبظهور الجديدة التي سيترتب عليها تطهير البيت الحرام مما دنس به من أصنام وأوثان ، وإخلاص العبادة لله الواحد القهار الذي لا واسطة

بينه وبين عباده على الإطلاق ، سيجرد هؤلاء السادة الكبار الذين كرسوا رفعتهم ومجدهم على هذه الأوضاع مما وسدوا مكانتهم عليه ، ومن ثم انبروا للتصدي للعقيدة الجديدة .

❖ تسفيه أفكارهم ومعتقداتهم ومعتقدات آبائهم :

كان سادة مكة يتيهون بآبائهم وبمعتقداتهم التي ورثوها عنهم دون أن يدروا عنها وعما تحمله من جهل وكفر وجحود ، وكانوا لا يقبلون المساس بها ، ويعتبرون أي مساس بها إساءة لا تغتفر ، ولما كانت عقيدة التوحيد تبرز أفكار آبائهم ومعتقداتهم الوثنية على أنها جهل وسفه وخبال ، فقد ساءهم ذلك وأثار حفيظتهم ، وحاولوا بشتى الطرق محاصرة واحتواء تأثيرات تلك العقيدة حتى تتلافى المساس بمعتقداتهم وقد تدرجت محاولاتهم تلك من تقديم الإغراءات للرسول حتى يتخلى عن الدعوة إلى تلك العقيدة أو حتى التخفيف من صرامتها ، إلى الحصار الاقتصادي والاجتماعي ، إلى الصراع العضوي للقضاء التام على تلك العقيدة .

❖ الشك في صدق العقيدة جهلاً وبطراً :

جهلاً وعتواً لم يسّلم سادة مكة بصدق عقيدة التوحيد ، فلم يألفوا الإيمان بالغيب ، بل اعتادوا الظواهر والحقائق الحسية المادية ، فظنوا أن القرآن أساطير ، وأنه من عند غير الله ، وكانت كل هذه الظنون والتراهات كفيلة بأن تجعلهم يتصدون بهذه العقيدة التي لم يعتقدوا أبداً بصدقها ، ولم تكن موضع ثقتهم فور انبعاثها ، بل لقد أقروا بأنه من الواجب والمحتم التصدي للعقيدة الجديدة بسبب ما تحمله من إساءة بأصنامهم ومعتقداتهم التي ورثوها عن آبائهم ، فهي تعصف بكل ما اعتقدوه وورثوه .

❖ إثارة العبيد والفقراء :

أيقن سادة مكة أن الدعوة الجديدة منذ انبعاثها قد جاءت بقيم ومفاهيم جديدة جعلت

العبيد أحراراً من العبودية لغير الله وإن ظلوا في الظاهر مملوكين لسادتهم ، كذلك ساوت بين جميع الناس ولم تفرق بينهم إلا على أساس الإيمان بالله وتقواه والإحسان في عبادته ، وقد أحدث هذا النسق القيمي هزة عنيفة في مجتمع مكة وفي العلاقات المتوارثة الراسخة بين الطبقات التي تشكل منها ذلك المجتمع ، وكان من شأن تلك الهزة أن توسع الهوة بين السادة وعبيدهم ، وتدفعهم – من وجهة نظر السادة – إلى التمرد والخروج على الطاعة ، وكان ذلك كفيلاً بأن يزيد من نقمة السادة وحنقهم على الدعوة الجديدة .

خامساً : الذين اعتنقوا العقيدة من السادة :

كان هناك من سادة قريش من اعتنقوا عقيدة التوحيد وتحمسوا لها ونصروها والتفوا حول رسول الله وقدموا له كل عون ومساعدة مادية ومعنوية ، وكانوا بالإضافة إلى العبيد الفقراء يمثلون النواة الأولى لمجتمع المسلمين الذي تحول بعد هجرة الرسول الكريم إلى المدينة المنورة إلى مجتمع أول دولة إسلامية في التاريخ ، حيث أضيفت إليه قوة من نصروا الرسول والدعوة الإسلامية من أهل يثرب والذين عُرفوا بالأنصار وقد كان لهؤلاء السادة من مكة سماتهم وشيمهم التي اتصفوا بها ، وقد تمثلت في الآتي :

❖ **رشد الفكر ورجاحة العقل :**

لقد كان هؤلاء السادة ذوو منزلة رفيعة في أقوامهم ، وقد تمتعوا إلى جنب ذلك برشد الفكر ورجاحة العقل ، وقد قاد ذلك إلى فعالية تأثيرهم فيمن حولهم وكان لهؤلاء دور مهم في دعم الدعوة وتقوية ساعدها ، وقد تخوف سادة مكة من ذلك التأثير لأنه سيعزز موقف العبيد والفقراء الذين ناصروا الدعوة الجديدة وانضموا إليها ، وبالفعل قام المسلمون من السادة بعتق الكثير من العبيد ، وقد زاد ذلك من امتعاض سادة مكة وتخوفهم من علاقة المسلمين السادة بالدعوة الجديدة ورجالها من الفقراء والعبيد .

❖ العلاقة المباشرة بالرسول الكريم :

كانت علاقة سادة مكة من المسلمين بالرسول الكريم علاقة مباشرة وعن قرب وفهم واستيعاب ومحبة وقبول ، وكان ذلك هو الأساس في إيمان هؤلاء السادة وحماسهم لعقيدة التوحيد وتصديهم بإصرار ومضاء لأترابهم من سادة مكة ، ومن ثم كان ذلك بداية انقسام السادة على أنفسهم حول العقيدة الجديدة بين مؤيد ومعارض ، وبداية مراحل الصراع بين سادة مكة الذي بدأ بالخلاف الفكري حول قضايا وأسس الإيمان بالعقيدة الجديدة ، ثم تدرج إلى أن وصل إلى الصراع العضوي في جولات عديدة ، ولكن ما ينبغي التأكيد عليه أن هؤلاء السادة المسلمين كانوا دعماً قوياً وتأييداً عارماً للعقيدة المكافحة الذين بدأوا معها وبها رحلة كفاح بدأت بتأسيس دولة إسلامية نموذجية في المدينة المنورة ، وانتهت بحضارة سامقة اخترقت مقوماتها ونماذجها وتعبيراتها الآفاق ، وأضافت إلى رصيد الحضارة الإنسانية الكثير ، وأحييت فيها الروح والأخلاق والقيم .

سادساً : سادة مكة قوة إضافية محتملة للعقيدة الجديدة :

على أية حال لقد بات سادة مكة جميعاً من آمن منهم ومن ظل على كفره قوة داعمة لعقيدة التوحيد ، فمن آمن صار قوة فعلية رسخت الأركان والأسس المبدئية ، ومن لم يؤمن عُقدت على إيمانه الآمال وأصبح قوة محتملة للعقيدة الجديدة .

وهكذا تبلور الموقف بين سادة مسيطرين يجاهرون العقيدة الجديدة العداء ، ويتصدون لها ، وبين عبيد خاضعين يعتنقون تلك العقيدة ويتشبثون بها ، وبين عقيدة تكافح من أجل نصرة العبيد الصغار وإعزازهم ومحاورة السادة الكبار وإقناعهم ، والانطلاق إلى دعوة من هم حول مكة ومن بعدهم .

الفصل الثالث

الانطلاقـــــة الأولى

التف حول الرسول الكريم وحول العقيدة الجديدة سادة قريش الذين آمنوا واعتنقوا تلك العقيدة وعبيد مكة وفقراؤها ، وقد التقى الجميع على أرض يثرب التي سميت بعد هجرة الرسول الكريم إليها بالمدينة المنورة أو طيبة ، وعليها قامت دولة الإسلام الأولى ومجتمعها الجديد الذي شمل إلى جانب المكيين المهاجرين من السادة والعبيد الفقراء ، المدنيين الأنصار من سادة كذلك وعبيد .

مع دولة الإسلام الأولى ومجتمعها الجديد برزت إلى حيز الوجود الحضارة العربية الإسلامية بوصفها نواة الحضارة الإسلامية ، ولقد تميزت تلك النواة بعدة خصائص : تمثل أولها في كونها حضارة عربية إسلامية قام العنصر العربي ببناء مقوماتها ، وتجسد ثانيها في أنها وضعت الأصول والقواعد للحضارة الإسلامية فيما بعد ، وتحدد ثالثها في أن نطاقها الجغرافي المكاني كان قاصراً على المدينة المنورة ثم مكة ثم بلاد العرب ، وتعين رابعها في أنها قد شملت عصر النبوة الزاهر وخلافة أبي بكر الصديق ، وتشكل خامسها في ما اتسمت به من مثالية ونموذجية .

لقد مثل الرواد الأوائل الذين بعقولهم وسواعدهم تشكلت النواة الأولى للحضارة الإسلامية ، فقد مثلوا العدة والعتاد للعقيدة المكافحة التي تمثلت انطلاقتها الأولى في الانتشار على مستوى بلاد العرب ثم للحضارة العربية الإسلامية التي سارت في ركاب تلك العقيدة ، ثم انتصبت على العُمد والركائز المستمدة منها .

لقد حدث تفاعل وتعاطي مع بيئة بلاد العرب الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية ، وقد أفرز ذلك التفاعل قوة دافعة جبارة دفعت بالرواد الأوائل في انطلاقة قوية نحو نشر العقيدة وتشكيل حضارتها التي بدأت عربية ، ثم لم تلبث أن تحولت إلى إسلامية واسعة ساهمت فيها كافة العناصر والأعراق من فارسية وتركية وبربرية .الخ

في هذا الفصل سنتناول الانطلاقة الأولى للعقيدة المكافحة ومعها الحضارة الإسلامية ، وذلك من خلال دراسة الأفكار المتقدمة في المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : دولة الإسلام الأولى ومجتمعها الجديد .

المبحث الثاني : الحضارة العربية الإسلامية نواة الحضارة الإسلامية .

المبحث الثالث : الرواد الأوائل .. العُدة والعتاد .

المبحث الرابع : التعاطي مع البيئة والانطلاق منها .

المبحث الأول

دولة الإسلام الأولى ومجتمعها الجديد

لقد بدأت الحضارة الإسلامية عربية ، وفي هذه المرحلة الجنينية من عمر الحضارة الإسلامية برز الطابع العربي للحضارة الإسلامية ، أو بعبارة أكثر دقة الحضارة العربية الإسلامية ، وقد جسدت دولة المدينة المنورة التي أسسها الرسول الكريم مرحلة الحضارة العربية الإسلامية ، ومن ثم يمكن القول بأن الحضارة العربية الإسلامية بدأت بالفكر والسلوك والنموذج العربي الإسلامي قبل أن تتحول إلى إسلامي عام يجمع كافة المسلمين من كل عنصر وعرق ، وقد تجلى الطابع العربي في دولة المدينة وفي تشكيل مجتمعها الإسلامي ، وسنأتي على ذلك في حينه ، والآن لنرى كيف كانت دولة المدينة المنورة ومجتمعها الجديد الإطار العام والبيئة الصالحة التي بُذرت فيها مقومات وأركان ونماذج الحضارة الإسلامية التي شملت فيما بعد كافة المسلمين من إندونيسيا في أقصى الشرق إلى مراكش في أقصى الغرب ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : أركان الدولة الإسلامية في المدينة المنورة :

فور هجرته إلى يثرب شرع الرسول الكريم في وضع أسس وأركان الدولة ، وتمثلت تلك الأركان في ترسيخ وتأصيل ثلاثة أنظمة على النحو التالي :

❖ **النظام السياسي :**[1]

ارتكز النظام السياسي في عصر النبوة الزاهر على قاعدة سياسة أمور المسلمين من خلال

---

[1]. بخصوص النظام السياسي الإسلامي يمكن الرجوع إلى : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الأول : السياسة والحكم في الإسلام ، الجزء الأول : الأصول والقواعد ، وللاستزادة يمكن الرجوع إلى الجزء الثاني : نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة .

تشريعات إلهية وأخرى نبوية ، تمثلت الأولى في القرآن الكريم ، وتجسدت الثانية في السنة النبوية المطهرة ، والثانية مكملة لما غاب في الأولى ، ومفصلة لما أجمل فيها ، ومفسرة لما خفي ، فكان الرسول على رأس الدولة يسوس أمورها بالاعتماد على مصدري التشريع السابقين ، وهو في سياسته للدولة يستعين بعموم المسلمين من خلال قيمة الشورى التي أمره بها الخالق عز وجل ، وشكل هو صلى الله عليه وسلم نموذجها التنظيمي الذي تمثل في صحابته الأجلاء وبصفة خاصة من حضروا بدراً .

لقد تحددت أهداف الدولة الإسلامية منذ نشأتها على يدي الرسول الكريم في : الدعوة إلى عقيدة التوحيد ونشرها ، ثم العمل بكتاب الله وإقامة شرعه ، ثم الدفاع عن الإسلام الذي بدأ يتجسد في شكل دولة قوية الأركان ، ثم إعمار الأرض وقضاء حوائج الناس .

كذلك تعزز النظام السياسي الإسلامي بنسق من القيم تمثلت في : الحرية والإخاء والمساواة والعدالة والشورى ، وكانت هذه القيم بمثابة الضابط لسلوك النظام السياسي وهو بصدد تحقيق أهداف الدولة الإسلامية ، هذا إلى جانب قيمة النصح والتوجيه التي شاعت في كافة أمور وشئون الدولة ، حيث يتوجب على كل من يتول أمراً من أمور المسلمين أن يسمع لنصيحة من يلق إليه بها لمصلحة عموم المسلمين .

ولعل المتأمل للنظام السياسي في دولة الإسلام الأولى التي أقام الرسول الكريم ، يمكنه أن يستنبط الطابع العربي الخالص الذي وسم كافة مفردات ذلك النظام ، وكذا حركته وآلياته ، ناهيك عن أهدافه وغاياته ثم قيمه ومبادئه ومن ثم فقد كان النظام السياسي في دولة الإسلام الأولى التى أقامها الرسول الكريم نظاماً عربياً خالصاً نبع من بيئة العرب فحمل خصائص البساطة والبداوة والأصالة وحتى القبلية ، وقد تمكن الرسول الكريم من إبراز الجوانب المشرقة من تلك الخصائص والتغاضي عن الجوانب المشينة .

ويمكن للمحلل المتابع أن يقابل ذلك النظام بطابعه العربي الخالص مع النظام السياسي الذي سينشأ في عهد الأمويين ثم العباسيين فيما بعد ، حيث سيتحول ذلك الطابع العربي الصرف ، ويحل محله طابع آخر إسلامي جامع لكافة الحضارات والثقافات التي احتواها الإسلام وضمها في كنفه ثم صهرها في بوتقته ، فأخذ من الفرس ومن الرومان ومن الأتراك ومن المغول ومن البربر ومن الفرنجة ، وكل هذه الأمم قد وسعها الإسلام في حضارته الإسلامية العظيمة .

❖ النظام الإداري :[1]

كذلك ارتكنت دولة الإسلام الأولى التي شيدها الرسول الكريم على نظام إداري اتسم بالبساطة والكفاءة والفعالية ، وُضعت فيه كذلك اللبنات الأولى للنظام الإداري الإسلامي ، ولكنه اتسم كسابقه النظام السياسي بالسمة العربية الخالصة ، وظل على هذه الحالة حتى نهاية عهد أبي بكر الصديق خليفة رسول الله وأول الخلفاء الراشدين ، ثم بدأ في التحول إلى النظام الإداري الإسلامي الذي اقتبس أول ما اقتبس من الفرس ونظامهم الإداري ، ويعتبر الديوان الذي اقتبسه الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب من الفرس ذو دلالة في هذا الصدد ، ومن ثم يمكن القول بأن النظام الإداري كان أسبق من النظام السياسي في التخلص من السمات العربية الخالص ، فالنظام الإداري بدأ في التنصل التدريجي من عروبته منذ خلافة عمر بن الخطاب أما النظام السياسي فقد بدأ ذلك التنصل منذ عهد بني أمية ، وواصل ذلك التحلل في عهد العباسيين .

ومنذ تأسست الدولة الإسلامية في المدينة المنورة والنظام الإداري صنو النظام السياسي

---

[1]. بخصوص النظام الإداري الإسلامي يمكن الرجوع إلى : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثالث : الإدارة العامة والمحلية في الإسلام ، الجزء الأول : الإدارة العامة في الإسلام .

يتبعه في تغييراته وتطوراته ، وكان ذلك في مرحلة الحضارة العربية الإسلامية ، واستمر كذلك في فترة الحضارة الإسلامية ، إلا أن الثابت أن النظامين السياسي والإداري كانا ركنين من أركان الدولة الإسلامية وهي في مرحلة العروبة .

❖ الاقتصاد الإسلامي :[1]

كان الركن الثالث فيما يتعلق بأركان الدولة الإسلامية الأولى التي أسسها الرسول الكريم في يثرب هو تأسيس اقتصاد تعتمد عليه الدولة الناشئة بمجتمعها الذي هو في طور التشكيل ، وقد استلزم تأسيس ذلك الاقتصاد اتخاذ مجموعة من المراحل والإجراءات التي تمثلت في الآتي :

– تحديد موارد الدولة الناشئة : أول ما فكر فيه الرسول الكريم بمشورة من حوله من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هو تحديد موارد الدولة الناشئة ، وتحديد الموارد والبحث عنها ارتبط عضوياً بظهور الالتزامات المادية والإنفاق الذي يتطلبه العمل العام من أجل نشر الدعوة وتسيير شئون المجتمع ، وقد تبلورت موارد الدولة الإسلامية الناشئة مبدئياً وبصفة أساسية في موردين على النحو التالي :

○ المورد الأول : تمثل في الأموال الخاصة والثروات التي يملكها المهاجرون والأنصار وتبرعوا بجزء منها لبيت مال المسلمين ، ومن ثم فقد كان رأس المال الخاص والثروات الشخصية هي أول مورد من موارد الدولة الإسلامية وركيزة أساسية في اقتصادها الناشئ ، وقد تباينت قيم الأموال التي تطوع بها المهاجرون والأنصار كل حسب مقدرته المادية ورغبته ، فكان الأمر تطوعياً صرفاً ، ولم يتدخل فيه عنصر الإجبار أو الإلزام ،

---

[1]. بخصوص الاقتصاد الإسلامي يمكن الرجوع إلى : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثاني : الاقتصاد الإسلامي ونموذج الإسلام في الإنماء الاقتصادي ، الجزء الأول : الاقتصاد الإسلامي .

ولكنه اختلط بالبعد الديني الشعائري التعبدي إلى أن صار في حكم الفريضة (الصدقة) وكان الإسهام الذاتي الشخصي في موارد الدولة الناشئة في يثرب يأتي في أشكال مختلفة : فهناك الأموال النقدية والأموال العينية في صورة أنعام وعقارات وضياع ، وحتى عتق رقاب العبيد الذين أسلموا .

○ المورد الثاني : تجسد في البدايات الأولى للبحث عن مصادر عامة للثروة يملكها المجتمع بأكمله وتملكها الدولة ، وكان أول مورد في هذا السياق هو إنماء الثروات التي تبرع بها المهاجرون والأنصار وآلت إلى الدولة ، أما ثاني مورد فقد كان خاصاً بتملك الدولة للأراضي التي لم تكن ملكاً لأحد من أهل يثرب ، وأصبح من حق الدولة تملكها واستصلاحها وزراعتها ، أما ثالث مورد فقد تعلق بالغنائم التي آلت إلى المسلمين من معاركهم ضد مشركي مكة ، وكانت أول غنائم ذات شأن في هذا المنحى هي غنائم غزوة بدر الكبرى ، ثم نما هذا المورد وتضخمت مردوداته وأصبح يعول عليها عندما تعددت بعثات المسلمين إلى الأحياء العربية المختلفة ، أما رابع مورد فقد تمثل في الصدقات قبل أن تفرض الزكاة ، وخامس مورد كان في الزكاة عندما فرضت وظلت الصدقات مورداً تطوعياً ولكنه ذو شأن وحجمه في تنام مستمر .

- خلق فرص للعمل والإنتاج : بالرغم من أن كافة جهود المسلمين الأوائل في دولة المدينة وتحت إمرة الرسول الكريم كانت موجهة في مجملها للجهاد وبالذات في شكله العضوي المتجسد في صد الاعتداءات الباغية لأهل مكة ومن تحالفوا معهم من أجل وأد العقيدة الجديدة ونموذجها الحركي المتمثل في الدولة الناشئة ، بالرغم من ذلك لم يتوان الرسول الكريم منذ ولوجه إلى يثرب في أن ينمي لدى المسلمين روح الإنتاج والعطاء والعمل والضرب في الأرض وإعمارها ، وقد كان أهل مكة بطبيعتهم - وكما سبق الإيضاح - لديهم الاستعداد الفكري للعمل والإنتاج وبصفة خاصة في مجال التجارة وإنماء الثروات واستثمارها .

وعليه فقد كان الرسول الكريم في أوقات الاستعداد للقتال وملاقاة الأعداء يوجه جهود المسلمين إلى العمل والإنتاج من خلال خلق فرص لذلك العمل بسيطة ولكنها مثمرة ، فهي بسيطة بما يتواءم مع طبيعة المجتمع الناشئ والزمن الذي نتحدث عنه ، ولكنها مفيدة لأصحابها وللمجتمع ، فهي تدر عليهم دخلاً يساعدهم على الحياة ويحقق مصالح المجتمع في ذات الوقت ، وكان القصد هو أن يعوّد المسلمين على العمل المثمر المفيد لصاحبه وللناس ويحول كافة المسلمين القادرين إلى طاقة خلاقة منتجة .

– إنماء الموارد المتاحة في المجتمع : كانت موارد المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة محدودة وبسيطة ، ولكنها كانت محل اهتمام الرسول الكريم ، وسعى حثيثاً نحو إنمائها لأكثر من غرض ، حتى يمكن مواجهة متطلبات ونفقات الدولة الجديدة والمجتمع الناشئ ، وبصفة خاصة أعباء الجهاد من أجل رد التعديات على الدين الجديد ودولته ، ونشر الدعوة في ربوع بلاد العرب ، وحتى يمكن خلق فرص عمل للمسلمين واستثمار طاقاتهم ، وكان للإنماء صور وأشكال عديدة : كتثمير أموال الصدقات والزكاة ، وتشجيع الأعمال المنتجة .. الخ .

– ترشيد الإنفاق قدر المستطاع : منذ بداية هجرته إلى يثرب ثم إقامته فيها وتأسيس الدولة الإسلامية والرسول الكريم يعتمد للمسلمين أسلوب الاقتصاد والرشد في الإنفاق والسلوك الاقتصادي إجمالاً ، وكان ذلك نابعاً من طبيعة المنهج الإسلامي في الاقتصاد ، فالاقتصاد الإسلامي يعتمد أساساً على هذه القاعدة الأساسية ، كما كان نابعاً كذلك من تواضع موارد الدولة الإسلامية الناشئة ، واعتمادها على تبرعات المسلمين المقتدرين من المهاجرين والأنصار ، كما كان نابعاً أخيراً من كون اقتصاد الدولة الإسلامية لا يزال في مرحلة النشأة والتحديد ، ولم تكن مصادر ثروته قد تحددت بعد .

– التناسق والتناغم منذ البداية بين القطاعين العام والخاص : بالرغم من أن التمييز بين القطاعين العام والخاص قد تبلور بالشكل المتعارف عليه في زماننا ، إلا أنه يمكن من خلال عملية القياس التمييز فعلياً بين رأس المال الخاص بالمسلمين والذي ساهم في اقتصاد الدولة وبين رأس مال آخر كان الرسول الكريم والصحابة يتصرفون فيه باسم المسلمين جميعاً وباسم دولتهم وكان ثمة تناغم وتنسيق بديعان بين هذين النوعين من رأس المال أو الثروة ، وكانت هذه من البداية هي طبيعة العلاقة بين رأس المال أو الثروة الخاصة وبين رأس المال أو الثروة العامة التي تخص المجتمع والدولة ، ولم تكن تلك العلاقة أبداً علاقة صراع وتنافس بل كانت دوماً علاقة تلاقي وعناق لمصلحة مجتمع المسلمين ، واستمر ذلك أساساً من أسس الاقتصاد الإسلامي فالقطاع الخاص قطاع اجتماعي مثمر وفعال ، يراعي مصلحة أصحاب رأس المال ويراعي معها مصلحة المجتمع كذلك ، والقطاع العام يخدم الجميع ويتحمل تبعات المجتمع وينبري للقيام بالمهام والتبعات التي يعجز عنها أو لا يقدر على القيام بها القطاع الخاص .

– توزيع الثروة من خلال توزيع مقدرات الإنتاج والإنماء : لم يلجأ الرسول الكريم وهو بصدد وضع أسس اقتصاد الدولة الإسلامية الناشئة إلى سلب أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء من أجل توزيع الثروة – كما يفعل أو يقول بذلك المعاصرون – بل كان يعمد صلى الله عليه وسلم إلى قاعدة اقتصادية ثبت الآن جدواها وعلميتها بل وعبقريتها وهي توزيع مقدرات الإنتاج والإنماء قبل توزيع ثمار ذلك الإنتاج والإنماء ، ومن شأن هذه القاعدة أن تثري وتغني الفقراء من خلال خلق فرص العمل والإنتاج لهم وتحويلهم إلى طاقة منتجة ، وبذلك تُخلق الثروة وتمتلكها وتساهم من خلالها في اقتصاد المجتمع ، ومن ثم خُلقت ثروات جديدة مع الحفاظ على ثروات الأغنياء ، وتحول المجتمع إلى مجتمع منتج ، أما أن يتبرع الأغنياء بجزء من ثرواتهم لإخوانهم المسلمين ، مثلما حدث بين الأنصار

والمهاجرين ، فهذا أمر اختياري تطوعي ولم يكن إجباراً ، فكثير من المهاجرين رفض أن يأخذ من أموال الأنصار ، وانطلق إلى الضرب في الأرض وعمل في التجارة وأصبح من أغنى أغنياء المسلمين ، وما من شك في أن هذه القاعدة تحقق للمسلمين وللمجتمع المسلم نطاق الغنى .

– مسئولية الدولة والمجتمع عن عموم الناس : كذلك اعتمد الرسول الكريم قاعدة أخرى من قواعد الاقتصاد الإسلامي لدولة المدينة ، وهي مسئولية الدول والمجتمع عن عموم المسلمين بل والناس أجمعين ، وهذه القاعدة لها بعداها : الاقتصادي والاجتماعي ، فهي تحقق مبدأ الضمان المادي والاقتصادي لأفراد المجتمع بشكل مستديم ، وتخلق في ذات الوقت المجتمع المتماسك المتكاتف ، وقد تجسدت تلك القاعدة موضع التحليل في تحقيق مبدأي الضمان الاجتماعي والتكافل الاجتماعي ، فالضمان الاجتماعي تقوم به الدولة تجاه مواطنيها غير القادرين على العمل أو غير المتوفر لهم فرص العمل حيث تضمن لهؤلاء وأولئك الحياة الطيبة ، أما التكافل الاجتماعي فيقوم به أفراد المجتمع : القادرون تجاه غير القادرين من خلال الزكاة والصدقات ، ومن خلال هذين المبدأين ينشأ مجتمع متماسك وقوي .

– الطابع العربي للاقتصاد : إلى جانب ما تقدم من أصول وقواعد وضعها الرسول الكريم لإقامة اقتصاد إسلامي ، برز الطابع العربي لاقتصاد دولة المدينة ، وقد تجلى ذلك في خاصية القدرة الفائقة لدى العرب على التأقلم مع الظروف الصعبة والمعطيات الطبيعية غير المواتية ، وتحويل كل ذلك إلى منطلقات قوة لخلق الثروة وإنمائها ، وهذا عينه ما تم في مجتمع المدينة أول دولة إسلامية في التاريخ ، فمن مقدرات هذه المدينة المتواضعة خلق العرب دولة قوية باقتصادها ونظاميها السياسي والإداري ، مكّنت للعقيدة الجديدة لكي تندفع بقوة في انطلاقتها الأولى ، وتحقق من ورائها أهدافاً عظيمة تمثلت في حضارة واعدة آتت أكلها للمسلمين وللإنسانية جمعاء .

ثانياً : تشكيل النظام الاجتماعي : إقامة المجتمع الإسلامي الأول :[1]

تزامن مع إقامة أركان الدولة الثلاثة التي أشرنا إليها فيما سلف قيام الرسول الكريم بتشكيل النظام الاجتماعي وإقامة المجتمع الإسلامي الأول ، مجتمع المدينة المنورة ، أول مجتمع مسلم في التاريخ ، وقد تم ذلك التشكيل من خلال عمليتين واسعتي النطاق تمتا على النحو التالي :

❖ إقرار نسق القيم الاجتماعية الإسلامية :

من خلال مصدري التشريع المعتمدين للعقيدة الإسلامية والمتمثلين في القرآن الكريم والسنة المطهرة أقر الرسول العظيم نسق القيم الاجتماعية الإسلامية ، وقد انضوى تحت ذلك النسق زمرة من القيم ، تمثلت في : الإخاء الذي بدأ به مجتمع المدينة الإسلامي ، ثم في التكافل الاجتماعي الذي لازم قيمة الإخاء واستمر سمة أساسية من سمات المجتمع الإسلامي في كل مكان ، ثم في العدالة الاجتماعية التي تعتبر هي الأخرى سمة جامعة لخصال عديدة من خصال المجتمع الإسلامي ، ومحققة لأهداف ذلك المجتمع كمجتمع يصبو نحو الفضيلة ، ثم في المساواة التي تممت كل ما تقدم من قيم وسيجتها جميعاً بحصن من الأهداف والغايات النبيلة .

❖ صياغة أصول وقواعد النظام الاجتماعي :

تأسيساً على نسق القيم الاجتماعية ثابر الرسول الكريم على صياغة أصول وقواعد النظام الاجتماعي في دولة المدينة المنورة من خلال ما يلي :

---

[1] بخصوص تشكيل النظام الاجتماعي في مجتمع المدينة يمكن الرجوع إلى : موسوعة الغرر الزاهرة في الأصالة الحاضرة ، المجلد الرابع : الأسس الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية) الجزء الثالث : تشكيل النظام الاجتماعي ، الفصل الخامس .

– التقريب بين الفئات الشرائح باستخدام نسق القيم الإسلامية : وقد بدأ ذلك بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم بتحسين الوضع المادي لفقراء المهاجرين وأهل الصفة ، ثم بتعزيز الوضع المادي للمؤلفة قلوبهم .

– جعل العمل مصدراً للثروة والتملك وكذلك توزيع مقدرات الإنماء ومصادر الثروة ، إضافة إلى تفتيت الثروة بين أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع ، وتحقق ذلك بتحريم كل من الاكتناز والربا .

– الإلغاء التدريجي للرق والاسترقاق : وهنا تمركز سلوك الإسلام من أجل تحقيق هذا الغرض على ثلاثة مرتكزات : كان أولها في اعتبار الرق وضع قائم وحالة مؤقتة وكان ثانيها في اعتبار الرق وضعية مرفوضة والأصل هو حرية الإنسان لأن الروح واحدة ، وكان ثالثها في أن القيم الإسلامية ترفض الرق وتحاربه .

– وضع المرأة في مكانها الصحيح في النظام الاجتماعي من خلال إبرازها ككيان مستقل في النظام الاجتماعي ، والمساواة بينها وبين الرجل في الطبيعة الإنسانية فالروح واحدة ، ثم من خلال الحقوق التي كفلها الإسلام لها .

ثالثاً : سمة الكفاحية في الدولة الإسلامية الأولى :

بعد أن وقفنا على دولة الإسلام الأولى ومجتمعها الناشئ ، تقفز أمامنا سمة أساسية اتسمت بها تلك الدولة وهي سمة الكفاحية ، والأمر الذي لا شك فيه هو أن دولة المدينة قد استمدت تلك السمة من العقيدة الإسلامية ، وقد تجسدت في تعبيرات محددة كانت كما يلي :

❖ محدودية الموارد الطبيعية وندرة مصادر الثروة :

كشأن كافة بلاد العرب اتسمت المدينة المنورة موضع دولة الإسلام الأولى بالظروف والمعطيات الطبيعية الصعبة والموارد النادرة ، وقد فرض ذلك على مجتمع المدينة أن يناضل من أجل أن يستخلص من تلك المعطيات ما يمكن أن يتحول إلى مقدرات ومكنات تساعد ذلك المجتمع على التكتل خلف العقيدة المكافحة التي تحتاج إلى كافة أشكال الدعم لتشرع في انطلاقتها الأولى ، وقد تكلل ذلك النضال بفعل عوامل عدة بنجاح منقطع النظير .

❖ محدودية إمكانات نشر العقيدة والدفاع عنها ضد الأعداء :

كان لابد من ترجمة الموارد المتاحة إلى إمكانات ملائمة لنشر العقيدة والدفاع عنها ضد الأعداء المتربصين بها ، وإذا كانت الموارد المتاحة متواضعة ، فقد كانت الإمكانات المترتبة عليها كذلك متواضعة ، وقد استلزم ذلك الاستعاضة عن محدودية الإمكانات المادية بإمكانات أخرى ذات طبيعة معنوية تتضح من خلال العنصر التالي .

❖ الاعتماد على العزم والإصرار وقوة الإيمان :

وهنا تجلت الكفاحية في أبهى صورها ، فالإمكانات المادية المتواضعة تم تعزيزها بإمكانات أقوى وأمضى خلقتها العقيدة في نفوس معتنقيها ، إمكانات لا تعتمد على المادة ، ولكنها تعتمد على المعنى والجوهر والروح ، تلك كانت قوى العزم والإصرار والإيمان ، فقد كان يمكن للمسلم أن يقاتل دون عدة كاملة للحرب ، وكان يمكن أن يقاتل راجلاً ، وقد يقاتل جائعاً ، وفي كل هذه الأحوال كان يبلى بلاءً حسناً ! .

❖ قوة البعد الأخلاقي :

لقد بثت عقيدة التوحيد في معتنقيها قوة عارمة وطاقة جبارة جعلت العظائم تصغر في أعينهم والإمكانات المتواضعة كافية لتحقيق المعجزات ، وبالرغم من كل ذلك كانت هناك قيم التواضع والصدق والأمانة والإخلاص والإحسان إلى الناس وعدم الثأر أو معاقبة الأعداء إلا بالمثل ، إلى آخره من القيم والأخلاق التي أصبحت أهم ركن في حضارة الإسلام التي انطلقت مع العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة .

لقد كانت أول ارتباطات العقيدة المكافحة بالحضارة الإسلامية إذن هو دولة المدينة المنورة ، فقد كانت أول إفراز لانطلاق تلك العقيدة ، فالانطلاقة الأولى أفرزت دولة المدينة التي هي نواة الحضارة الإسلامية .

المبحث الثاني

الحضارة العربية الإسلامية نواة الحضارة الإسلامية

علينا ونحن بصدد دراسة الانطلاقة الأولى للعقيدة المكافحة أن نفرق بين ثلاثة مدركات أساسية شكّل كل منها مرحلة من مراحل تطور الحضارة الإسلامية :

المدرك الأول : وشكّل المرحلة الأولى ، وهو الحضارة العربية الإسلامية ، والتي نحن بصدد تناولها في هذا المبحث ، وقام على تشكيلها وصياغة مقوماتها وأشكالها العنصر العربي بقيادة الرسول الكريم في دولة المدينة .

المدرك الثاني : وشكّل المرحلة الثانية ، وهو الحضارة الإسلامية ، وهي موضوع هذا المجلد برمته ، وقام على تشكيلها وصياغة مقوماتها وتعبيراتها كل العناصر التي انضوت تحت لواء الإسلام ، وانصهرت في بوتقته من عرب وفرس وأتراك وكافة العناصر الأخرى ، وتعتبر الحضارة العربية الإسلامية نواتها الأولى .

المدرك الثالث : وشكّل المرحلة الثالثة ، وهو الخصوصية العرقية داخل الحضارة الإسلامية ، حيث قامت بعض الأعراق والعناصر بالسيطرة على الدولة الإسلامية ، وأبرزت هويتها العنصرية العرقية ، وحاولت أن تسحبها على الحضارة الإسلامية ، مثل الحضارة الإسلامية الفارسية أو الحضارة الإسلامية التركية .. إلخ ، وقد ظهر هذا المدرك ووردت هذه المرحلة إبان تفكك الدولة الإسلامية وانهيارها وضعف الحضارة الإسلامية ، وقد سمح ذلك بظهور تلك التشرذمات داخل الحضارة الإسلامية .

وترتيباً على كون الحضارة العربية هي حاوية العقيدة المكافحة التي استقبلتها وانطلقت معها ، وتأسيساً على كون الحضارة العربية هي نواة الحضارة الإسلامية ، فقد رأينا

تناولها في هذا المبحث بعد أن امتزجت بالحضارة الإسلامية وأصبحت عربية إسلامية ، وذلك من خلال ما يلي :

أولاً : خصائص الحضارة العربية الإسلامية :

للحضارة العربية الإسلامية جملة من الخصائص ميزتها على الحضارة الإسلامية ، وميزتها كذلك عن الخصوصيات العرقية داخل الحضارة الإسلامية ، وتتمثل تلك الخصائص في الآتي :

- **قام العنصر العربي ببناء مقوماتها :**

مما لا شك فيه أن عقيدة التوحيد قد جاءت إنسانية عالمية ، وقد اعتنقها منذ ظهورها في مكة ثم في المدينة رجال من الفرس والروم والأحباش ، وبالرغم من ذلك لا يمكن إنكار أنها نزلت في العرب وبلسانهم وعلى نبي منهم ، وعززت الكثير من قيمهم ، وسمت بالعديد منها وارتقت به إلى محيط العالمية .

إذن كان العنصر أو العرق العربي منفرداً في فاعليته في وضع المقومات الأساسية والأولية للحضارة الإسلامية ، وقد تمثلت فاعلية ذلك العنصر وتفرده في : البشر وفي اللغة وفي الموطن الجغرافي وفي الرسول حامل الرسالة .

- **تشبعت بالقيم العربية التي امتزجت بالقيم الإسلامية :**

نزلت عقيدة التوحيد على العرب بواقعهم الذي أوضحنا أبعاده من قبل ، وقد تلاقت العقيدة الجديدة بأنساقها القيمية المتعددة مع نسق القيم العربية الذي كان سائداً في بلاد العرب ، وبصفة خاصة في مجتمعي مكة والمدينة المنورة ، وكان نتيجة ذلك التلاقي كالآتي : انحسرت بعض القيم العربية ثم تلاشت لأنها اصطدمت بالقيم الإسلامية ولم

تكن على مستوى الأخيرة في المثالية والنموذجية ، امتزجت بعض القيم العربية بالقيم الإسلامية وسمت بها الأخيرة ومنحتها صفات العالمية والإنسانية ، سادت القيم الإسلامية الخالصة التي جاءت مع العقيدة الجديدة إلى المجتمعات العربية وأصبحت من قيمها وترسخت فيها ، وهكذا حدث امتزاج بين القيم العربية والقيم الإسلامية ، ثم بدت الحضارة في هذه الفترة المبكرة مزيجاً من العروبة والإسلام .

❖ وضعت الأصول والقواعد للحضارة الإسلامية :

مما لاشك فيه أن مرحلة الحضارة العربية الإسلامية التي نحن بصدد دراستها قد وضعت الأصول والقواعد للحضارة الإسلامية فيما بعد ، فقد مثلت المرجعية الأساسية لتلك الحضارة ، فدولة المدينة نواة الحضارة الإسلامية ، منها انطلقت وتوسعت لتشمل دولة الإسلام المترامية الأطراف ، وفيها وُضعت مقومات تلك الحضارة ، وصيغت أشكالها ونماذجها وتعبيراتها التي انطلقت فيما بعد بصحبة العقيدة لتتجاوز بلاد العرب ومن خلال قيمهم وثقافتهم ومجتمعاتهم التي امتزجت بالعقيدة وأصبحا كلاً واحداً .

❖ النطاق الجغرافي والمكاني العربي :

من خصائص الحضارة العربية الإسلامية كذلك أن نطاقها الجغرافي المكاني كان قد تحدد ببلاد العرب ، فقد انطلقت تلك الحضارة بطابعها العربي الإسلامي من المدينة المنورة متوجهة نحو مكة المكرمة موطنها الأول ، ثم جابت بلاد العرب جنوباً وشمالاً وشرقاً ، وقد عزز هذا التحديد المكاني الجغرافي كافة الخصائص الأخرى التي أبرزت الطابع العربي الذي تبلور في العروبة عنصراً وشعباً وقيم ومجتمعاً وانتماءً .

❖ النطاق الزماني : عصر النبوة وعهد أبي بكر الصديق :

لقد كان عمر الإسهام العربي في الحضارة الإسلامية قصيراً ولكنه كان فعالاً ومؤثراً ، فقد

امتد طيلة عصر النبوة الزاهر وعهد أبي بكر الصديق ، وبالرغم من قصر هذه المدة وضعت فيها أسس الحضارة الإسلامية ، ومن ثم كان أساس حضارة الإسلام عربياً خالصاً ، ولكنه ما لبث أن اتسع وامتد ليشمل إسهامات وإضافات عديدة لعناصر وأعراق شتى ، وخلال هذه الفترة الحاسمة من عمر الحضارة الإسلامية كان الاعتماد مطلقاً على الأحكام الشرعية دون تدخل بشري أو اجتهاد إنساني إلا في حدود الفراغ التشريعي المسموح به لإقرار قيمة الشورى وهيكلها التنظيمي .

❖ المثالية والنموذجية :

يرتبط بما تقدم ويتممه أن هذه الفترة الذهبية من عمر الحضارة الإسلامية والتي برزت فيها التأثيرات العربية قد اتسمت بالمثالية والنموذجية ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، فجُل هذه الفترة كان نبوة ، وعولجت معظم قضاياها وإشكالياتها الحياتية عن طريق الوحي ، ومن ثم احتوت تلك الفترة ذات الطابع العربي على مصادر الشريعة ومرجعيات الطرح الإسلامي ، التي تمثلت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونموذج دولة الرسول الكريم وخليفته أبي بكر الصديق .

ثانياً : مقومات الحضارة العربية الإسلامية :

في إطار الحديث عن مقومات الحضارة العربية الإسلامية نتناول مسألتين لهما أهميتهما ، تتبلور المسألة الأولى في صياغة أصول وقواعد الحضارة الإسلامية ، وتتحدد المسألة الثانية في القواسم المشتركة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الإسلامية ، وفيما يلي التفصيل :

❖ صياغة أصول وقواعد الحضارة الإسلامية :

في فترة الحضارة العربية الإسلامية تم صياغة أصول وقواعد الحضارة الإسلامية ،

واشتملت تلك الأصول والقواعد على المقومات والخصائص التي يمكن الإشارة إليها في الآتي :

– المقومات : في فترة الحضارة العربية الإسلامية التي امتدت خلال عصر النبوة الزاهر وعهد أبي بكر الصديق تم صياغة الأسس الأولى لمقومات الحضارة الإسلامية ، وتعينت تلك المقومات في : نشر الدعوة ، التنظيم ، تشكيل النظام الاجتماعي ، الجيش ، العمران والمدنية ، العلوم وتطبيقاتها ، لقد وضعت في دولة المدينة وفي حياة الرسول الكريم ثم في عهد خليفته أبي بكر الصديق القواعد والأسس والمنطلقات لتلك المقومات التي نمت بعد ذلك وتطاولت وساهم في تشييدها كافة عناصر الأمة الإسلامية وفي جميع الأماكن والجهات .

– الخصائص : أيضاً في فترة الحضارة العربية الإسلامية تحددت بشكل شبه قاطع خصائص الحضارة الإسلامية في : الخلود والأبدية والكفاحية وطغيان البعد الأخلاقي والإنسانية والعالمية والأصالة المعاصرة .

❖ القواسم المشتركة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الإسلامية :

لعل القاسم المشترك الأساسي بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الإسلامية هو العقيدة المكافحة ، أي عقيدة التوحيد ، وما ارتبط بها من قواسم وخصائص فرعية أخرى ، فالإسلام إذن هو الذي جمع بين العرب والعناصر الأخرى ، ولولاه لما أمكن لكل تلك العناصر والأعراق من البيئات المختلفة والثقافات والحضارات المتباينة أن تجتمع وتأتلف في كيان واحد .

وقد أنتجت العقيدة المكافحة بوصفها القاسم المشترك الأساسي بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الإسلامية قواسم أخرى فرعية تمثلت في : المنطلقات المرجعية وكانت

ثابتة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ودولة الرسول الكريم كنموذج نظامي حركـي ، ثم في سمة الكفاحيـة الـتي بـرزت في كـل مـن الحـضارة العربيـة الإسلامية والحـضارة الإسلامية والمكتسبة من عقيـدة التوحيـد ، ثـم في الأهـداف والمقاصـد الـتي تـرتبط عـضوياً بخصائص الحضارة في المرحلتين .

المبحث الثالث

الرواد الأوائل .. العُدة والعتاد

انتقلت العقيدة المكافحة بمعتنقيها إلى يثرب ، وتجسدت في نمط حضاري ذي طابع عربي مثّل نواة الحضارة الإسلامية فيما بعد ، وقد أرتكن ذلك النمط الحضاري على أركان ثابتة ، ثم شكل مجتمعاً كان نموذجاً للمجتمع الإسلامي بعد ذلك ، في هذا الإطار لابد من متابعة الرواد الأوائل الذين اعتنقوا عقيدة التوحيد والذين أسسوا هذا النمط الحضاري ، لأنهم هم الذين سينطلقون بالعقيدة المكافحة ليحملوها إلى أقطار الأرض ومعهم نموذجها الحضاري الذي أسسوه في مدينة الرسول الكريم ، فهم إذن القوة المحركة التي تنطلق بالعقيدة فتنشرها وترسخ نموذجها الحضاري في ربوع الأرض ، كيف أعيد بناء شخصية الرواد الأوائل في المجتمع الجديد ؟ وكيف تم تهيئة تلك الشخصية للقيام بدورها الرائد والبطولي ؟ هذا هو موضوع هذا المبحث نوضح فيما يلي :

أولاً : بناء الشخصية الإسلامية الجديدة :

الإسلام يجب ما قبله ، كان علي المسلمين الأوائل أن يبدأوا حياة جديدة وبشخصيات جديدة تختلف عنها قبل الإسلام ، وكان ذلك يستوجب بناء تلك الشخصية علي أسس تتفق مع طبيعة الحياة الجديدة وما تتطلبه من أدوار وتفاعلات وقيم وأفكار وسلوكات ، وقد تطلب ذلك البناء الترتيبات التالية :

❖ الشق الروحي :

أكدنا فيما سبق علي أن عقيدة التوحيد تعتمد بالأساس علي البعد الروحي في الإنسان ، فهي تبدأ به حيث تتخوله بالتهذيب والترتيب حتى تصل به إلى مرحلة السيادة

والسيطرة على ما عداه ، وكذلك بيّنا أن حضارة الإسلام تسير على نفس نهج العقيدة الإسلامية ، حيث تبدأ هي الأخرى بالبعد الروحي وتُعلي من شأنه ، وترتقي به ، حتى يتفوق على البعد المادي ، وتصبح الحضارة بالكامل حضارة ذات طبيعة وصبغة روحية ، وعليه كان من الضروري تهيئة الرواد الأوائل من المسلمين لكي يتواءموا مع أدوارهم التي يعدون لها وهي حمل العقيدة وتوصيلها إلى كل أهل الأرض ، ثم بناء الحضارة الإسلامية المصاحبة لتلك العقيدة .

❖ الشق المادي :

لم تُهمل العقيدة الجديدة الجانب أو البعد المادي في الإنسان ، فهي تبتكر من الوسائل والأدوات ما يلبي متطلبات الإنسان المادية بما يكفل له حياة طيبة كريمة وليس المقصد من تلبية المتطلبات المادية للإنسان هو الاهتمام بالبعد المادي في حد ذاته ولكن المقصد هو خدمة البعد الروحي مرة أخرى ، وكأن الاهتمام بالشق المادي هو اهتمام بالشق الروحي بشكل غير مباشر ، ومن ثم يبدو التكامل بين بعدي النفس البشرية الروحي والمادي .

لقد تم بناء شخصية الرواد الأوائل من المسلمين وفق هذا النهج البديع ، فكان البعد الروحي في شخصياتهم جارفاً طاغياً على البعد المادي ، ومن ثم عاشوا حياة تجمع بين الزهد في زخارف الدنيا ومغرياتها بالرغم من إقبالها عليهم وتمكنهم منها ، وبين الإقبال عليها والرغبة فيها من أجل نشر العقيدة وتوصيلها إلى كل مكان ، امتاز السابقون الأولون إذن بسمو في الروح ورقي في الأخلاق انعكس على اعتناقهم للعقيدة الجديدة ، فمنحوها كل حياتهم ، وتغلغلت في نفوسهم حتى ملكتها ، وكان ذلك ضرورياً في ظروف كانت عقيدة التوحيد فيها تخطو أولى خطواتها نحو الانتشار .

ثانياً : الرغبة والإصرار على نشر الدعوة :

بعد أن تم تهيئة الشخصية الإسلامية لدى الرواد الأوائل من خلال تزكية وتغليب الشق الروحي الأخلاقي كانت المرحلة التالية هي الانصراف الكامل إلى تعميق وترسيخ الرغبة والإصرار على نشر الدعوة في تلك الشخصية العظيمة ، وذلك من خلال الآتي :

❖ تلك كانت هي بدايات الدعوة إلى الإسلام وحضارته ، وقد صيغت في تلك الفترة أهم أصول وقواعد الدعوة إلى دين الله ، وقد كان المعلم والقائد والرائد هو الرسول الكريم وكان الرواد الأوائل هم أول وجبة في الجامعة المحمدية العظيمة والخالدة ، ومن هذه الجامعة وخلال هذه المرحلة نستقي الخبرة ونستنبط المنهج الخاص بالدعوة الإسلامية .

❖ **فهم واستيعاب أحكام العقيدة :**

لقد تلقى الرواد الأوائل علمهم بأحكام العقيدة وكافة أمورها على يدي الرسول الكريم مباشرة ، ومن ثم فقد أصبحوا مصدر علم مباشر عن عقيدة الإسلام ، وكان ذلك ملائماً لنقل العقيدة وتبليغها إلى بلاد الدنيا ، وبالفعل انطلق الرواد الأوائل إلى كافة بلاد العرب لنشر عقيدة التوحيد ، ثم انطلقوا بعد ذلك إلى بلاد العجم من الفرس والرومان والبربر والترك والفرنجة وغيرهم لنقل العقيدة وتبليغها .

❖ **الإلمام بأصول وقواعد الدعوة :**

كذلك برع الرواد الأوائل في فهم واستيعاب أصول الدعوة إلى العقيدة الجديدة بعد أن تعلموها من الرسول الكريم ، ومنهج الدعوة يجمع بين الأصول المستنبطة من القرآن الكريم والقواعد المأخوذة من السنة النبوية المطهرة والأفعال والسلوكات المنقولة عن الرسول الكريم ، ثم السلوك الشخصي للرواد الأوائل بوصفهم حملة الدعوة ومبلغيها إلى الناس كافة .

❖ الإصرار والمثابرة على حمل الدعوة وتوصيلها وتبليغها :

كان أمام الرواد الأوائل ثلاثة مهام أساسية وهم بصدد الدعوة إلى عقيدة التوحيد وإقامة حضارة الإسلام بصحيتها أينما حلت ، وتمثلت تلك المهام الثلاثة في : مهمة الحمل وهي تتبلور في إعداد وتجهيز الرسالة ، ثم تحديد الهدف المراد توصيلها إليه والسير إلى ذلك الهدف ، ثم مهمة التوصيل وتتحدد في الوصول إلى الهدف بشكل مباشر ، وتجاوز المعوقات سواء أكانت معوقات جغرافية مكانية طبيعية أو معوقات بشرية متجسدة في جيوش أو حكام طغاة وسادة جبارين ، أو ما إلى ذلك ، ثم مهمة التبليغ وتتعين في الالتقاء بالهدف مباشرة وجهاً لوجه ومخاطبته دون وسيط وإخباره وإشعاره بالرسالة وشرحها وتوضيحها ، وتحتاج هذه العملية المركبة إلى إصرار ومثابرة من أجل الوصول إلى الهدف النهائي وهو الشعوب المخاطبة بالعقيدة والتي توجه إليها الدعوة ، لأن طريق الوصول إلى هذه الشعوب ليس سهلاً ، ولكنه محفوف بالمعوقات المادية مثل الجيوش والحكام والسادة والمعنوية مثل الأفكار الراسخة في عقول تلك الشعوب والمدعومة بالموروثات الثقافية والحضارية .

❖ فهم واستيعاب علاقة التلازم والعناق بين العقيدة والحضارة :

لعل من أهم المسائل التي كان على الرواد الأوائل فهمها بعمق واستيعابها بدقة علاقة التلازم والعناق بين عقيدة التوحيد وحضارة الإسلام ، فالعقيدة ليست رسالة مضمونها ديانة ذات أحكام وحدود وعبادات وفرائض ، ولكنها نظام اجتماعي وحياة كاملة ، وهذه الحياة التي تمارس من خلال الشعائر والنسك والعبادات وتراعي الأحكام والحدود والفرائض لابد أن تأتي في أشكال وتعبيرات وأنماط مادية هي المدنية والعمران ومعنوية هي الأخلاق والقيم ، وهذه وتلك تشكل الحضارة .

لقد كان من المحتم على الرواد الأوائل من معتنقي عقيدة التوحيد وحامليها إلى أقطار الأرض أن يعوا هذه العلاقة ويدركوا أبعادها وخطورتها ، لأنهم كانوا حملة عقيدة وبناة حضارة في نفس الوقت ، نشروا الأولى بين الناس ، ووضعوا أسس وقواعد الثانية في البلاد التي قُدر لهم الوصول إليها ودعوة أهلها .

إن الحضارة الإسلامية هي حضارة عقيدة صنعها معتنقو تلك العقيدة ، وطغت أفكار وقيم ومقومات تلك العقيدة على أشكال وتعبيرات ونماذج تلك الحضارة وكذا مقوماتها وعناصرها ، فالحضارة الإسلامية إذن ليست حضارة فكر وعقل بشري صرف ولكنها حضارة فكر وعقل بشري مسيج ومحصن بأفكار معتقدية ينطلق منها وغايات ومقاصد أيضاً معتقدية ينتهي إليها ، ومن ثم فالعقيدة بسماتها الإنسانية العالمية المكافحة خلقت حضارة تحمل نفس صفاتها وهي الإنسانية والعالمية والكفاحية .

إن من تحدثوا عن نظريات نشوء الحضارات تحدثوا عن مآرب وأهداف ذاتية تخص القائمين ببناء الحضارة وتهمهم وتهم حياتهم ومستقبلهم ، أما في حالة الحضارة الإسلامية فهي فريدة ، حيث تكمن في قيام الأشخاص بنشر فكرة سامية تحمل الخير والصلاح والفائدة للمجتمع الإنساني جميعاً وليس لحاملي الفكرة فقط ، فهي انطلاقة خلاقة مبدعة ومثالية ذات أهداف إنسانية سامية خالدة دون أية فائدة خاصة ، فهي تبحث عن السمو بالإنسان والترقي بقيمته دون أية أهداف ذاتية ، فالحضارة في الحالة الأولى قامت من أجل مصلحة الإنسان وتحقيق مآربه وأهدافه في حياة مادية مريحة ، أما في الحالة الثانية فقد قامت من أجل فكرة سامية ذات صبغة إنسانية عالمية هي الخير للآخر حتى يتعرف على خالقه ويعبده بحق ولا يعبد سواه .

المبحث الرابع

التعاطي مع البيئة والانطلاق منها

انطلاقة العرب من بدو وحضر لم تكن من أجل تحقيق مآرب ذاتيــة أو قبلية ، بل كانت لبث دعوة وفكرة سامية زرعت فيهم روح الكفاحية والجود بالنفس من أجل نشرها ، فقد كان للعقيدة وقعها وتأثيرها في فكر وعقل وسلوك العرب ، جعلتهم يؤثرون نشر الدعوة وتوصيلها إلى كل الناس على حياتهم ، فقد ملكت عليهم تلك الفكرة أنفسهم ، وباتوا ملكاً لها لا يطمحون في أكثر من حملها وتوصيلها وتبليغها إلى كل البشر ، وتفصيل كل ذلك فيما يلي :

أولاً : التعاطي مع البيئة :

إن العوامل الطبيعية لم تكن حاسمة ولم يكن تأثيرها صارماً على بناة الحضارة الإسلامية ، لأن تلك الحضارة نابعة من عقيدة كانت تلك العوامل تصغر أمامها ، وكانت تسخرها بسهولة لتحقيق مقاصدها وغاياتها ، وهي المقاصد والغايات الإنسانية العالمية التي تنظر إلى الإنسان مجرداً من أي شيء إلا الإيمان بالله ، وتخاطب كل البشر في أي مكان كانوا ، فانظر كيف أن البيئات القاسية في شبه جزيرة العرب في بداية الدعوة لم تحل دون انتشارها ؟ ! وكيف أن البيئات الأقسى في صحراء إفريقيا أو في آسيا الوسطى لم تحل هي الأخرى دون انتشار الإسلام وبناء حضارته التي ظهرت في أشكال مبهرة ؟ ! .

لقد تأقلم العرب مع بيئتهم قبل أن يصطفيهم الله بعقيدة التوحيد ، وقد بدا ذلك التأقلم في شكل أنماط حضارية بدأت بالبداوة وانتهت بالدول والممالك مروراً بالمراكز الحضرية المستقرة ، إن تعاطي العرب مع بيئاتهم ذات الطبيعة الخاصة يعكس مهارتهم وبروعهم ويؤشر إلى إمكانية قيامهم بدور مهم في إثراء الحضارة الإنسانية ، ولكن هل كانت

الحضارة العربية تمثل بالفعل إضافة ذات شأن إلى الحضارة الإنسانية ؟ من الصعوبة بمكان الجزم بأن الحضارة العربية يمكن أن تمثل إضافة يعتد بها للحضارة الإنسانية ، وذلك لأن الحضارة العربية لم تكن على مستوى الحضارات التي عاصرتها قبل ظهور الإسلام مثل الفارسية والرومانية وكذا الحبشية إلا أن الإسلام هو الذي مكّن تلك الحضارة ليس من الإضافة إلى الحضارة الإنسانية فقط ولكن مكّنها من ريادة تلك الحضارة بكل جدارة .

لقد بدا التأقلم العربي أوضح مع المعطيات الطبيعية بعد ظهور الإسلام وقيام دولته في المدينة المنورة ، وهذا التأقلم تطور بشكل لا نظير له عندما تجاوز الرواد الأوائل من المسلمين صعوبات تلك المعطيات والظروف وأقاموا مجتمعاً إسلامياً نموذجياً ، ثم وصل ذلك التأقلم ذروته عندما انطلق الرواد الأوائل من مجتمعهم البسيط في المدينة المنورة وبإمكاناتهم المتواضعة من أجل حمل العقيدة الجديدة وتوصيلها إلى مناطق العالم المختلفة وبصحبتها حضارة الإسلام .

إن الظروف الطبيعية الصعبة والمعطيات غير المواتية في بلاد العرب لم تكن أبداً دافعاً لهم للخروج من شبه جزيرتهم والبحث عن ظروف مواتية ، فالجدب والقحط لم يكونا دافعاً دفع المسلمين العرب للخروج من بلادهم والحصول على مزايا اقتصادية ومادية في بلاد الغير ، وحجتنا في ذلك أن العرب قد وجدوا في بلادهم منذ آلاف السنين ولم يحدث أن خرجوا منها إلى جيرانهم مندفعين بقلة إمكاناتهم وطمعاً في ما لدى الغير ، كما أن العرب لم يكونوا من القوة بما يؤهلهم للسطو على غيرهم وسلب ما لديهم .

إن ما حدث إذن هو أمر آخر يتجاوز التفكير المادي الاقتصادي الظاهري البسيط ، إن المسلمين العرب لم يطمحوا إلى السطو على غيرهم بل كان الأمر أعمق من ذلك بكثير ، إنها العقيدة التي جعلت معتنقيها يسخرون ما لديهم من إمكانات متواضعة قنعوا بها منذ

آلاف السنين من أجل هدف سامي رفيع هو نشر عقيدة التوحيد في ربوع الأرض ، وهذا الهدف لم يخالجه أية رغبة في مادة أو طموح في جاه أو سلطان ! ! .

ثانياً : الانطلاق إلى الأحياء العربية ونشر العقيدة وتعميم نمط الحضارة العربية الإسلامية :

إن ما سبق من تهيؤ نفسي واستعداد معتقدي أخلاقي وتأقلم مادي مع البيئة قام به العرب في مجتمعهم الجديد كان بمثابة الاستعداد للانطلاقة الأولى ، الانطلاقة إلى الأحياء العربية في بلاد العرب ، كيف تم ذلك ؟ وماذا كانت النتائج والأهداف ؟ :

❖ الانطلاقة إلى الأحياء العربية :

لقد كان الانتشار والتمدد الجغرافي والمكاني للعقيدة الجديدة حتمياً ، فكان عليها أن تنطلق من دولتها الناشئة ومجتمعها الجديد في المدينة المنورة التي بدأت قوتها في النمو ونجمها في الصعود على مستوى الحواضر العربية ، إذ أصبحت منافساً لمكة ، حيث تقاسمت معها الأدوار ، أدوار القيمة والأهمية الدينية والشعائرية والمعتقدية للعقيدة الجديدة ، فكانت مكة تحتل القيمة الرمزية لقلب العقيدة ومخها بما تحويه من البيت الحرام والكعبة المشرفة والمشاعر المقدسة إضافة إلى القيمة التاريخية ، في حين كانت المدينة المنورة تمثل العصب والحركة التي تبث في العقيدة النشاط والحيوية ، وأصبح لا غنى لإحدى الدرتين عن الأخرى .

صار السير إلى مكة وفتحها وتعميم الدعوة على ما حولها أمراً حتمياً ، وقد قرر ذلك الرسول الكريم ومن حوله من الصحابة الأجلاء ، وذلك لأسباب عديدة منها : القيمة الرمزية والمعتقدية والشعائرية لمكة – كما سبق وأشرنا – ومنها كذلك العلاقات والوشائج القديمة التي تربط بين المهاجرين ووطنهم الأول الذي خلفوا فيه ممتلكاتهم وأهليهم .

ومنها أيضاً الصراع الدائم الذي كان لابد أن ينتهي بين مشركي مكة والمسلمين ، حيث كان سادة مكة علي إصرارهم على هزيمة المسلمين ووأد الدعوة إلى العقيدة الجيدة ، ومنها أخيراً حماس المسلمين لفتح مكة لما سوف تضيفه إليهم من قوة تمكن للعقيدة الجديدة وللمؤمنين بها ، وضعف شوكة المشركين وانكسار قوتهم ويأسهم من النيل من العقيدة الجديدة في مقابل ما سجله المسلمون من انتصارات متتالية بمقدرات ومكنات متواضعة قوت من شكيمتهم وجعلت الكثير من أهل مكة يدخلون في الدين الجديد بالهجرة إليه أو وهم في بلدهم .

وكان فتح مكة ودخولها في الإسلام ومجيء الإسلام إليها بداية الانطلاقة الأولى إلى كافة أحياء وبلاد العرب ، وهكذا كللت كفاحية المجتمع الجديد والدولة الناشئة التي أصبح مركزها في المدينة المنورة بنجاحات لا بأس بها ، أضافت الكثير إلى العقيدة وحضارتها ، ولكنها فرضت عليها عبئاً آخر أثقل وأعنف وهو الانطلاق إلى عالم الآخر والخروج من إطار العروبة إلى إطار أوسع وأشمل هو إطار العالمية والإنسانية وتجاوز العرق والعنصر إلى الإنسان في كل مكان .

❖ نشر العقيدة :

لقد وضع الرسول الكريم ومن حوله صحابته الأجلاء نهجاً بديعاً لتعميم عقيدة الإسلام ومعها حضارته العظيمة ، مثلما وضعوا من قبل نهجهم الرائد المجيد في تشكيل دولة المدينة ومجتمعها الجديد ، وكان الرواد الأوائل قد اكتسبوا من الخبرة والتجربة ما جعلهم جديرين بقيادة العالم وريادة الإنسانية إلى أعظم حضارة وُجدت على ظهر الأرض ، حضارة الإسلام العظيم دين الله الظاهر .

كان نشر العقيدة وتعميقها في نفوس العرب ليس بالأمر السهل ، فهم – كما سبق القول –

لهم معتقداتهم ولم يسلموا بسهولة للعقيدة الجديدة ، فمنهم من آمن عن حق وصدق ، ومنهم من ظل مذبذباً بين الإيمان والكفر ، ومنهم من نافق وجاهر ، ومنهم من نافق وتستر ، وقد ظهر كل ذلك من العرب أمام قوة المسلمين التي صعدت بشكل ملموس ومخيف في ذات الوقت ، فمن لم يؤمن عن صدق ويقين من العرب آثر الرياء والنفاق خوفاً من قوة المسلمين وبأسهم وقد وضح ذلك جلياً بعد انتقال الرسول العظيم إلى الرفيق الأعلى ، إذ ارتد الكثير من العرب عن الإسلام ، وكان على الخليفة الراشد أبي بكر الصديق أن يعيد هؤلاء إلى حظيرة الإيمان ، وإلا ستتأثر قوة المسلمين وهيبتهم ، وما أحرزوه من تقدم بشكل ملموس ، وستتأثر العقيدة بالتالي .

إن نشر العقيدة بين العرب فرض عليها كفاحية من نوع خاص ، قد يختلف عن كفاحيتها التي ستتحلى بها عندما تخرج عن نطاق بلاد العرب إلى العجم فنشر العقيدة بين العرب أبرز ظاهرة لم تكن موجودة عند نشر العقيدة لدى غير العرب وهي " ظاهرة النفاق " فالعرب سرعان ما استوعبوا العقيدة ومحتوياتها ، فهي بلسانهم وعلى نبي منهم ، وبالرغم من ذلك فهم لم يقبلوها ، لأنهم اعتقدوا أنها نوع من فرض السيادة والسيطرة الإدارية والسياسية عليهم وهم يأنفون ذلك تماماً ، وأمام قوة المسلمين آثروا النفاق والرياء ، وبعد حين من الدهر عندما توفى الرسول الكريم عادوا إلى كفرهم وانفصموا عن الإسلام ، هذه الظاهرة لم توجد في المجتمعات غير العربية عندما وصلتهم الدعوة إلى العقيدة ، فهم إما يقبلون الإسلام بصدق ، وإما يرفضونه ويقاتلون المسلمين فيقتلون دون ما هم عليه ، وإما يفرون أمام قوة المسلمين ويتركون وراءهم كل شيء ، والحاصل أن ظاهرة النفاق لم يكن لها وجود عند نشر المسلمين لعقيدة التوحيد في المجتمعات غير العربية .

إذن كان على عقيدة التوحيد أن تكافح ضد ظاهرة النفاق التي أتقنها العرب ومعهم اليهود ، وظل الرسول الكريم يعاني من تلك الظاهرة طيلة حياته ، وبعد وفاته تفجرت آثارها

وتحولت إلى تهديد عنيف وخطير هدد العقيدة وحضارتها ، إلا أن تلك الكفاحية كللت بالنجاح عندما تمكنت قوى الإسلام من السيطرة على العرب المرتدين في حروب الردة الشهيرة التي خاضها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق ، وبرأت العقيدة بكفاحيتها المتنامية من داء كاد أن يفتك بها ، وانتهى الأمر بالسيطرة على الأحياء العربية ، وتوجت الانطلاقة الأولى بنجاح منقطع النظير جعلها مقدمة للانطلاقة الكبرى إلى عالم الآخر والخروج إلى الدنيا بأجمعها .

❖ محاولة تعميم نمط الحضارة العربية الإسلامية في الأحياء العربية :

كانت الخطوة الأخيرة في الانطلاقة الأولى التي انطلقتها العقيدة المكافحة وحضارتها المصاحبة لها قد تجسدت في محاولة تعميم نمط الحضارة العربية الإسلامية في الأحياء العربية ، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق يرد حول ماهية نمط الحضارة العربية الإسلامية الذي كان قد تبلور في ذاك الوقت ؟ لقد كان ذلك النمط بمثابة برعم صغير يحتاج إلى المزيد من الرعاية والعناية حتى يتفتح يانعاً مزدهراً يملأ شذاه الآفاق ويسر منظره الناظرين ، لقد تمثل ذلك النمط في مجتمع المدينة المنورة حاضرة الدولة الإسلامية الذي امتد ليشمل كذلك مكة المكرمة التي باتت قبلة المسلمين ومركزهم النسكي والشعائري ورمز العقيدة جميعاً ، ومن هاتين المدينتين خرجت الرموز الأولى والأسس المبدئية والقواعد الأصلية للحضارة الإسلامية بطابعها العربي الصرف ، لتنتقل إلى الأحياء العربية في كافة بلاد العرب التي دخلها الإسلام وعاشته بحرارة وذابت فيه وذاب فيها إلى أن أصبحا كلاً واحداً .

لقد تدرجت الخطوة الأخيرة في الانطلاقة الأولى لعقيدة الإسلام المكافحة ، تلك الخطوة التي تجسدت في محاولة تعميم نمط الحضارة العربية الإسلامية في الأحياء العربية في ثلاثة

منطلقات متتابعة ومتدرجة جاءت كما يلي :

– تخلي العرب التدريجي عن موروثاتهم الفكرية والسلوكية المرتبطة بأيام الكفر : كان على الرواد الأوائل حاملي الدعوة أن يعمدوا إلى تطبيق نهج غاية في الدقة والإبداع ، وقد أسس هذا النهج على إيجاد نوع من التزامن بين نشر العقيدة وترسيخ مقوماتها وأركانها في قلوب عقول العرب وبين حثهم على التخلي التدريجي عن موروثاتهم الفكرية والسلوكية المرتبطة بأيام الكفر، وقد ساعد على نجاح هذا النهج أن العقيدة نفسها جاءت مراعية لهذه الوضعية ، فلم تأتي بأحكام قطعية صارمة في كثير من المسائل المتعلقة بالفكر والسلوك ، وإنما عمدت إلى التدريج ، وكلما تعمق الإيمان في نفس المؤمن ازداد هو من ذاته ابتعاداً عن الموروثات البغيضة وتأصل كرهه لها لأنها تذكره بأيام وأفعال وأفكار لا يحب أن يتذكرها أو يعود إليها .

– الإقتداء بالرسول الكريم قولاً وفعلاً ، ثم بصحابته من بعده . لقد كان فضل الله على العرب عظيماً ، إذ جعل بين ظهريهم رسوله الكريم ، فأخذوا عنه دون واسطة فكان ذلك أثبت وأمكن بإيمانهم ، لأن الله يعلم أنهم كثيرو الشك إلى الكفر والنفاق أميل ، وكان لذلك أهميته القصوى في تثبيت الكثير من الأفكار والمعتقدات والسلوكات لدى الذين سيتحولون عما قريب إلى حملة للعقيدة مبشرين بها غيرهم من الأمم ، وكان الرسول الكريم لذلك يبعث بصحابته الثقاة الأجلاء إلى أحياء العرب لتعليمهم وإفهامهم ، كما كانت الوفود العربية ترد الرسول الكريم من كل صوب وحدب لتعلم العلم على يديه ثم تنقله إلى أقوامها ، وهكذا كانت هذه الفترة فترة تثبيت للأفكار والمعتقدات والسلوكات التي تعتبر أسس العقيدة ومقوماتهـــا وأركانها ، وستكون بعد ذلك أسساً للحضارة الإسلامية .

– الإقتداء بالمدينة ومكة في نماذج المدنية والعمران : بدأ نموذج الحضارة العربية الإسلامية يسري وينتشر في الأحياء العربية بشكل ملموس طيلة حياة الرسول الكريم ثم في عهد

خليفته أبي بكر الصديق ، وتمثل ذلك في أسس ومقومات الحضارة العربية الإسلامية مثل : بوادر التنظيم الأولى ، والنظام الاجتماعي ، والعمران والمدنية ، ومبادئ العلوم وبالذات الدينية ، وكانت الأحياء العربية مؤهلة للاستجابة السريعة لنقل ومحاكاة نماذج الحضارة العربية الإسلامية عن تلك المدينتين النموذج ، وذلك للصلة الوثيقة تاريخياً وحضارياً وثقافياً بين المدينتين والمدن العربية الأخرى ، فلم يكن هناك حاجز التاريخ أو حاجز الحضارة أو حاجز الثقافة الذي يمكن أن يعوق انتشار أو انتقال النموذج الحضاري العربي إلى الأحياء العربية التي ستصبح فيما بعد هي ذاتها نموذجاً للحضارة الإسلامية تحاكيه الأمم الأخرى غير العربية .

وربما كان نموذج المدينة المنورة هو الأقرب إلى المحاكاة والنقل كنموذج للحضارة العربية الإسلامية ، لأنه على عكس نموذج مكة نشأ نشأة كلية جذرية بعد هجرة الرسول الكريم إلى يثرب ، أما مجتمع مكة فلم ينشأ من جديد ولكن تم تعديله وفق أصول وأسس الحضارة الإسلامية ، وحتى نموذج مكة نفسه اقتدى وتأسى بنموذج المدينة في كثير من الأمور ، وقد وجدت الأحياء والحواضر العربية في نموذج المدينة المنورة أنه الأقرب إليها والأبسط في محاكاته ، وكان لوجود الرسول الكريم على رأس ذلك النموذج دلالته العظيمة في هذا الشأن .

لقد بدأت الانطلاقة الأولى للعقيدة العظيمة وحضارتها الواعدة بدولة المدينة ومجتمعها الجديد اللذين مثّلا معاً نواة الحضارة الإسلامية ، وفي هذه الانطلاقة أعتدت الرواد الأوائل وأكسبتهم الخبرة والتجربة للانطلاقة الكبرى إلى عالم الآخر ، ثم انتهت الانطلاقة الأولى بتهيئة العرب جُلهم لحمل العقيدة والخروج بها إلى الناس جميعاً ، وهذا هو موضوع الفصل التالي .

الفصل الرابع

الانطلاقة الكبرى ..

الخروج إلى عالم الآخر

هل طمح العرب بعد أن تقووا بالعقيدة المكافحة وتسلحوا بإصرارها ومضائها في قهر الآخـر وسلب مقدراته تحت غوائل الحاجة والعوز والقحط والجدب التي عانوا منها دوماً ؟ وهـل كان الآخر من الضعف والوهن والتفكك بما جعله لا يقـدر علـى الـصمود والتـصدي لحملـة العقيدة ويستسلم أمام أول كرة لها ؟ وهل كان العنصر العربـي يطمـح في أن يحقـق مجـداً ينسب إلى عنصره ويتفضل به على ما سواه من العناصر الأخرى ؟ .

في الحقيقة لم يكن كل ما تقدم مقنعاً لتقديمه كمبررات تقف وراء الانطلاقـة الكـبرى الـتي اندفعت بها عقيدة التوحيد إلى عالم الآخر لتعبر عن محتواها الإنساني ومـضمونها العـالمي ، فكل تلك المبررات إن هي إلا تحليلات شكلية ظاهرية تصدر عن فكـر عقلـي محـض لم يتعمق لسبر أغوار تلك العقيـدة وفهـم محتواهـا وفقـه مـضمونها ، فمـا تقـدم مـن أسـباب وتبريرات تصغر أمام تلك الانطلاقة ، ويعجز تماماً عـن إبـراز الحقيقـة وتجليـة الواقـع ، فهل يدل على عدم فهم ! أم يدل على تعجل وتسرع ! أم يدل على الانقياد وراء ما يقوله الآخـرون دون تمحيص أو تثبت ! ونحن أبنـاء الإسـلام ينبغـي أن يتـسم مـا يـصدر عنـا بخصوص عقيدتنا وحضارتنا بالدقة والعمق حتى يأخذ عنا أولئك الآخرون ! ! .

إن خروج عقيدة التوحيد بسمتها المميزة وهي الكفاحية إلى عـالم الآخـر في انطلاقـة لعلـها الفريدة من نوعها في التاريخ ليحتاج منا إلى تحليل متأني وتمحيص متعمـق ، لأن في ذلـك بحثاً عن جذور الحضارة الإسلامية وكيفية نشأتها وطبيعة مقوماتها ونماذجها وأشكالها ، لأنها ارتبطت بالعقيدة واكتسبت منها سمة الكفاحية وظلا متلازمتين أبداً .

وذلك الخروج يتطلب متابعة وتحليـل لعمليـات ثـلاث : الأولى حمـل الـدعوة ، والثانيـة توصيلها إلى المخاطبين بها ، والثالثة تبليغها ومتابعة نتائج التبليـغ ، ومـن خـلال تلـك المتابعة سيتضح الكثير عـن الأسباب الحقيقيـة والواقعيـة والموضـوعية الـتي وقفـت وراء الانطلاقة الكبرى والخروج بالعقيدة والحضارة الإسلامية إلى عالم الآخر .

ثمة مسألة أخرى جديرة بالتبيان ، وهي حالة العناق الذي تم بين الرواد الأوائل حملة العقيدة وبين المدد المتجدد من الذين اعتنقوا تلك العقيدة من عالم الآخر ، كيف تم ذلك العناق الحار ؟ وماذا حقق من نتائج انعكست على العقيدة ذاتها وحضارتها التي تسير دوماً في ركابها ؟ .

إن حالة العناق بين الرواد والمدد المتجدد قد أفضت إلى نتيجة نهائية مفادها أن العقيدة العظيمة وكذا حضارتها الواعدة باتا تتغذيان من داخليهما ، وتكتسبان يومياً الوقود والطاقة المحركة اللازمة لوجودهما واستمرارهما وتطورهما ، كيف كان ذلك وإلى ما أفضى ؟ .

في هذا الفصل نناقش الانطلاقة الكبرى للعقيدة المكافحة وخروجها إلى عالم الآخر وبصحبتها الحضارة الإسلامية ، لتتحلل من سمتها العنصرية العرقية وتكتسب سمتها العالمية الإنسانية لتصبح الحضارة الإسلامية دون عنصريات أو أعراق ، وستتم هذه المناقشة من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : حمل الدعوة وتوصيلها وتبليغها .

المبحث الثاني : العناق بين الرواد الأوائل والمدد المتجدد .

المبحث الثالث : العقيدة تتغذى من داخلها .

المبحث الأول

حمل الدعوة وتوصيلها وتبليغها

فيما يتعلق بانطلاقة عقيدة التوحيد المكافحة والحضارة التي صاحبتها تثور أسئلة عديدة ومتنوعة تثير لدى الكثيرين الهواجس والشجون ، ومن تلك الأسئلة : لماذا انطلقت عقيدة التوحيد هذه الانطلاقة الكبرى وخرجت هذا الخروج المجيد إلى عالم الآخر ؟ وهل فرض العرب حاملو العقيدة والحضارة الإسلامية عقيدتهم وحضارتهم على الآخر بقوة جيوشهم وعتادهم ؟ لقد ذهب الكثيرون في الإجابة على هذه الأسئلة مذاهب شتى ، وقدموا رؤى وطروحات متباينة ، ولا نعمد في هذه الجزئية إلى استعراض تلك الرؤى والطروحات ، لأن ذلك لا يستحق أن يشغلنا عن الأهم الذي يتبلور في تقديم التحليل الموضوعي الواقعي ، ويمكننا متابعة ذلك من خلال الآتي :

أولاً : مناقشة مبررات الانطلاقة والخروج :

ما الذي دفع المسلمين العرب إلى الخروج من بلادهم ميممين شطر الأمم المجاورة ، وهي الأعرق حضارة والأرسخ ثقافة والأكثر تنظيماً وإدارة وسياسة والأوفر ثروة ونفوذاً والأغنى قوة ومكنة ! سؤال تستلزم الإجابة عليه طرح الأفكار التالية :

❖ المسلمون العرب لم يكونوا الأقوى مادياً :

إن دراسة الأوضاع المادية للأمم التي انطلق إليها المسلمون العرب توصل إلى نتيجة مؤداها أن تلك الأمم كانت على درجة عظيمة من القوة الاقتصادية والمادية وكذا القوة العسكرية ، بالإضافة إلى التنظيم السياسي المحكم والترتيب الإداري الصارم ، كان ذلك شأن الفرس وكذلك كان شأن الرومان ومستعمراتهم في سوريا ومصر وشمال إفريقيا ، بالإضافة إلى مركز

الإمبراطورية في القسطنطينية ، كما أن هاتين الإمبراطوريتين كانتا على رصيد وافر من الموروث الحضاري والثقافي الذي يشهد به الجميع فقد كان الرومان والفرس في النصف الأول من القرن السابع الميلادي في صحوة فكرية وعلمية عظيمة .

وقد كان المسلمون العرب في المقابل هم الطرف الأضعف ، فقد كانت إمكاناتهم المادية متواضعة ، وتنظيمهم السياسي والإداري في طور الإنشاء والتكوين ، كذلك كانت قدراتهم العسكرية غير مهيأة وغير مجربة للصدام مع جيوش على غرار الفرس والروم ، ومن ثم فقد كانت كافة المعايير والمقاييس المادية في غير مصلحة العرب المسلمين وترجح عليهم الأمم الأخرى التي يتأهبون للخروج إليها .

❖ لم يطمح المسلمون العرب في السطو على مقدرات غيرهم :

قد يفضي ما تقدم إلى طرح مفاده أن المسلمين العرب قد فكروا في الخروج من شبه جزيرتهم في اتجاه الأمم الأخرى المجاورة لإقامة نوع من التوازن ، ولإحراز مزايا اقتصادية ومادية على حساب تلك الأمم هم في حاجة إليها ، ولكن ألا تعد هذه مغامرة كبرى وانتحاراً جماعياً لشعب يدرك حقيقة قوته ويقنع بمقدراته منذ آلاف السنين ! .

لقد عرف عن العرب أنهم ربما كانوا كثيري الاحتكاك والصدام ببعضهم ، ولكن لم يعهد عنهم أنهم اصطدموا بالدولتين الكبيرتين ، فقد أدركوا تماماً مدى قوتهم ومقدار قدرتهم ، ومن ناحية أخرى عاشوا في بلادهم وهم يعانون من ظروفها الطبيعية القاسية ويقاسون مواردها وثرواتها الشحيحة ، ولم تمتد أعينهم أو أيديهم إلى ما لدى الآخر ، بل احتالوا على الظروف الطبيعية العصيبة وشحت الموارد والثروات بتلمس السبل التي تكفل لهم العيش ولو بالكاد ، وكانت التجارة وسيلتهم إلى ذلك بالإضافة إلى الوسائل الأخرى مثل الرعي والزراعة والصيد وغيرها .

كذلك عُرف عن العرب أنهم راضون بوضعهم الاقتصادي والمادي ، قانعون بما توفر لديهم من رزق ، وقد كان ذلك دأبهم ، ولا يقدح في ذلك ما كان ينشب بينهم من احتكاكات وصراعات حتى ولو استمرت سنوات ، فهي احتكاكات وصراعات بينية تثيرها نعرات قبلية أو مآرب شخصية لا تتجاوز نطاق بلاد العرب .

وقد كان المسلمون في دولتهم الناشئة ومجتمعهم الجديد قانعين بمقدراتهم المتاحة على يقين من أن قوتهم المتواضعة لا ينبغي أن توجه إلا للدفاع عن العقيدة الجديدة ونشرها في كل الأنحاء ، ولم يكن هم المسلمين الأول هو إحراز النجاحات الاقتصادية والتفوق المادي على جيرانهم .

❖ **لم يكن المسلمون يطمحون في مجد ذاتي أو سلطان دنيوي :**

منذ أن انتقل الرسول الكريم إلى المدينة المنورة وشرع في إقامة دولة الإسلام الأولى ومجتمعه الجديد وهدف المسلمين لا يتجاوز نشر عقيدة التوحيد والدعوة لتلك العقيدة في كل الدنيا وإقامة حضارة إسلامية أساسها الشرع الحنيف ومقصدها وغايتها توحيد الله وإفراده بالعبادة ، ولم تختلج هذه الأهداف النبيلة والمقاصد السامية برغبة في مجد ذاتي أو طموح في سلطان دنيوي ، وظلت هذه النزعة الأخلاقية تميز عقيدة التوحيد وحضارتها في انطلاقتها الكبرى وخروجها إلى عالم الآخر ، وقد تجلى ذلك في موقف المسلمين الذي تأسس على توجيهات الخالق سبحانه من ثروات الأمم التي وصلتها الدعوة ودخلت الإسلام ، فقد كان ذلك الموقف فاصلاً حاسماً في توزيع الغنائم بين المسلمين وتفتيتها بينهم حتى لا تكون دولة بين الأغنياء منهم ، كذلك حث الخالق عز وجل على الحفاظ على ثروات الأمم التي دخلت إلى الإسلام واستفادة جميع المسلمين بها وإنمائها ، وكم كان ذلك النهج بديعاً أفاد الفقراء والعبيد والمحرومين من أبناء تلك الأمم من ثرواته التي

طالما حرموا منها ، وعليه فمن التجني الموتور والمعرفة الضحلة أن نصف انطلاقة عقيدة التوحيد الكبرى وخروجها الميمون إلى عالم الآخر بأنها كانت رغبة في مجد ذاتي أو جموح نحو سلطان دنيوي .

❖ **إنسانية العقيدة وعالميتها فرضت على المسلمين الاصطدام بالأمم الأقوى :**

مفارقة جديرة بالاعتبار والتأمل مفادها أن المسلمين لم يختاروا أمماً ضعيفة لنشر العقيدة فيما بينها ، بل إن إنسانية تلك العقيدة وعالميتها فرضت على المسلمين الاصطدام بالأمم الأقوى ، فالدعوة موجهة لكل البشر ولا تفرق بين قوى وضعيف أو فقير وغني ، وهم محاطون بأقوى قوتين في العالم في ذلك الوقت ، وأصبح هاتان القوتان هما المخاطبتان بالعقيدة ، ولو أن المسلمين يتصرفون في أمور الدعوة عن هوى لديهم لأصبح من المنطقي أن يعمدوا إلى انتقاء الأمم الضعيفة حتى يسهل نشر العقيدة فيما بينها .

❖ **كان المسلمون هم الأقوى بالعقيدة المكافحة والأغنى بالقناعة والرضا :**

كان أساس الانطلاقة الكبرى ومحور الخروج إلى عالم الآخر هو العقيدة المكافحة وما بثته في نفوس المسلمين وأرواحهم من عزم ومضاء وعزة وقناعة ورضاء بما حباهم الله من فضل وما اختصهم به من إيمان جعل كل شيء يصغر أمامه ، وهذا جعل الحضارة الإسلامية حضارة معتقد ، ولم تكن حضارة عرق أو عنصر ، وعليه فالعامل الأخلاقي والبعد الروحي كان محورها الأساسي ، ولم تنتسب الحضارة الإسلامية إلى عرق أو عنصر من العناصر التي دخلت فيها بل انتسبت إلى الدين والعقيدة التي كانت أساساً لها وهي عقيدة الإسلام الإنسانية العالمية المكافحة .

ثانياً : حمل الدعوة :

مهمة الجيش الإسلامي هي مهمة عقيدية بالأساس ، فهو يدافع عن العقيدة كمعتقد راسخ

في العقول والقلوب وكحقيقة نظامية في شكل دول وكيانات ، وهذا الدفاع يأتي ضد الاعتداءات والتعديات الخارجية أو التشققات وحركات الخروج الداخلية ، إضافةً إلي ما تقدم فالجيش يحمل الدعوة الإسلامية ، ويتحرك بها في الاتجاه الذي يراد توصيلها إليه ، ليتولى الدعاة تبليغها ونشرها .

وحمل الدعوة عن طريق الجيش يعنى أن ثمة أدوات وآليات مهمتها تبليغ الدعوة ونشرها بأساليب خاصة تسير في ركاب الجيش وترافقه ، وربما تتبعه وتعقب وصوله إلي الجهة المقصودة ، وهذه الأدوات والآليات هم الدعاة الذين أُعدوا خير إعداد وهُيّئوا أحسن وأمثل تهيئة ، حتى يكونوا أحسن أسوة وأصلح قدوة ، وأساليبهم في التبليغ معروفة تتدرج في منطلقات متتابعة تعتمد علي البسط والتبسيط ، والترغيب دون الترهيب ، لا تعرف الملل أو الكلل ، بل تسلك الأناة والصبر ، ولا تبتغي غير وجه الله وإعلاء دينه .[1]

وعن صفة الدعاة وهيئتهم في الجيش الإسلامي ، فهم إما أن يكونوا مقاتلين في صفوف الجيش ، وإما أن يكونوا مرافقين يتولون مهامً دعوية داخل الجيش للإرشاد وحث المقاتلين وتشجيعهم ، وهنا تجدر الإشارة إلي أن الدعاة في عهد الرسول الكريم كانوا علي رأس البعثات ، التي هي سرية أو جزء من الجيش ، فكان أمير السرية هو الداعية الأول ومعه معاونون ، أما في عهد الخلفاء الراشدين فقلما حدث ذلك ، إذ أن قيادة أو إمارة الجيش كانت قيادة متخصصة أي عسكرية بحتة ، أما الدعاة فكانوا إما مقاتلين أو مرافقين .

كذلك كان يمكن للدعاة أن يتعقبوا الجيش أي يصلون في أثره ، وبعد أن يتمكن من إزالة

---

[1] . لتفصيل أكثر يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد العاشر ، الدعوة إلي الإسلام ، الجزء الأول مفهوم الإسلام للدولة الداعية .

العوائق والحواجز التي تعوق وصول الدعوة إلي الشعوب المقصودة ، وفي هذه الحالة وفي كافة الأحوال كان يتم إختيار الدعاة بما يتواءم مع طبيعة البلاد التي يقصدها الجيش حاملاً الدعوة ، كأن يعرفون طبائع أهل تلك البلاد وخصائصهم ولغاتهم وموروثاتهم الحضارية والثقافية ، وغير ذلك من الأمور التي تسهل عملية الاتصال والتواصل مع شعوب تلك البلاد ، وتقديم الإسلام بالشكل اللائق والمناسب ولا يعتبر توافد الدعاة في أعقاب الجيش وعلى أثره إعفاءً له من مهمة حمل الدعوة ، لأن الجيش في هذه الحالة إذا لم يكن قد اكتنف الدعاة وانتظمهم في ثناياه ، فهو قد مهد لهم الطريق وسهل مهمتهم في الوصول إلي المخاطبين ومواجهتهم بشكل مباشر .

ثالثاً : توصيل الدعوة :

لقد حمل الجيش الإسلامي آليات وأدوات الدعوة في ثناياه أو في أعقابه ، ثم بات لزاماً عليه أن يوصلها إلي المخاطبين المستهدفين ، وهذه هي المهمة الثانية التي ينبغي عليه أن يتولاها فيما يختص بنشر الدعوة الإسلامية ، وتوصيل الجيش للدعوة عملية معقدة وتتكون من مراحل عديدة ، من الصدامات المتتالية التي يخوضها الجيش حتى ينتهي بالدعوة إلي الشعوب المخاطبة بها ، والصدامات المتتالية هي سلوك يسلكه الجيش من أجل إزالة العوائق والحواجز العديدة التي تحول دون وصول الدعوة وذلك عبر إدارة الصراع العضوي ، وتتجسد العوائق والحواجز التي علي الجيش أن يصارعها عضوياً أو فكرياً في الآتي :

❖ **الصراع مع جيوش قوية :**

شهدت فترة الخلافة الراشدة أهم فتوحات الدولة الإسلامية وأخطر مراحل انتشار الدعوة الإسلامية ، فقد دخل الجيش الإسلامي في صراع عضوي عنيف مع أكبر وأقوى جيشين لأعظم وأعتى إمبراطوريتين في التاريخ المدّون علي الإطلاق ، الإمبراطورية الفارسية

الساسانية والإمبراطورية الرومانية البيزنطية ، الأولى في ذاتها والثانية في مستعمراتها ثم في ذاتها ، لقد تعددت الصدامات بين هذين العملاقين ، ولم ينل أحدهما من الآخر ، فقد كانت قوتهما هائلة ومقدراتهما الاقتصادية كبيرة ، ورصيدهما الحضاري والثقافي وفير ومشهود ، فمن يمكنه أن يباري الأعظمين !! .

لقد تقدم الجيش الإسلامي المتواضع عدة وعتاداً القوى عقيدة وإيماناً ، تقدم ذلك الجيش ليزيح أول العوائق والحواجز ، ولكنه في ذات الوقت أهمها وأعتاها ، كانت قوة جيوش فارس والروم لا يُستهان بها ، ولكنها كانت هينة أمام قوة الجيش الإسلامي الذي قدّر له أن ينه كيان الإمبراطورية الفارسية من الوجود ، وأن يحرر أهم مستعمرات الإمبراطورية الرمانية في شرق المتوسط وشمال أفريقيا ، وأن يهدد كيان الإمبراطورية ذاته .

وكانت نهاية الصراع العضوي بين الجيش الإسلامي وجيوش الفرس والروم هي تبدد الأول، وانسحاب الثاني من الشام ومصر وشمال أفريقيا إلي غير رجعة ، ومن ثم كانت الحلقة التالية من الصراع .

❖ الصراع مع دول ونظم وتنظيمات :

بعد انتهاء الصراع العضوي بين الجيوش استجد صراع من نوع آخر ، صراع بين جيش لا يفهم إلا لغة الصراع العضوي ومنطق القوة وبين بقايا الكيان المنهار ، بقايا دولة بنظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. الخ ، وكذا تنظيماتها الإدارية ، فكيف يمكن للجيش الإسلامي أن يتجاوز هذا العائق ويتعامل مع هذه البقايا ، لقد تعامل الجيش الإسلامي بمنطق آخر غير منطق القوة ، وبلغة مختلفة سوى لغة الصراع العضوي ، لقد أفسح الجيش الطريق في مهارة وحكمة لأهل الاختصاص وذوى الشأن ، الذين يفهمون في الإدارة والسياسة لكي يديرون شئون هذه البلاد ويدبرون أمور أهلها ، وبدأ التعامل مع

تلك النظم والتنظيمات على أنها الأدوات والآليات المبدئية للإدارة والسياسة ، حتى يتم استدعاء الأدوات والآليات الإسلامية النابعة من الأطر المرجعية الإسلامية ، ومن خلال هذا التدرج تطورت الأمور والأوضاع ، وتم التمكين للأنظمة والتنظيمات الإسلامية دون عنف أو ترويع .

❖ الصراع مع الحكام والسادة والمتنفذين :

كانت الحلقة التالية هي حدوث مواجهة بين الجيش الإسلامي وبين الحكام والسادة والمتنفذين من أهل البلاد المفتوحة ، وأفضت تلك المواجهة إلي نتائج عديدة ، فمن هؤلاء من دخل الإسلام ولو على مضضٍ في البداية ، ومنهم من رفض الدعوة وآثر مواصلة الصراع العضوي وقضى نحبه ، ومنهم من آثر الفرار خارج البلاد ، وعندئذ أصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة الإسلامية لتصل مباشرة إلي الشعوب ، ويتم الخطاب المباشر بين الدعاة الذين سيتسلمون مهمتهم من هذه اللحظة التاريخية ، والشعوب الراغبة في التعرف علي الدين الجديد التواقة إلي التحرر والانعتاق من نير الاستعباد والسيطرة .

رابعاً : تبليغ الدعوة :

من هنا استلم الدعاة مهمتهم وبدأوا يباشرون أعمالهم وأسدل الستار على دور الجيش وتحول إلي دور آخر ، هو دور المدافع عن الوضع الجديد المرسخ له والداعي إلي الأمن والاستقرار ، وخلال هذه المرحلة الجديدة كانت هناك جملة من التدابير كان على الدعاة القيام بها ، وهي تتمثل في الآتي :

❖ وضعية الشعوب المحررة :

وضعية الشعوب المحررة التي أعتقها المسلمون ورحل عنها قاهروها وجلادوها ، وضعية معقدة ومركبة ، فلأول مرة يصبح هؤلاء أحراراً ، ويملكون حرية الاختيار في أهم وأثمن ما

يمكن أن يمتلكه الإنسان وهو المعتقد ، لقد قدّر لهم أن يروا سادتهم وكبراءهم يُذلون كما أذلوهم من قبل ، ولكن المهم أنهم في مفترق طرق وعليهم تحديد توجههم ومسارهم .

❖ توزيع الأدوار بين الجيش والسياسة :

أما عن الطرف الإسلامي فكانت هناك عملية بديعة لتوزيع الأدوار بين الجيش والسياسة ، فالجيش كان عليه أن يتحول إلي دوره – الذي سبق وأشرنا إليه أعلاه – ، وعلى السياسة أن تحل محله ، وهنا يمكن لقائد الجيش أو أميره أن يتولى الإمارة العامة على الإقليم أو الولاية ، ولكنه لا يتولى أمر الدعوة .

وربما يبعث المركز بأمير غير أمير الجيش ليتولى الإمارة العامة علي الإقليم ، ولا علاقة له أيضاً بمسألة الدعوة ، وقد يكون هناك أميران يتقاسمان الولاية العامة ، حيث تصير ولاية كل منهما ولاية خاصة ، يتولى بموجبها مجموعة من المهام مثل إقامة الصلاة ، أو جمع الضرائب ، وفي هذه الحالة أيضاً لا يكون لأي من الأميرين شأن بمسألة وشئون الدعوة ، فالأخيرة لها أصحاب الشأن والتخصص .

❖ الدعاة والتبليغ القائم على التخيير والاختيار :

يتولى الدعاة الذين جاءوا بصحبة الجيش أو في أعقابه أمور الدعوة إلي دين الله ، بتعريف الناس على الإسلام وما يحمله من قيم وفضائل ، ويتركون لهم حرية الاختيار ، ولقد حاول الكثيرون التدخل في هذه الجزئية المهمة من جزئيات العلاقة بين الجيش والدعوة الإسلامية ، تلك العلاقة الدقيقة والعضوية والتي ينبغي أن تعالج بدقة وموضوعية كما حاولنا تناولها ، فامتدت إليها يد العبث والحقد فطمستها وعتّمت عليها حتى لا يراها المنصفون ، ويتوهم المتابع أن الجيش فرض الدين الجديد ، وهو من ذلك برئ .

لقد انتهت مهمة الجيش بإزالته آخر حاجز من حواجز الإحالة بين الدعوة والشعوب ،

وفوّض الأمر إلي الدعاة كي يتولوا مهمة التبليغ ، وتصبح العلاقة مباشرة بينهم وبين تلك الشعوب بعد إزاحة الحكام والسادة والمتنفذين ومن ثم فالجيش الإسلامي قد تحددت علاقته بالدعوة في كونه حاملاً موصلاً أما الدعاة فكان عليهم البلاغ المبين ، وأما الإيمان فأمره إلي الله ، فهو القائل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .[1]

والقائل ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .[2]

والقائل ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .[3]

والقائل ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .[4]

والقائل ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ .[5]

❖ الصراع مع الموروثات الحضارية والثقافية :

إن علي الدعاة أن يخوضوا أيضاً صراعاً ، ولكنه صراع فكري أدواته الحجة والبرهان

---

[1] . سورة إبراهيم : ٤ .

[2] . سورة النحل : ٩٣ .

[3] . سورة القصص : ٥٦ .

[4] . سورة فاطر : ٨ .

[5] . سورة المدثر : ٣١ .

وحسن البيان والقدرة على التبيين ، عليهم وهم يدعون إلـي ديـن الله بالحكمـة والموعظـة الحسنة والجدال بالمنطق ، أن يصارعوا ما توارثته هذه الشعوب من عادات، وتقاليد وأفكـار ، فيدحضوا حيثياتها ، ويفندوا وجودها وجدواها ، حتى يتمكنوا من إزالتهـا مـن ذاكـرة ووعـــي تلك الشعوب ، ويُحلوا محلها معتقدات الإسلام وقيمه ، فيتم الاختيار علي يقين ، ويتم الإيمان على بينة ، فيرسخ في العقل والقلب معاً وهذا ما كان .

المبحث الثاني

العناق بين الرواد والمد المتجدد

من قرارها المكين انطلقت عقيدة التوحيد المكافحة إلى العالمية ، خاطبت أقواماً مختلفي الأهواء والمشارب ومتبايني الأفكار والمعتقدات وغريبي العادات والتقاليد والثقافات والحضارات ، كل هؤلاء وصلتهم رسالة واحدة ذات محتوى ومقصد محدد يتسم بالخلود والأبدية ، لا يفرق بين البشر ولا بين أماكنهم وبيئاتهم ، وكانت الاستجابات متباينة بتباين أعراق الناس وبيئاتهم ، ولقد خلّفت الاستجابة رعيلاً جديداً من حملة العقيدة من أصول غير عربية ، وشكّل هذا الرعيل مدداً متجدداً للعقيدة ، ماذا عن هذا المد ؟ وكيف استقبل العقيدة ؟ وكيف ساهم في بناء الحضارة الإسلامية ؟ وكيف تعانق مع الرواد الأوائل ؟ وماذا كانت نتيجة ذلك العناق ؟ :

أولاً : ماذا عن المد المتجدد ؟

استقبل العقيدة وتجاوب معها حشد عظيم من البشر ، من كافة الأعراق والأجناس الموجودة في ذلك الزمان ، من الفرس ومن الأتراك ومن الرومان ومن الأقباط ومن الأحباش ومن البربر وغيرهم آخرين .

وقد تباينت المستويات الفكرية والثقافية والاجتماعية والمادية للمتلقين لعقيدة التوحيد فكان منهم السادة الكبار ، ومنهم متوسطو الحال ، ومنهم متواضعو الأقدار ، ولم يكن حماسهم للعقيدة متناظراً في بادئ الأمر ، إلا أن أحوالهم اختلفت بعد ذلك بشكل ملفت للانتباه .

وبعد فترة غير طويلة كان ثمة تجاوب وتآلف بين العقيدة الجديدة وبين المتلقين لها وصل ذروته عندما أصبح هؤلاء المعتنقون للعقيدة مدداً متجدداً يدفع بها بشكل مستديم إلى الانتشار .

لقد انتهى أمر هؤلاء المتلقين لعقيدة التوحيد إلى أن ذابوا في هذه العقيدة ، وصهرتهم في بوتقتها ، وتحولوا إلى حملة لها ، واصلوا مسيرة نشرها والدعوة إليها ، وقد كان لهؤلاء شأنهم في ما بعد .

ثانياً : تجدد المدد :

كان المدد يتجدد باستمرار وكان ذلك التجدد يتم بطريقتين : الطريقة الأولى هي الطريقة التقليدية التي كانت تعقب عمليات الفتح بالوصف الذي أوضحناه في المبحث السابق ، الطريقة الثانية هي الطريقة التي تمت بأساليب غير طريقة الفتح وهي طريقة الدعوة السلمية من خلال التجارة والعلاقات الاجتماعية والإنسانية التي تمت بين المسلمين وغيرهم .

ثالثاً : العناق بين الرواد الأوائل والمدد المتجدد :

تعددت اللقاءات بين الرواد الأوائل والمدد المتجدد ، كان اللقاء الأول في بداية الدعوة وهي المرة الأولى التي التقى خلالها الرواد بالمدد المحتمل ، ونشأت عند ذلك علاقة طيبة بين الطرفين سادها القبول والارتياح ، تحولت إلى علاقة حميمية ، ثم انتهى بهما الأمر إلى علاقة عناق وذوبان ، وأصبح الجميع في عداد الدعاة حملة العقيدة .

المبحث الثالث

العقيدة تتغذى من داخلها

لقد وصلت العقيدة المكافحة إلى درجة عظيمة من النضج والرسوخ عند عدد كبير من معتنقيها وفي أماكن كثيرة من العالم المتعارف عليه في ذلك الوقت ، إن العقيدة المنطلقة أصبحت تتغذى من داخلها ، فالشعوب الجديدة التي تدخل إلى الإسلام تضيف إليه قوة جديدة ، تساعده على مواصلة الانتشار وتزيد من انطلاقته ، حدث ذلك مع الفرس ثم مع الأقباط والبربر والأتراك وغيرهم .

تمكنت العقيدة الإسلامية من صهر الأعراق والأصول والثقافات والموروثات في بوتقتها وأذابتها جميعاً وأخرجت منها مزيجاً ذا خصائص وسمات مميزة جعلت كل عرق وأصل وثقافة وحضارة يستشعر أن هذا المزيج الجديد يعبر عنه ويعكس مكوناته ، فأصبح الإسلام وحضارته وثقافته هو عقيدة وحضارة وثقافة المنتمين إليه أينما كانوا وحيثما وجدوا ، وربما تخيلوا من شدة انتمائهم إليه وقوة اعتناقهم له أنه يخصهم وحدهم .

الفصل الخامس

الانطلاقـــة الإنسانيـــة

بعد انطلاقتها الأولى شرعت العقيدة المكافحة تسفر عن سماتها الخاصة ، وتمثلت أول تلك السمات في السمة الإنسانية ، وكانت السمة الإنسانية متأصلة ومتغلغلة في ثنايا تلك العقيدة ، كذلك ارتبط بهذه السمة سمة أخرى تجسدت في العالمية ، وكان من المنطقي والطبيعي معاً أن تنقل العقيدة هاتين السمتين إلى الحضارة التي رافقتها دوماً وارتبطت بها أبداً ، فاكتسبت الحضارة الإسلامية سمتي الإنسانية والعالمية .

وجاءت الاستجابة على قدر عظم الرسالة ، فاستقبلت كافة العناصر والأعراق العقيدة بقلوب طيّعة وعقول نيّرة ، وانبرت جميعها تشيد صروح حضارة الإسلام ، فخرجت تعبيرات ونماذج الحضارة الإسلامية في كافة بلاد المسلمين تحمل طابعاً واحداً وقاسماً مشتركاً ينطقا معاً بعقيدة وحضارة الإسلام ، لقد ذابت كل الأعراق في إطار العقيدة المكافحة فخرجت الحضارة الإسلامية معبرة عن سعة أفق ذلك الإطار ، وقدرته على استيعاب كافة تلك العناصر بما تصحبه من موروثات حضارية وثقافية لا تزال عالقة بذاكرتها العامة ووعيها الجماعي ، وجاء ذلك التعبير في مزيج رائع من الهوية الإسلامية الطاغية تتخللها اللمحات ذات الخصوصية ، وهكذا كانت حضارة الإسلام إسهاماً من كل المسلمين .

في هذا الفصل نتناول الانطلاقة الإنسانية للعقيدة المكافحة وانعكاس ذلك على الحضارة الإسلامية التي جاءت لجميع الناس وساهم فيها كل الناس ، ويتم ذلك التناول من خلال مبحثين على النحو التالي :

المبحث الأول : الإسلام وحضارته للناس أجمعين .

المبحث الثاني : كل الأعراق والعناصر تشيد صروح الحضارة الإسلامية .

المبحث الأول

الإسلام وحضارته للناس أجمعين

الإنسانية سمة عامة تسم الجنس البشري مجردة إياه من كافة العوارض الزائلة مثل : العرق والأصل والمركز المادي والوضع الاجتماعي والمحتوى الفكري والتوجه العقلي وتتعامل معه بمنطق الروح الواحدة والخصائص الطبيعية الغريزية .

وكانت هذه إحدى أهم سمات العقيدة المكافحة ، فقد نظرت إلى الإنسان بمنظار يتفق مع كونها جاءت من لدن خالق ذلك الكائن ، فقد أرسل الحق تبارك وتعالى عقيدة التوحيد لتخاطب في الناس طبيعتهم الإنسانية التي أساسها وجوهرها الروح ثم غلافها ومظهرها المادة ، وعليه فالبشر أمام عقيدة التوحيد سواء ، لا فضل لأحدهم على آخر إلا بما وقر في قلبه من إيمان وما تركه ذلك الإيمان على جوارحه من أمارات ، وتوضيح ذلك يتم فيما يلي :

أولاً : رسالة العقيدة إنسانية موجهة إلى كل البشر :

كان الرسول الكريم على علم يقيني من ربه بأنه قد أرسله إلى الناس كافة ، وقد بين ذلك في الذكر الحكيم ، وكذلك كان الرواد الأوائل يعلمون ويعون أنهم إنما اختصوا واصطفوا لحمل الرسالة إلى الناس كافة أيضاً تحت إمرة ذلك الرسول الخاتم ، وقد انطلقوا يحملون الرسالة إلى كل الدنيا ، وهم موقنون بذلك ، ولا علاقة لهذا الأمر بالعنصر الذي ينتمي إليه الرسول الكريم والرواد الأوائل ، فاصطفاء العنصر العربي لمهمة الانطلاقة الأولى والخروج المجيد إلى العالم هو تشريف ولكنه تكليف شاق في ذات الوقت ، فمهمتهم كانت أعظم وعبئهم كان أثقل ، إذ كان عليهم الانطلاق إلى جميع البشر حتى تستطيع هذه العقيدة بعد ذلك أن تعتمد على نفسها وتتغذى من داخلها ، ثم يواصلون دورهم ضمن

كافة العناصر التي انتظمهم الإسلام تحت لوائه ، حيث يشترك الجميع في صياغة حضارة الإسلام كل بما قُدر له .

لقد استشعر المخاطبون بالعقيدة من كافة الأعراق والعناصر هذه السمة ثم لمسوها وعايشوها واقعاً وسلوكاً ، وكان ذلك مستنداً على مرجعيات راسخة مصدرها الخالق العظيم والرسول الكريم ممثلة في القرآن الحكيم والسنة النبوية المطهرة ، وكانت الاستجابة رائعة ، حيث زادت من حماس تلك العناصر ، وقوّت رغبتهم في اعتناق العقيدة والدعوة إليها ، وشاركوا العنصر العربي في ذلك وشكّلوا مدداً متجدداً .

لقد أصبح كل البشر مخاطبين بالدعوة ، ولا فرق بينهم في استقبالها ، ولا فرق بينهم كذلك في اعتناقها ، وبعد اعتناقها لا يفرق بين المؤمنين بها إلا قوة إيمان كل منهم ، فالمساواة إذن هي إحدى عُمد عقيدة التوحيد ، وترتبط بإنسانية تلك العقيدة ارتباطاً عضوياً ، وسيستمر هذا الخطاب بهذا المنطق موجهاً لبني البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد كافحت عقيدة التوحيد من أجل أن تصل إلى كافة الأعراق ، وكافحت كذلك من أجل أن تثبت وترسخ قيم المساواة والتآخي بين أبناء العقيدة ، وتذيب فروق العنصر والعرق ، ولكن هل قدر لكافة العناصر والأعراق أن تستجيب لهذه القيم ، وتسلم من شوائب العرقية وتبرأ من إرسابات العنصرية .

إن الملاحظ أن المسلمين قد استجابوا لتلك القيم ، وكافحوا من أجل ترسيخها في عقولهم وسلوكاتهم خلال حياة الرسول الكريم وخليفته أبي بكر الصديق ، إلا أنه عندما خرجت العقيدة خارج إطار العروبة على العالم أجمع ، وخاطبت كافة الأعراق ، ودخل الناس من كل الأجناس في دين الله بدأت تلك القيم تبسط على محك تجربة قاسية ، حيث طفت

العنصرية والعرقية على سطح التفاعلات الاجتماعية ، بالرغم من اجتهادات الخلفاء الراشدين الهادفة إلى تلافي إفرازات ذينك الرزيلتين إبتداءاً من عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب .

فقد خشي بن الخطاب على العرب من سكنى المدن وامتهان المهن الثابتة مثل الزراعة والحرف وغيرها ، وكان مقصد الرجل نقياً خالصاً ، فقد كان يخشى على العرب من أن تفتر همتهم ، ويتقاعسون عن مواصلة الانطلاقة بالعقيدة العالمية المكافحة ، كما كان يخشى على العرب من الاختلاط بالعناصر والأعراق الأخرى فيذهب نقاء عنصرهم ويقل حماسهم وحماس نسلهم المختلط للعقيدة ولنشرها ، وقد أسيء فهم مقصد بن الخطاب ، واستثمر البعض تلك المقاصد من أجل إثارة النعرات العرقية ، وعمدوا إلى تفضيل العنصر العربي على غيره من العناصر والأعراق ، وكان لذلك عواقبه الوخيمة ، حيث ظهر الكثير من الانعكاسات والمثالب التي فرضت على العقيدة مزيداً من الكفاحية للتصدي لتلك السوءات والنعرات المترتبة عليها .

وبقيت العقيدة في ذاتها خالصة نقية من أية نعرات عرقية أو نزعات عنصرية ، وظلت محتفظة بقيم المساواة والإنسانية والأخوة في الدين ، وستظل كذلك إلى أبد الآبدين ، لأنها جاءت من الخالق هكذا خالصة نقية .

ثانياً : حضارة الإسلام وسمتها الإنسانية موجهة لكل الناس :

ذكرنا أن حضارة الإسلام تتبع عقيدة التوحيد أينما حلت ، وتحمل نفس سماتها فهي إذن حضارة إنسانية موجهة إلى كل بني البشر ، فكل المسلمين سيساهمون في بناء نمط حضاري واحد قائم على قواعد وأصول ثابتة للتعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون .

فكل من يؤمن بعقيدة التوحيد إما أنه سيساهم في بناء حضارة الإسلام المصاحبة لتلك العقيدة ، إذا كان من ذوي ملكات الابتكار والإبداع ، وإما أنه سيمارس سلوكات حضارية تابعة لحضارة الإسلام المرتبطة بعقيدة التوحيد .

إن التلازم بين عقيدة التوحيد وحضارة الإسلام تلازم لا انفصال فيه ، ولا يمكن أن يحدث ذلك الانفصال في أي وقت من الأوقات ، إلا في حالة الانقطاع الحضاري ، وهنا فالعقيدة تتحول إلى ديانة تحوي نسقاً من النسك والشعائر والعبادات والحدود والأحكام والفرائض ولا علاقة لها بنسق الحياة الاجتماعية التي تتحول هي الأخرى إلى حياة مادية بحتة لا تسودها قيم العقيدة ولا تضبطها مبادئ ومثل الإسلام ، ومن ثم لا يمكن الحديث عن نظام اجتماعي إسلامي أو الإسلام كنظام اجتماعي ويصبح لا معنى للحديث عن الحضارة الإسلامية .

المبحث الثاني

كل الأعراق والعناصر تشيد صروح الحضارة الإسلامية

انتهينا في المبحث السابق إلى أن الإسلام وحضارته للناس أجمعين ، فكل بني البشر في كل مكان وفق هذه النتيجة مخاطبون بعقيدة التوحيد ومخاطبون كذلك بالحضارة المصاحبة لتلك العقيدة وهي حضارة الإسلام .

وعليه فقد انتصبت للإسلام ذات حضارية لها جذورها ومصادرها ومرجعياتها ، ولها كذلك مقوماتها وأشكالها ونماذجها ، ولها أيضاً خصائصها وسماتها ، ولها أخيراً مقاصدها وغاياتها ، وهذه الحضارة بالوصف المتقدم تمثل الاستجابة الطبيعية والمنطقية التي أجاب بها المخاطبون بعقيدة التوحيد على تلك العقيدة ، فقد قبلوا العقيدة واعتنقوها وذابوا فيها ، وكان رد فعلهم واستجابتهم متمثلة في الحضارة الإسلامية ، فحضارة الإسلام رد فعل من المسلمين على عقيدة الإسلام ، ومن ثم كان التلازم بين العقيدة الإسلامية والحضارة الإسلامية ، وكان كذلك التناظر في السمات والخصائص ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

أولاً : الاستجابة على قدر عظم الرسالة :

لماذا كانت حضارة الإسلام عظيمة شامخة إنسانية خالدة ، تحمل من القيم ما لم تحمله ولن تحمله حضارة أخرى ؟! كانت حضارة الإسلام كذلك لأنها جاءت بمثابة رد فعل على عقيدة التوحيد التي جاءت من الخالق العظيم إلى الكون كله ، لكي يوحّد ويمجّد ويقدّس خالقه الحي القيوم ، فعقيدة التوحيد إذن هي رسالة الخالق إلى خلقه ، ولابد أن تكون الاستجابة على قدر عظم الرسالة ، فكانت الاستجابة متمثلة في حضارة الإسلام العظيم ، إنها الحضارة التي تعبر عن سلوكات أبناء عقيدة التوحيد مع الكون وفق ما جاءت به عقيدتهم .

لقد حملت عقيدة التوحيد تعاليم وأصول وقواعد التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، وكان على كل من يعتنق تلك العقيدة أن يتعامل مع الكون وموجوداته والوجود وعناصره وفق تلك التعاليم ، ومن ثم نتجت الحضارة تعبيراً عن ذلك التعامل ، إن من يحيي عقيدة التوحيد ، ويعيش وفق أركانها ومقوماتها لابد أن يتفاعل مع الكون والوجود بأساليب وطرق وأنماط بذاتها ، فينتج عن ذلك نماذج حضارية هي عينها حضارة الإسلام تصبح بمثابة التفاعل والتناغم والانسجام مع الكون والوجود بتعاليم وأصول وقواعد عقيدة التوحيد .

لقد كان من نتيجة ما تقد أن أصبح العامل الأخلاقي والوازع الروحي هما عماد ومحور وجوهر حضارة الإسلام ، لأن عقيد التوحيد التي صاغت قواعد وأصول التعامل مع الكون قد صاغتها على أسس أخلاقية ومبادئ روحية ، فجاءت أنماط الحضارة الإسلامية مرتكزة على أسس أخلاقية روحية ، وهذا هو الفارق الجوهري الذي أعطى حضارة الإسلام التفرد والتميز عن أية حضارة أخرى .

كان على المسلمين أن يدركوا حقيقة الارتباط والتلازم بين عقيدتهم وبين ما يشرعون في بنائه من حضارة ، وبالفعل أدرك الرواد الأوائل من المسلمين مع المدد المتجدد من الأعراق التي اعتنقت عقيد التوحيد تلك الحقيقة ، فكانت استجابتهم على قدر عظم الرسالة التي تحملها تلك العقيدة ، وجاءت حضارة الإسلام عظيمة متفردة في كل شيء .

ثانياً : كافة الأعراق تقدم كل ما لديها وتبني حضارة الإسلام :

لقد أصبحت حضارة الإسلام مسئولية كافة الأعراق التي اعتنقت عقيدة التوحيد ، وصار من المحتم على كل عرق وعنصر أن يجتهد من أجل تقديم ما لديه من إبداعات وابتكارات لبناء صروح حضارة الإسلام .

وفي ذلك كانت هناك قواعد وأصول وقواسم مشتركة يلتزم بها الجميع ، وتجمع بين كافة العناصر والأعراق ، ومن ثم كانت مخرجات الإبداع وإفرازات الابتكار المبنية على تلك القواعد والأصول والقواسم مشتركة ومتطابقة ، وباتت تحمل الهوية الإسلامية الخالصة التي تعكس حضارة الإسلام وعقيدته ، ولا تتصل أو ترتبط بالعناصر والأعراق وما لديها من خصوصيات ثقافية أو ذاتيات حضارية .

لقد كانت إبداعات وابتكارات المسلمين رائعة في كافة المجالات التي أصبحت فيما بعد مقومات وأشكال ونماذج وتعبيرات للحضارة الإسلامية : في الدعوة إلى العقيدة والحضارة الإسلامية ، في التنظيم بكافة أشكاله الإدارية والسياسية ، في النظام الاجتماعي ، في الجيوش ، في العمران والمدنية ، في العلوم والمعارف بكافة توجهاتها الدينية والدنيوية ، في كل ما تقدم ساهمت كافة العناصر والأعراق التي انضوت تحت لواء الإسلام واعتنقت عقيدتهم ، وأصبحت المخرجات الناتجة عن تلك الإبداعات والرصيد المتراكم المترتب على تلك الابتكارات ملكاً للمسلمين في كل مكان ومن كل عرق وعنصر بل وفي كل زمان ؛ أصبحوا جميعاً شركاء في تلك الحضارة ، ومشاركين في نماذجها وتعبيراتها ، ومعنيين بتطورها ومستقبلها ومهتمين بكل ما يصيبها من انقطاع أو تدهور أو تداعي فهي بهم ولهم .

وهكذا برزت كفاحية العقيدة وحضارتها في قدرتها العظيمة والفائقة على لمّ شمل المسلمين وتجميعهم وتأليفهم في إطار واحد يبدعون جميعاً ويبتكرون جميعاً ، يحدوهم هدف وحيد هو الإسلام وحضارته ، ذابت الأعراق والعناصر وتلاشت الأهواء والمشارب واندثرت الخصوصيات والذاتيات أمام تلك الكفاحية الرائعة ومضائها الجبار .

ثم برزت الكفاحية وتجلت مرة أخرى وبإبداع لا يقل عن ذي قبل في السماح للخصوصيات بأن تبدو دون صخب وللذاتيات بأن تبرز دون تشرذم وتحزب كلاهما برز

في لمحات لطيفة هادئة وإشارات رقيقة هيّنة وتعبيرات بسيطة قيمة تتخلل الإبداعات وتأتي في ثنايا الابتكارات ، فتطل النماذج والأشكال الحضارية الإسلامية في كل متناغم متناسق معبر عن الهوية الإسلامية مجامل للعرقية والعنصرية حاصل منها على أجمل وأرق وأروع ما فيها غاض الطرف عن ما فيها من شوائب التحزب وإرسابات التشرذم وتداعيات التفرق !! .

لقد أبدع كل عنصر فيما قدّر له أن يبدع ، وابتكر كل عرق فيما شاء الله له أن يبتكر ، وقدمت كل نفس ما في وسعها ، وكانت حضارة الإسلام جماع جهد المسلمين في كل مكان ، فهناك من أبدع في أصول الدعوة وأساليبها ووسائلها ، وهناك من أجاد في مسائل التنظيم الإداري والسياسي ، وهناك من امتاز في النظام الاجتماعي ، وهناك من ابتكر في العمران والمدنية ، وهناك من اجتهد في العلوم الدينية والدنيوية ، وهناك من استبسل في الدفاع عن حمى الإسلام وحضارته .

ثالثاً : كفاحية العقيدة وحضارتها في الدعوة السلمية والعلاقات الإنسانية:

أتمت العقيدة الإسلامية سمتها الإنسانية من خلال روح الكفاحية التي بثتها في حضارتها في الدعوة السلمية والعلاقات الإنسانية بالآخر ، وقد انبعث في ذلك من أصول وقواعد مستقاة من مرجعياتها المعتمدة وهي القرآن الكريم والسنة المطهرة ونموذج دولة الرسول الكريم ، وتوضيح ذلك من خلال الآتي :

❖ **كفاحية الدعوة السلمية :**

إنسانية العقيدة وحضارتها تجاوزت الدعوة بشكلها التقليدي الذي تمثل في الفتح وإزالة عوائق الدعوة بالوسائل العنيفة والصراعات العضوية إلى الدعوة بشكلها السلمي البسيط الذي يتم عبر العلاقات والتبادلات الاجتماعية والتجارية وغيرها ، وقد بذلت عقيدة

التوحيد جهوداً جبارة أبرزت قدرتها الكفاحية على العمل في هذا الاتجاه ، فقد خاضت تجربة الدعوة السلمية في أماكن كثيرة من العالم ، وانتشرت العقيدة في أقاليم شاسعة عبر هذه التجربة وقامت على أثر ذلك نماذج مزدهرة وأشكال يانعة من الحضارة الإسلامية في تلك الأماكن والأقاليم .

لقد ابتدعت العقيدة من الأساليب والوسائل المستقاة من المرجعيات الإسلامية ما مكنها من الدعوة السلمية بطريقة أثبتت أن تلك العقيدة لم تقتصر على الدعوة عن طريق الفتح بل أنها تصل إلى الناس عبر كافة الطرق والوسائل ، وأنها تصل إلى الناس باختيارهم ولا تفرض عليهم ، ومن الناس من أقبل على العقيدة برغبته وإرادته واعتنقها طواعية .

❖ العلاقات الإنسانية :

فيما يتعلق بالعلاقات الإنسانية كان لعقيدة التوحيد منطقها القويم الذي صنف تلك العلاقات على نحو معين ، وبناء على ذلك التصنيف أقام تلك العلاقات ، وكان ذلك النحو كما هو وارد :

– الآخر كتراث حضاري وثقافي وقيم وعلوم ومعارف : ومع هذا الآخر تعاملت العقيدة الإسلامية ومن ثم الحضارة الإسلامية على أساس الاستفادة من قويم تلك القيم ومفيد تلك العلوم والمعارف والإضافة إليها وتطويرها .

– الآخر كبشر: وهذا البشر علاقته بالمسلمين تأتي على حالتين نوضحهما فيما يلي :

○ الحالة الأولى قبل أن توجه إليه الدعوة ويُبلغ بالعقيدة : وهو في هذه الحالة – كما سبق وأوضحنا – مخاطب بعقيدة التوحيد في أي مكان هو فيه ، وعلى القائمين على أمر العقيدة توجيه الدعوة إليه ، ومن لم تصل إليه الدعوة ولم يبلغ بها فعبء ذلك وعواقبه تقع على المسلمين .

O الحالة الثانية بعد أن يتم تبليغه ويرفض الدعوة أو يتجاهلها : وفي هذه الحالة يتحلل المسلمون من عبء تبليغه ويوكل أمره إلى الله ، ويظل مخاطباً بالدعوة ، ولا يساء إليه ولكن لا يتخذه المؤمنون ولياً من دون المؤمنين .

– تقديم الحضارة الإسلامية للقيم والعلوم والمعارف في شتى الميادين والمجالات حتى يمكن لجميع بني البشر الإطلاع عليها والإلمام بها ، فقد تلقى لديهم القبول والارتياح .

الفصل السادس

الهوية الإسلامية للذات الحضارية

لكل حضارة هوية معينة ، تحدد طبيعة المرتكزات والمقومات التي ترتكن عليها ، وتبين حقيقة الأشكال والنماذج والتعبيرات التي تظهر فيها وتبدو عليها ، فماذا تعني الهوية الإسلامية للحضارة ؟ إن الهوية الإسلامية للحضارة تعني أن مقومات الحضارة تصطبغ بصبغة معينة ، وأن أشكالها ونماذجها وتعبيراتها تتسم بسمة محددة ، وعلى أساس طبيعة المقومات وحقيقة النماذج تحدد الهوية .

كذلك فالهوية تعني الانبعاث من مصادر ومنابع بعينها تمثل المرجعيات للحضارة ، كما أنها في ذات الوقت تعني الانتهاء إلى مقاصد وغايات بذاتها تجسد الأهداف لتلك الحضارة .

وعند تتبع هوية الذات الحضارية للإسلام نجد أنها تحدد بأربعة معالم رئيسية تتدرج في منطلقات متتابعة ، فثمة مرجعيات نهائية تمثل المصدر والمنبع وتتمثل في عقيدة التوحيد والشريعة الإسلامية ، وثمة مقومات تتسم بالطابع الأخلاقي والوازع الديني ، وثمة أشكال تصطبغ يالسمة الشعائرية ، وثمة أخيراً خصائص وغايات تستهدف تحقيق الحياة الطيبة وإقرار مبدأ التوحيد .

ومن هذه المعالم الأربع تتحدد ملامح الهوية الإسلامية للذات الحضارية ، وهي دلالات تنطق وتعبر عن ذاتية الحضارة ، وتدل على انتماءاتها ، وفي هذا الفصل سوف نناقش كيف ارتسمت المعالم الأربع لهوية الحضارة الإسلامية ، ونحلل في ذات الوقت علاقة العقيدة المكافحة بتثبيت وترسيخ معالم هوية تلك الحضارة ، وذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : مرجعيات الحضارة الإسلامية .

المبحث الثاني : العامل الأخلاقي يصبغ مقومات الحضارة الإسلامية .

المبحث الثالث : السمة الشعائرية تصبغ أشكال الحضارة الإسلامية .

المبحث الرابع : خصـائص وغـايات الحضـارة الإسلاميـــة .

المبحث الأول

مرجعيات الحضارة الإسلامية

بعد الخروج إلى عالم الآخر في انطلاقة إنسانية لا مثيل لها شرعت الحضارة الإسلامية تحدد لنفسها معالم واضحة ، وتعين علاقتها بالعقيدة المرتبطة بها ، عند هذه اللحظة كان على الحضارة الإسلامية إبراز هويتها التي عرفها الناس والعالم من خلالها ، وقد ارتسمت تقاسيم وملامح تلك الهوية من خلال مجموعة من المحددات كان أول تلك المحددات متمثلاً في مرجعيات تلك الحضارة ، وقد انقسمت تلك المرجعيات إلى شقين : الشق الأول تبلور في مرجعيات شرعية فكرية ، والشق الثاني تعين في مرجعيات نظامية حركية ، ويمكن الإشارة إلى هذا المحدد تفصيلاً في الآتي :

أولاً : المرجعيات الشرعية الفكرية :

المرجعيات الشرعية الفكرية هي تلك المصادر والمنابع الأساسية العليا التي تستقى منها الحضارة الإسلامية أصولها وأسسها وقواعدها ذات الطبيعة الفكرية ، فهي تمثل الأطر العامة والمرجعيات النهائية التي تضبط مسارات الحركة وتقومها ، وتصيغ المعايير التي يقاس عليها كل أمر ذي شأن في الحضارة ، وتتوزع تلك المرجعيات الشرعية الفكرية التي تقع في موقع شديد التمييز بالنسبة للحضارة الإسلامية على مرجعيتين هما :

❖ عقيدة التوحيد :

عقيدة التوحيد هي أساس الكون ، والغاية من خلق مخلوقاته وإيجاد موجوداته من أجلها انتصب وعليها أرتكن ، كل دقائق الكون وعناصر الوجود تفرد الإله الخالق بالعبودية وتدين له بالطاعة والتبعية المطلقة ، من أجلها بُعث الرسل ولإقرارها أُرسلت الرسالات .

تعد عقيدة التوحيد الأساس الأول والمرجعية النهائية لحضارة الإسلام ، فتحت لها الآفاق ، وعمقتها في نفوس المسلمين ، وسحبت على مقوماتها ونماذجها وسماتها وغاياتها سمة التوحيد التي هي أساس جميع رسالات الله إلى الخلق ، ثم أكسبتها خاصية الكفاحية التي لازمتها حتى وقتنا الراهن ، وجعلتها أهم خصائصها إلى الأبد ومن ثم يبدو التلازم إلى درجة الذوبان بين الحضارة الإسلامية وعقيدة التوحيد .

❖ الشريعة الإسلامية :

الشريعة الإسلامية هي دين الإسلام الذي نزل على الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وله أركانه المعروفة التي أولها وأساسها التوحيد ، وتتمثل مصادره الأساسية في القرآن الكريم الذي هو كلام الله نزل به الوحي الأمين على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي السنة النبوية المطهرة التي هي جماع أقوال الرسول الكريم وأفعاله .

وثمة مصادر احتياطية أخرى يعتد بها مثل نموذج دولة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، وإن كنا نعتبر ذلك المصدر ضمن المصادر الأساسية ، ومن المصادر الاحتياطية فعلاً إجماع ثقاة الأمة من ذوي الرأي والمنطق .

وكان للشريعة الإسلامية دورها المهم في تحديد الهوية الخاصة بالحضارة الإسلامية ، فقد ساهمت إلى جانب العقيدة في تحديد ملامح مقومات الحضارة ووسمتها بسمات الشريعة ، وكذلك بالنسبة إلى الأشكال والنماذج والخصائص والمقاصد والغايات .

ومعلوم مدى عضوية العلاقة بين عقيدة التوحيد والشريعة الإسلامية ، فالأولى هي مصدر كل الشرائع وغايتها النهائية ، أما الثانية فهي رسالة هدفها إقرار عقيدة التوحيد ونشرها من خلال مقومات وأركان وسلوكات محددة تضمنتها الشريعة .

ثانياً : المرجعيات النظامية الحركية :

نرى أنه من الضروري اعتبار نموذج دولة الرسول الكريم إحدى المرجعيات الخاصة بالحضارة الإسلامية ، وذلك لأن النموذج المذكور قد شهد أول نموذج فعلي وضع الأسس والأصول النظامية التطبيقية لحضارة الإسلام ، كما أنه شهد نزول القرآن الكريم ، وفيه تمت السنة النبوية المطهرة بالتمام والكمال .

لقد ساهمت المرجعيات بشقيها في تحديد ملامح هوية الحضارة الإسلامية ، فقد مثلت مصادرها ومنابعها وأطرها العامة ومعايير ضبط قواعدها وأصولها ، فهي المصادر والمنابع التي تستمد منها الحضارة مفرداتها وحيويتها ، ثم هي الأطر العامة التي تتحرك الحضارة بداخلها ولا تخرج عن نطاقها ، وهي كذلك التي تضع معايير ضبط القواعد والأصول والأسس ومسارات الحركة وجملة التفاعلات التي تتم داخل تلك الحضارة ، فالحضارة الإسلامية إذن حضارة منضبطة ومسيجة ومحصنة بتلك المرجعيات التي تضرب حولها سوراً من القيم والمثل والمبادئ لا يمكن اختراقه أو تسوره ، فلا يمكن للتفاعلات وديناميات وحركة الحضارة أن تتجاوزه خارجة عليه ولا يمكن كذلك للدخيل المتسلل من الأفكار أن يتسوره قافزاً على قيم وأصول وقواعد حضارة الإسلام .

المبحث الثاني

العامل الأخلاقي يصبغ مقومات الحضارة الإسلامية

مقومات وأبعاد الحضارة الإسلامية هي نفسها مقومات وأبعاد الحياة في أي مجتمع كان ، فالحضارة الإسلامية نمط وطريقة وأسلوب حياة اجتماعية متكاملة ، فالحياة داخل المجتمع ترتكز على تنظيم تلك الحياة إدارياً وسياسياً ثم على تشكيل نظام اجتماعي يتفق مع طبيعة تلك الحياة ووفق إطار فكري يعرف بالأيديولوجية ، ثم على نمط معين وطور محدد من المدنية والعمران ، ثم على نسق من القيم العلمية والمعرفية ، وأخيراً على جيش يحمي تلك الحياة بكاملها ويفرض احترام قيمها وأصولها داخلياً وخارجياً .

وهكذا كانت الحضارة الإسلامية حياة متكاملة ، ولكنها وفق ما جاء في المرجعيات التي ذكرناها آنفاً ، فقد حددت تلك المرجعيات نمط تلك الحضارة من خلال تحديدها وتقعيدها وتأصيلها لطريقة وأسلوب التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون .

فقد ارتكنت الحضارة الإسلامية على الدعوة الدائمة والدائبة لدين الله ولعقيدة التوحيد ، فهذا ركن ركين وأساس مكين من أسس ومقومات الحضارة الإسلامية ، وبدونه تفقد كل معنى لها ، كذلك ارتكنت على تنظيم خاص بها يحمل ملامحها وخصائصها لكافة مناحي الحياة الإدارية والسياسية والاجتماعية .. إلخ ، ثم ارتكنت على نظام اجتماعي تم وضع أصوله وتشكيله بطريقة ذات خصوصية ، حيث استنبطت تلك الأصول من المرجعيات الإسلامية المصادر الأصلية العليا للحضارة الإسلامية ، ثم ارتكنت الحضارة الإسلامية أيضاً على جيش أعد وتحددت أهدافه بما يتفق مع أهداف تلك الحضارة حيث يحمي نماذجها ويدرأ عنها الجور والتعدي ، كما أرتكنت الحضارة الإسلامية على نمط فريد من المدنية والعمران برزت من خلاله معالمها وملامحها وهويتها ، واستقيت أصوله

كذلك من مرجعيات الحضارة الإسلامية ، وأخيراً ارتكنت الحضارة الإسلامية على نسق من العلوم والمعارف كان لها دورها الرائد في التقدم العلمي والتقني للحضارة الإنسانية .

إن كافة المقومات والأركان التي انتصبت عليها الحضارة الإسلامية قد حكمها وتغلغل في ثناياها العامل الأخلاقي ، ومن ثم غلّبت دوماً البعد الروحي في الإنسان واهتمت به وسمت على البعد المادي ، في الوقت الذي لم تهمل البعد المادي ، بل منحته من الاهتمام ما يكافئ وزن المادة في حضارة الإسلام ذات البعد الأخلاقي .

إن ما تقدم يعني أن الحضارة الإسلامية هي حضارة أخلاقية روحية ، وأن كافة الأركان والمقومات التي ارتكنت عليها قد حملت هذه الخصيصة ، بدا ذلك واضحاً في ركنها الأول الذي تثبت في الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشرع الإسلامي في كافة الأنحاء وفي جميع الأوقات والأزمان ، فهو الأساس الأول لتلك الحضارة ، ثم بدا في ركنها الثاني المتعلق بالتنظيم الإداري والسياسي الذي غلب عليه الطابع الأخلاقي الروحي لا الطابع السلطوي القهري ، وبدا في ركنها الخاص بالنظام الاجتماعي الذي أسس على أصول شرعية قيمية أخلاقية ، وبدا في ركنها الخاص بالجيش وهدفه الأخلاقي الذي لا يستهدف الاعتداء أو التعدي ، وبدا في ركنها المتعلق بالمدنية والعمران حيث قام نمط مدنيتها وعمرانها على الأخلاق والقيم والأبعاد الروحية ، وبدا في نسق العلوم والمعارف وهو ركنها الأخير الذي قام هو الآخر على القيم وتغليب الأبعاد الروحية الأخلاقية .

إن طغيان البعد الأخلاقي على مقومات الحضارة الإسلامية وأبعادها المختلفة يحمل في طياته اتصالاً مباشراً عميقاً بمرجعيات تلك الحضارة وحضورها المستمر ووجودها الدائم في تلك المقومات والأبعاد ، كما يبرز في ذات الوقت سمة الكفاحية تلك الخاصية التي اكتسبتها الحضارة من عقيدة التوحيد التي لازمتها ، وتلك الكفاحية تبدو في إصرار الحضارة الإسلامية على رفض منطقها الخاص ورؤيتها الذاتية التي ترتقي بالبعد الروحي

الأخلاقي في حياة البشر وتقدمه على البعد المادي ، وذلك في واقع كان يرفض تماماً ذلك المنطق ويتصدى لتلك الرؤية ، إلا أنه أمام تلك الكفاحية بإصرارها ومضائها قُدر لحضارة الإسلام أن تحقق تفوقاً مبهراً في فرض منطقها وتحكيم رؤيتها .

ولا تزال الحضارة الإسلامية على موقفها الذي أخذته من عقيدتها الكافحة تكافح من أجل استمرار ذلك المنطق وإقرار تلك الرؤية على مر العصور والأزمان ، حيث اشتد صراعها مع حضارات وثقافات وأفكار سارت في عكس اتجاه ذلك المنطق وتلك الرؤية وقاومت بشراسة ضدهما ، ولم يزد ذلك حضارة الإسلام إلا إصراراً ومضاءاً على التمسك بمنطقها وتغليب رؤيتها التي ترى في الأبعاد الأخلاقية والروحية أساس الحضارة وهدفها وضابط حركتها ومقوم مساراتها .

المبحث الثالث

السمة الشعائرية تميز أشكال الحضارة الإسلامية

كذلك تتميز الحضارة الإسلامية عن سواها من الحضارات الإنسانية بسمة طغيان الشعيرة والنسك والعبادة على معظم أشكال هذه الحضارة ، وهذا يعني أن الشعيرة لها وزنها وقيمتها داخل الحضارة الإسلامية .

وكانت نماذج وأشكال الحضارة الإسلامية تحمل سمات التميز والتفرد والذاتية ، من خلال رموز شعائرية تجسد روح العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة ، ولم يحدث ذلك أبداً إلا في الحضارة الإسلامية ، يبدو ذلك في الدعوة إلى العقيدة ومحاولة نشرها ، ويبدو كذلك في أشكال ونماذج التنظيم وفي أنماط وطرز العمارة والتخطيط العمراني وحتى في التشكيل ، وأخيراً يبدو في العلوم والمعارف ، وقد كانت كل تلك النماذج والأشكال تنطلق دوماً من منطلقات عقائدية وتستهدف بث القيم الخاصة بتلك العقيدة .

ولقد تبدت السمة الشعائرية في الأشكال والمظاهر التي تعكس الحضارة الإسلامية – كما سبق الإيضاح – وتبدت كذلك في السلوكات والأفعال الصادرة عن المسلمين ، إذ أن الكثير من تلك السلوكات تأثر بتلك السمة ، واستهدفت في معظم الأحوال تهذيب الجوارح وضبط السلوكات .

ولقد أساء بعض المتابعين والدارسين للحضارة الإسلامية فهم هذه السمة ، ونتج عن ذلك الفهم السيئ الانتهاء إلى نتيجة مؤداها أن الإسلام لا يعدو كونه ديانة تتكون من نسق من الشعائر والنسك والعبادات ، ولم يكن نظاماً اجتماعياً أو نمطاً حضارياً مميزاً ! .

والعلاقة بين الشعيرة والشريعة هي عينها العلاقة بين العبادة وما تمثله من غذاء للروح ، وبين حركة الإنسان وتفاعلاته في الحياة ، فالأولى تغذي الروح وتهذب الجوارح بما يكفل

ضبط حركة الإنسان ، وعليه يبدو التكامل والتناسق بين الشعيرة التي هي العبادة وبين الشريعة التي هي حركة وتفاعل وتطور وعلاقات ومعاملات وأحكام وحدود ، ولعل الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي تقيم ذلك التكامل والتناسق الذي لا نظير له بين الشعيرة والشريعة ومن ثم كانت حضارة شعائرية وأصبحت السمة الشعائرية من محددات هوية الحضارة الإسلامية .

المبحث الرابع

خصائص وغايات الحضارة الإسلامية

ثم ننتقل إلى المحدد الأخير من محددات هوية الحضارة الإسلامية وهو المنصرف إلى خصائص وغايات تلك الحضارة ، فكل من الخصائص والغايات يساهم بقسط وفير في تحديد هوية تلك الحضارة بالتضافر مع ما قدمنا من محددات .

فنظرة متأنية إلى خصائص الحضارة الإسلامية المتمثلة في : الخلود والأبدية والإنسانية والعالمية والأخلاقية والروحية والأصالة المعاصرة ، تقود إلى نتيجة مفادها أن حضارة هذه خصائصها لابد أنها ترتبط بعقيدة خالدة هي عقيدة التوحيد ، وعليه فالخصائص المذكورة ترتبط بهوية الحضارة الإسلامية فهي تدل عليها وتشير إليها .

والخصائص المذكورة تسم كافة مفردات ومكونات الحضارة الإسلامية ، تسم المرجعيات الخاصة بها ، وتسم المقومات والأبعاد ، وتسم كذلك الأشكال والنماذج ، وتسم أخيراً الغايات والأهداف النهائية .

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن غايات ومقاصد الحضارة الإسلامية ، فسوف نضع أيدينا على هدفين أو غايتين أساسيتين للحضارة الإسلامية :

أولاً : الهدف أو الغاية الأولى :

غاية دنيوية تتجسد في تقديم النموذج الأمثل للحياة الطيبة ، وهذا يعني أن الإسلام كنظام اجتماعي يقود إلى السعادة في الدنيا من خلال تقديم البعد الروحي والترقي به في الإنسان ، ولا يعني ذلك إهمال الجانب أو البعد المادي ، كما لا يعني أيضاً تحقيق الثراء والغنى والراحة والدعة في الحياة كهدف في حد ذاته ، ولكن الحياة الطيبة تقوم على الإيمان العميق بالله والقناعة بعطائه والزهد في الدنيا مع حيازة ملذاتها .

ثانياً : الهدف أو الغاية الثانية :

غاية أخروية هي توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وإعمار الكون بطاعته وذكره لنيل حياة أبدية بالقرب من الله .

وهكذا تابعنا كيف خرجت عقيدة التوحيد إلى عالم الآخر وبصحبتها الحضارة الإسلامية ، وكيف ساهمت كافة الأعراق والعناصر في بناء تلك الحضارة ، ثم استقرت تلك الحضارة وتحددت هويتها من خلال محددات ومعالم معينة ، وبدأت تنتقل إلى طور آخر من أطوارها برزت فيه كفاحيتها بشكل واضح ، وهو طور الكفاح من أجل الاستمرار وامتصاص الأزمات حيث لاقت الحضارة الإسلامية الكثير من المعوقات والتحديات ، وهذا هو موضوع الفصل التالي .

الفصل السابع

الكفاحية من أجل الاستمرار وامتصاص الأزمات

طور جديد انتقلت إليه الحضارة الإسلامية ، لقد قويت واشتد عودها وتعددت نماذجها وأشكالها ، التي أصبحت جماعاً لإسهامات العديد من الأعراق والعناصر في مناطق مختلفة من الأرض ، لقد برزت الحضارة الإسلامية في شكل نظامي واحد هو الدولة الإسلامية ، لقد استهدفت خاصية الكفاحية التي اكتسبتها الحضارة الإسلامية من عقيدة التوحيد طيلة الفترة التي سبقت الطور الجديد ، التعاطي مع البيئة الصعبة والانطلاق منها ، ثم الخروج إلى عالم الآخر وحمل الدعوة وتوصيلها وتبليغها ، ثم تثبيت السمة الإنسانية وتعميقها لدى العناصر والأعراق التي ساهمت في تشييد صروح الحضارة الإسلامية ثم تحديد الهوية الإسلامية لتلك الحضارة التي ارتسمت في دولة عظيمة مترامية الأطراف لها هيبتها وقوتها .

عندئذ كان على الحضارة الإسلامية ودولتها الفتية أن تواصل تطوير خاصية الكفاحية لكي تتجه إلى تحقيق أهداف جديدة ، تمثل أول تلك الأهداف في الحفاظ على الشكل النظامي لتلك الحضارة وهو الدولة ، ثم تطوير مقومات ونماذج وأشكال حضارة الإسلام وهو ما يعرف إجمالاً بالكفاحية من أجل الاستمرار ، أما ثاني تلك الأهداف فقد تجسد في القدرة على امتصاص الأزمات التي تعرضت لها الحضارة الإسلامية .

لقد استهدفت كفاحية الحضارة الإسلامية في هذه المرحلة الجدية الحفاظ على تلك الحضارة وشكلها النظامي ، إنها الكفاحية من أجل الاستمرار ، الكفاحية ضد الانقطاع ، ومن أجل التطوير ، ولقد قدّر لتلك الكفاحية النجاح ولكن إلى حين ، وبعد حين من الدهر أصاب تلك الكفاحية إخفاق لازمها طويلاً .

كذلك كان على الحضارة الإسلامية أن تكافح من أجل امتصاص الأزمات التي تعرضت لها والإخفاقات التي واجهتها ، وقد حققت في هذا المسعى نجاحاً لا بأس به حفظ لها كيانها ، وأكسبها القدرة على الصمود ولكن أيضاً إلى حين .

في هذا الفصل نعكف على دراسة سمة الكفاحية التي اتسمت بها الحضارة الإسلامية بعد أن ارتسمت معالمها وتحددت هويتها وتشكّلت في دولة ، وذلك من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : الكفاحية من أجل الاستمرار وتطوير الذات .

المبحث الثاني : القدرة على امتصاص الأزمات .

المبحث الأول

الكفاحية من أجل الاستمرار وتطوير الذات

رسخت الحضارة الإسلامية أركانها ، وثبتت أسسها ، وبرز شكلها النظامي في دولة قوية مترامية الأطراف مرهوبة الجانب ، تضم أعراقاً وعناصر شتى ذابت جميعها في بوتقة الإسلام وعقيدة التوحيد ، عندئذ كان على الحضارة الإسلامية أن تستمر في كفاحيتها التي تستمدها دوماً من العقيدة من أجل أهداف ومقاصد اختلفت عن ذي قبل ، ومن ثم فقد أصبحت كفاحية الحضارة الإسلامية متجددة الأهداف ، لقد أصبح هدف الحضارة والعقيدة معاً الاستمرار وتطوير الذات ، ويمكننا مناقشة هذه الوضعية الجديدة للحضارة الإسلامية فيما يلي :

أولاً : الكفاحية من أجل الاستمرار :

لقد كافحت العقيدة الخالدة ومعها الحضارة العظيمة من أجل إقامة تلك الحضارة وتثبيت أركانها ، وقد قدّر لها ذلك ، وعليها الآن أن تكافح من أجل إقرار الأمر الواقع وإبقاء الأمور على ما هي عليه أطول فترة ممكنة ، ولكن سنة الله في الكون تأبى إلا الحركة والتطور دوماً ، وقد اشتملت الكفاحية من أجل الاستمرار على ثلاثة مسائل أساسية تمثلت في الآتي :

❖ **الاستمرار في الدعوة لعقيدة التوحيد :**

من المسائل التي أبرزت إصرار العقيدة والحضارة ومضائهما هي مسألة الاستمرار في الدعوة لعقيدة التوحيد وللحضارة الإسلامية ، وقد شهدت هذه المسألة ازدهاراً خلال فترة الخلافة الراشدة وعصر بني أمية ، وخلال خلافة العباسيين توقفت وتحولت إلى الدعوة السلمية

للعقيدة في أطراف الدولة الإسلامية ، وقد بلغت الدعوة للعقيدة أوج تقدمها في عهد بني أمية ، ثم تحولت إلى تثبيت مقومات أخرى في الحضارة الإسلامية في عهد العباسيين .

❖ الحفاظ على الشكل النظامي للحضارة (الدولة الإسلامية) :

لابد أن تبدو الحضارة في شكل نظامي حتى ولو كان بسيطاً ، والشكل النظامي قد يكون قبيلة ، وقد يكون دولة مدينة ، أو دولة إمبراطورية ، وقد برزت الحضارة الإسلامية في شكل دولة منذ بزوغها إلى حيز الوجود مرتبطة بعقيدة التوحيد ، وكانت تلك هي دولة المدينة المنورة التي تطورت إلى دولة واسعة مترامية الأطراف في عهد بني أمية ، ثم أخذت بعد ذلك تضيق وتتسع وفق عزيمة القائمين على أمرها ورغبتهم في نشر العقيدة وقدرتهم على ذلك .

وكان على الحضارة الإسلامية منذ عهد الخلافة الراشدة واتساع رقعة الدولة وامتدادها أن تجتهد من أجل الحفاظ على شكلها النظامي الذي هو الدولة الإسلامية وقد كُللت كفاحية الدولة الإسلامية ومن ورائها حضارتها الفتية بنجاح ملموس في الحفاظ على دولة الإسلام طيلة عهد الخلافة الراشدة وعهد بني أمية والعصر العباسي الأول ، إلا أنه في العصر العباسي الثاني بدأت تعديات الأمم الأخرى تترى على حضارة الإسلام ودولته ، وافتتحت تلك التعديات بالخروج الأوربي الأول المتمثل في الحملات الصليبية ، ثم بالهجمة المغولية التي أنهت الخلافة العباسية في مأساة مروعة ، وبدأت أزمات الحضارة الإسلامية تستفحل بشكل لم يسبق له مثيل وسوف ندرس ذلك في المبحث التالي .

❖ الاتجاه نحو التركيز على أبعد ومقومات معينة في الحضارة الإسلامية :

عندما استقر المسلمون منذ أواخر العصر الأموي وطيلة العصر العباسي ، وسكنوا المدن وعمروا الحواضر ، تحولت انطلاقة العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة وحضارتها العظيمة

من حمل وتوصيل وتبليغ الدعوة بالفتح إلى جوانب أخرى من جوانب الحضارة الإسلامية وهي المدنية والعمران والعلوم والمعارف وبنفس الروح الكفاحية الإنسانية العالمية .

وهنا لا ينبغي أن نغفل دور العقيدة المكافحة وما كانت تبثه من وقت لآخر في الحضارة من عزيمة وتصميم على الاستمرار والحفاظ على ما حققته من إنجازات في كافة المجالات .

ثانياً : الكفاحية من أجل تطوير الذات :

كافحت حضارة الإسلام بدعم وتحفيز من عقيدة التوحيد من أجل الاستمرار والحفاظ على كيانها ، كذلك كان عليها أن تكافح من أجل تطوير الذات ، وذلك من خلال مجموعة من المجهودات تمثلت في الآتي :

❖ تعصير الأصول والقواعد :

منذ خلافة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب والحضارة الإسلامية شرعت في تطوير ذاتها ، وكان تطوير الذات يعني تخول الأصول والقواعد المستنبطة من مصادر الشريعة الأصلية التي سبق الحديث عنها بالتبيان والتوضيح والشرح والتفصيل بما يجعلها دوماً في معية الناس وحاضرة بينهم ، تعالج قضاياهم وتضبط سلوكاتهم وتحكم علاقاتهم وتفاعلاتهم ، ويعني على الجانب المقابل معايرة وقياس كافة المتغيرات وجميع المستجدات من الأفكار والسلوكات وفق تلك الأصول والقواعد بوصفها المتقدم .

وقد تدرجت عملية تعصير الأصول والقواعد في الاتساع والعمق منذ خلافة عمر بن الخطاب بشكل واضح ، ففي عهد الخلافة الراشدة كانت في بدايتها ، واتسمت بالمحدودية ، وذلك راجع إلى الالتزام المطلق للخلفاء بالشرع الحنيف المتمثل في القرآن والسنة وممارسات نموذج دولة الرسول الأعظم ، وراجع أيضاً إلى ندرة المستجدات والمتغيرات التي مثلت خروجاً على الأوضاع السائدة في دولة الرسول صلى الله وسلم .

وفي العصر الأموي بدأت عملية تعصير الأصول والقواعد في البروز والعمومية والشمول حيث كثرت القضايا المستجدة والمتغيرات الحادثة في كافة أمور وجوانب الحياة ، وبصفة خاصة الظاهرة السياسية وقواعد الحكم وأصول السياسة في الإسلام ، مما حدا ببعض كبار الصحابة والتابعين إلى العودة إلى الأصول والقواعد واستحضارها وتكثيف الضوء عليها والتنبيه والتأكيد على حتمية الرجوع إليها في ذلك العصر الذي انتهكت فيه الكثير من تلك الأصول والقواعد التي تضمنتها المرجعيات الأساسية المتمثلة في القرآن والسنة ونموذج دولة الرسول الكريم .

وفي العصر العباسي تزايدت وتعمقت وتيرة عملية تعصير عملية الأصول والقواعد بالشكل الذي أوضحنا من قبل ، نظراً للاتجاهات التي اتجهت إليها الحضارة الإسلامية والتي استهدفت التركيز على أبعاد ومقومات جديدة وتطوير أخرى قديمة مثل : نماذج وطرز العمران والمدنية والعلوم والمعارف ، بالإضافة إلى القضايا والمسائل المطروحة من قبل مثل أصول وقواعد السياسة والحكم وغيرها من الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والإدارية التي استجدت في العصر العباسي .

وبعد أن انهارت الخلافة الإسلامية في بغداد توقفت تماماً عمليات تعصير الأصول والقواعد كإحدى مظاهر كفاحية الحضارة الإسلامية من أجل الاستمرار وتطوير الذات ومن ثم حدثت عملية انقطاع وتوقف بين الأصول والقواعد المنظمة لحياة المسلمين والمعاجلة للمتغيرات والمستجدات وبين تطورات الحياة الاجتماعية وتفاعلاتها في المجتمع الإسلامي ، وكان ذلك يمثل إحدى أزمات الحضارة الإسلامية التي لازالت تعاني منها ، وسوف نوضحها في موضعها من الفصل التالي .

❖ تطوير نماذج وأدوات الحركة :

للحضارة الإسلامية نماذجها وأدوات حركتها ، من أنظمة وتنظيمات وإجراءات يمارس المسلمون من خلالها كافة مجالات حياتهم من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وفكرية إلى آخره ، وهذه النماذج والأدوات وُضعت أصولها وأُسست قواعدها منذ دولة المدينة المنورة ، وكان على تلك النماذج والأدوات أن تتطور باستمرار بما يستوعب المتغيرات والمستجدات وفق سنن تطور المجتمع الإنساني .

وقد شهد عصر الخلافة الراشدة دفعة قوية فيما يتعلق بتطوير نماذج وأدوات الحركة وبالذات في النواحي الإدارية والاقتصادية ، أما النواحي السياسية ، فقد حافظ الخليفتان الأول والثاني على النماذج والأدوات الموروثة من دولة المدينة ، في حين حدث كثير من الاختلاف في عهد الخليفتين الثالث والرابع وكان ذلك سبباً مباشراً في حدوث الفتنة الكبرى في عهد عثمان بن عفان والتي امتدت لتمزق كيان الدولة الإسلامية في عهد علي بن أبي طالب ، وما ذلك إلا عجزاً وقصوراً واضحاً عن تطوير نماذج وأدوات الحركة السياسية بما يتواءم مع المستجدات والمتغيرات ، ويتوافق مع الأصول والقواعد التي أقرها الرسول الكريم في دولة المدينة .

أما في العصر الأموي فقد حدث تطور لا بأس به فيما يتعلق بأدوات ونماذج الحركة حيث تم تطوير العديد من النماذج والأدوات ، وابتُكرت نماذج وأدوات جديدة لتطويع المستجدات واحتواء المتغيرات التي حدثت في العصر الأموي في كافة مجالات الحياة ، وقد كان مقصد تلك النماذج والأدوات هو معالجة كثير من القضايا والمتغيرات السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية بما يتفق ورؤية الأمويين ومنهجهم في السياسة والحكم .

وقد أخذ العباسيون نفس المنحى ، حيث طوروا وابتكروا من النماذج وأدوات الحركة ما استوعب المستجدات والمتغيرات التي طرأت في زمانهم وبما يتوافق مع رؤيتهم ومنهجهم في السياسة والحكم ، إلا أن الكثير من تلك النماذج وأدوات الحركة قد توجهت لاحتواء ومعالجة العديد من الأبعاد والمقومات المستجدة في الحضارة الإسلامية مثل المدنية والعمران والعلوم والمعارف وغيرها من المسائل المعاصرة .

وبعد العصر العباسي أخذت مسألة تطوير نماذج وأدوات الحركة كإجراء من إجراءات الحضارة الإسلامية لتطوير الذات منحى مختلفاً ، فقد تطورت تلك النماذج والأدوات ولكن لما يعكس مظاهر وأشكال التفكك والانهيار اللذين أصابا الدولة الإسلامية وحضارتها ، وبما يعكس كذلك ظاهرة العنصرية والإقليمية ، حيث استقلت كل قومية بجزئية من الدولة الإسلامية ، وأبرزت موروثاتها الحضارية والثقافية على الحضارة الإسلامية ، وكانت هذه إحدى الأزمات العصيبة التي واجهتها الحضارة الإسلامية وسوف نتناولها في المبحث التالي .

المبحث الثاني

القدرة على امتصاص الأزمات

هذا المبحث وما يتناوله من قضايا ومسائل يعكس ظاهرة الكفاحية التي أخذتها الحضارة الإسلامية من عقيدة التوحيد في أجلى صورة وأوضح مثال ويمكننا متابعة الأزمات التي تعرضت لها الحضارة الإسلامية منذ تبلورها في شكل نظامي رسمي في دولة المدينة وحتى فترة الانقطاع التي حدثت في نهاية الحكم العباسي بانهيار ذلك الحكم والخلافة الإسلامية ، كما يمكننا تبيان كيف تمكنت حضارة الإسلام من امتصاص تلك الأزمات ، وتوضيح ذلك فيما يلي :

أولاً : تحديات الحضارة الإسلامية :

منذ نشأتها مقترنة بالعقيدة الإنسانية العالمية المكافحة والحضارة الإسلامية تجابه جملة من التحديات ، منها ما صاحبها منذ تلك النشأة ومنها ما طرأ أثناء تطورها ، ونستعرض ذلك فيما يلي :

❖ تعدد العناصر والأعراق :

منذ أن خرجت الحضارة الإسلامية من نطاق العنصر الواحد وهو العنصر العربي إلى نطاق العالمية ، وهي تعاني من تعدد العناصر والأعراق التي انضوت تحت لواء عقيدة التوحيد ، وكان لهذه التعددية مخاطرها التي تمثلت في رغبة كل عنصر في لعب دور القيادة بالعناصر الأخرى ، وهذا أمر طبيعي ، فالعالمية تعني اشتراك عناصر عديدة في اعتناق عقيدة واحدة ، والإسهام في تشييد الحضارة التابعة لتلك العقيدة ، وكان ذلك يستلزم كفاحية جبارة من العقيدة والحضارة معاً من أجل إذابة العناصر في بوتقة واحدة ، وإخراج مزيج يمثل

الإسلام وحضارته ، ومن ثم تحويل التعددية من نقطة ضعف إلى مكمن قوة ، عندما تتكتل جميعها خلف العقيدة الخالدة وحضارتها العظيمة ، وكان ذلك يتحقق في معظم الأحيان ، إلا أنه ظل يمثل تحدياً يواجه الحضارة الإسلامية .

❖ تعدد الموروثات الحضارية والثقافية :

صاحب التحدي الأول المتمثل في تعدد الأعراق والعناصر البشرية وطموحاتها المتمثلة في القيادة والظهور على العناصر الأخرى تحدي آخر تمثل في أن تلك العناصر والأعراق قد صحبتها وعاشت في ذاكرتها بشكل مستديم موروثاتها الحضارية والثقافية التي ورثتها عن فترة ما قبل دخول الإسلام وانضوائها تحت لوائه .

وقد كانت تلك الموروثات كأنماط حضارية أو منظومات ثقافية تطل برأسها من وقت لآخر وتُلهب حماس العناصر المختلفة وتؤجج ذاكرتها وانجذابها لتلك الموروثات وتزيد من طموحاتها ورغباتها في قيادة وريادة العناصر الأخرى ، حيث يتراءى لها أنها الأجدر والأحق تأسيساً على ماضيها التليد وتاريخها العريق .

وكان ذلك يمثل تحدياً خطيراً للحضارة الإسلامية فرض على تلك الحضارة وكذا ثقافتها كفاحية تمكنها من إرضاء غرور تلك العناصر والأعراق وإعجابها بماضيها ، من خلال ابتكار حضارة وثقافة من الاتساع والتسامح بما يستوعب تلك الموروثات ويطوعها في هدوء وسلاسة ولا يشعرها بالغبن والتسلط من الحضارة الإسلامية ، وقد قدّر لتك الكفاحية النجاح إلى مدى بعيد إلا أن ذلك كان يمثل تحدياً مؤرقاً للحضارة الإسلامية .

❖ سياج القيم والأخلاق الإسلامية :

ذكرنا مراراً أن أهم ما يميز حضارة الإسلام هو اعتمادها المطلق على نسق صارم من القيم والأخلاق استمدته من عقيدة التوحيد ، واعتمادها كذلك على تقديم وترقية البعد الروحي

على البعد المادي ، وكان لهاتين السمتين دورهما العظيم في الحضارة الإسلامية وتميزها وتفردها بشكل مطلق ، ولكن هاتين السمتين كانتا تصطدمان دوماً بأفكار وسلوكات المسلمين كأفكار وسلوكات بشرية جامحة تريد أن يطلق لها العنان كما هو حال المجتمعات البشرية غير الإسلامية ، وكان من شأن ما تقدم أن يقيم حالة من الصدام الدائم بين أفكار وسلوكات المسلمين كبشر وبين سياج القيم الإسلامي ، وعليه كان على حضارة الإسلام وثقافته كذلك أن يكافحا من أجل تطويع الأفكار والسلوكات البشرية مع ذلك السياج من القيم والمبادئ والأخلاق حتى يحدث نوع من الألفة والتناغم بين ذلك السياج والفكرة والسلوك البشري بما يحولهما من تحدي إلى دافع وحافز في اتجاه سيادة القيم والمبادئ الإسلامية ، وقد حافظت الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية على تلك الكفاحية التي ضمنت لهما الاحتفاظ بمرجعية نهائية للنسق القيمي الإسلامي .

❖ شراسة المنافسين :

من التحديات العنيفة التي واجهت الحضارة الإسلامية هي شراسة المنافسين ، فالحضارة الإسلامية منذ نشأتها وهي تواجه منافسين أشداء أقوياء شرسين في صراعهم ، برز ذلك منذ الانطلاقة إلى الأحياء العربية ، حيث كانت عداوة العرب للعقيدة الجيدة ولحضارتها شرسة ، ثم كانت عداوة اليهود والمنافقين كذلك ، وعلى نفس الوتيرة كانت منافسة الفرس والروم ، ثم برز الصراع مع الروم كصراع مزمن مع الحضارة الإسلامية ، تلا ذلك صراع الحضارة الإسلامية مع الصليبيين والمغول .

لقد كان ذلك التحدي يتطلب من الحضارة الإسلامية كفاحية من نوع خاص تجمع بين الاستعداد الداخلي والقدرة على إدارة الصراع العضوي (الصراع المسلح) مع جميع المنافسين الذين عددناهم أعلاه ، ونرى أن هذا التحدي كان في كثير من الأحيان يمثل

عنصر تقوية ودعم للحضارة الإسلامية ، وكان في أحيان أخرى يشكل عنصر إضعاف ظهرت انعكاساته السلبية بعد انهيار الخلافة العباسية ودخول الحضارة الإسلامية في طور التفكك والانهيار ، وهو ما عُرف بفترة الانقطاع .

ثانياً : أزمات الحضارة الإسلامية :

التحديات التي تحدثنا عنها فيما سبق عبارة عن اختلالات مزمنة مصاحبة للحضارة الإسلامية تتطور معها باستمرار وتظهر وتختفي حسب الظروف ، أما الأزمات فهي اختلالات وقتية طارئة تظهر وتصيب حركة الحضارة ، ثم تبرز لها قوى مضادة ناتجة عن كفاحية الحضارة ، تعالج تلك الاختلالات وترأب الصدع الذي تخلفه ، ويمكننا تناول الأزمات التي تعرضت لها الحضارة الإسلامية في الآتي :

❖ أزمات عرقية عنصرية :

كان أول الأزمات التي ظهرت في واقع الحضارة الإسلام هي الأزمات العرقية العنصرية ، وذلك لأن حضارة الإسلام – كما سبق وأوضحنا – هي حضارة عقيدة ، ومعتنقو هذه العقيدة هم بناة تلك الحضارة ، ومن ثم فالفاعلون في تلك الحضارة هم أول الأزمات التي واجهتها ، وبصفة خاصة العلاقات فيما بينهم ، لأنهم يمثلون عناصر وأعراق مختلفة ، وقد صاحبت هذه النوعية من الأزمات الحضارة الإسلامية منذ نشوئها ، وتطورت على النحو التالي :

– في النطاق العربي (القبلية) : في دولة المدينة أول شكل نظامي رسمي لنواة الحضارة الإسلامية ظهرت القبلية ، وكان انتماء كل فرد لقبيلته يسمو على انتمائه للعقيدة الجديدة ، وبرزت أول تعبيرات الكفاحية في العقيدة وحضارتها حيث بذل الرسول الكريم جهوداً جبارة من أجل المؤاخاة بين القبائل المختلفة من الأنصار ، ثم بين المهاجرين والأنصار ،

وكانت النتائج مبهرة حيث برز ذوبان الرواد الأوائل في العقيدة وتفضيل الانتماء إليها على أي انتماء آخر مهما كان .

– في النطاق الإسلامي (العرقية والعنصرية) : بعد الانطلاقة الكبرى والخروج إلى عالم الآخر انضوى تحت لواء الإسلام الكثير من الأعراق والعناصر ، ومن ثم برزت الانتماءات العرقية والعنصرية ، وبدأت تنافس الانتماءات للعقيدة وحضارتها ، ثم برزت المنافسات الحادة بين العنصر العربي وبين غيره من العناصر ، والمنافسات بين العناصر غير العربية وبعضها ، وقد كان من الصعب التصدي لهذه الأزمة وعلاجها بل لعلها من أقسى الأزمات وأشدها إيلاماً لجسد الحضارة الإسلامية ، حيث كانت سبباً في تفريق جهود أبناء الأمة وتشتيتها ، لقد كان كل عنصر يسعى بقوة وعنف نحو السيطرة على العناصر الأخرى ، وأن ينسب لنفسه الريادة ، بل وينسب الحضارة الإسلامية كلها لنفسه ، فبتنا نسمع عن الحضارة الإسلامية الفارسية والحضارة الإسلامية التركية ، والحضارة العربية الإسلامية ، والحضارة الإسلامية المغولية .. إلخ .

إن واقع وطبيعة الحضارة الإسلامية يفرضان ظهور هذا النوع من الأزمات وذلك لتجمع عناصر وأعراق عدة تحت لواء حضارة واحدة تجمع كافة تلك العناصر والأعراق بكل ما لديهم وما بصحبتهم من موروثات حضارية وثقافية قلما تسقط من وعيهم الجماعي أو ذاكرتهم العامة ، إن هذه الأزمة كانت تتطلب نوعاً من الكفاحية المثابرة التي كانت تُفلح مرة وتُخفق مرات .

❖ أزمات إقليمية :

كذلك عانت الحضارة الإسلامية من أزمة الإقليمية التي تبلورت في الرغبة الدائمة لدى الكثير من المناطق الإقليمية الجغرافية للانفصال عن جسد الدولة الإسلامية والتنصل كذلك

من حضارة الإسلام بهويتها الإسلامية الخالصة ، في مقابل بروز الخصائص والسمات الإقليمية التي تميز تلك المناطق قبل انضوائها تحت لواء الإسلام ، وقد بُذلت جهود جبارة من مركز الدولة الإسلامية لمعالجة واحتواء تلك الأزمة والسيطرة على المناطق المارقة ، وقد اقترنت هذه الأزمة بأزمة العرقية والعنصرية ، ولعبتا معاً دوراً لا يُنكر في إصابة الحضارة الإسلامية بحالة من الإعياء انتهت بها إلى حالة الانقطاع التي هي عليها الآن .

❖ أزمات فكرية :

كذلك واجهت الحضارة الإسلامية أزمات فكرية تمثلت في فقدان القدرة في بعض الأوقات خلال عصر الخلافة الراشدة في خلافة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وخلال العصرين الأموي والعباسي على بذل الجهود الفكرية الكفيلة بتعصير الأصول والقواعد لاحتواء المتغيرات والمستجدات في نواحي الحياة المختلفة ، ولذلك العجز وجهان :

- الوجه الأول : أن ذلك العجز عن بذل الجهود الفكرية الخاصة بتعصير الأصول والقواعد كان نابعاً عن صمت أهل العقد والحل لعوامل كثيرة نابعة عن طبيعة الحياة الاجتماعية ، وعن طبيعة العلاقة بين هذه الشريحة من المجتمع وبين أصحاب السلطة من الحكام وأولياء الأمور .

- الوجه الثاني : أن ذلك العجز كان ناتجاً عن سلوكات أولياء الأمور والحكام الذين لم يطلبوا من أهل العقد والحل بذل الجهود اللازمة لتعصير الأصول والقواعد بل ربما أجبروهم على الصمت أو تبرير تصرفاتهم .

وكانت هذه الأزمة من الأزمات التي أفرزت نتائجها وإفرازاتها على الحضارة الإسلامية في أوقات متأخرة ، حيث قادت إلى حالة من الانقطاع بين الحضارة ومرجعياتها التي تمثل بالنسبة لها أهم مصادرها ، وأدت كذلك إلى حدوث حالة من الاغتراب بين المرجعيات

الإسلامية والمجتمعات الإسلامية ، جعلت تلك المجتمعات تلجأ إلى مرجعيات دخيلة مستوردة لاستنباط القواعد والأصول التي تضبط الحياة الاجتماعية ، وكذا استخراج نماذج وأدوات الحركة لتفعيل تلك الحياة .

❖ أزمات نظامية :

ارتبط بالأزمات الفكرية طائفة من الأزمات النظامية ، تبلورت في عدم القدرة على ابتكار نماذج وأدوات الحركة الملائمة للأصول والقواعد المستنبطة من المرجعيات الإسلامية ، لغياب تلك الأصول والقواعد من جهة ولجهل أبناء الأمة بكيفية الاهتداء إلى تلك النماذج والأدوات في المرجعيات الإسلامية ، وقد قاد هذا وذاك إلى الاتجاه نحو استجلاب نماذج وأدوات الحركة من الحضارات الأخرى والاعتماد عليها ، وكانت هذه الأزمة من الأزمات التي تركت عواقب وخيمة على التنظيم كأحد أهم مقومات الحضارة الإسلامية .

❖ أزمات الهوية :

كذلك واجهت الحضارة الإسلامية أزمة عنيفة فيما يتعلق بتحديد الهوية الإسلامية للحضارة ، وذلك لقيام تنافس بشكل دائم بين الهوية الإسلامية الخالصة للحضارة وبين الهوية العنصرية العرقية بما تحمله من موروثات حضارية وثقافية ، وكان ذلك التنافس يحسم لمصلحة الحضارة الإسلامية مرة ولمصلحة الهويات والخصوصيات العرقية والعنصرية مرات ، وكانت كفاحية الحضارة تتبط أمام تلك الأزمات في كثير من الأحيان .

❖ أزمات خارجية :

الأخطار الخارجية والأزمات الناجمة عن تعديات واعتداءات الأمم الأخرى كانت في مقدمة الأزمات التي أثبتت إزاءها كفاحية الحضارة الإسلامية نجاحاً منقطع النظير فقد كانت تلك الأزمات والتعديات أداة تكتيل لقوة المسلمين وراء عقيدتهم وحضارتهم ، ويمكن متابعة تلك الأزمات التي حدثت في شكل تعديات على النحو التالي :

– الخروج الأوربي الأول (الاعتداءات الصليبية) : بالرغم من الاحتكاكات التي كانت تتم بشكل شبه مستمر بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الإسلامية ، إلا أن التدخل الأوربي في شئون الدولة الإسلامية تحت حجج واهية يعد أول أزمة تصادم بين دولة الإسلام وأمة خارجية ، وبالرغم من أن الدولة العباسية لم تتفرغ كلياً لاحتواء هذه الأزمة والتصدي للتدخل الأوربي الصليبي ، وألقت بذلك العبء على ولايتي الشام ومصر ، إلا أن مركز الدولة في بغداد كان يتابع تطورات تلك الأزمة ويساعد صلاح الدين الأيوبي مادياً ومعنوياً ، كذلك انبرت ولايات عديدة لمساعدة المسلمين إلى أن تم احتواء تلك الأزمة .

– الاجتياح المغولي : لعل أزمة الاجتياح المغولي هي أقسى الأزمات وأشدها مأساوية في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وذلك لأكثر من سبب : فقد أنهت الوجود الرسمي الشكلي النظامي للحضارة الإسلامية وهو الدولة الإسلامية ، حيث انتهت تماماً الخلافة العباسية وتم تدمير عاصمتها بغداد ، وأدت إلى حدوث انقطاع حاد لم يتم وصله حتى الآن بين الحضارة الإسلامية والواقع الإسلامي الذي أعقب الاجتياح المغولي ، وقادت إلى تدمير العديد من مقومات الحضارة الإسلامية ومظاهرها وتعبيراتها مثل العمارة والتشكيل والعلوم وغيرها ، وأثرت بشكل حاد ومؤلم على هوية الحضارة الإسلامية ، حيث أدت إلى تمزق رهيب أبرز الإقليمية والعنصرية على حساب الهوية الإسلامية .

وبالرغم من كل ما تقدم لم تفتر كفاحية الحضارة الإسلامية وعقيدتها ، ولم تهدأ ، بل أبرزت قدرتها الخارقة على امتصاص الصدمات وتذويب عناصر الإستفزاز وعدم الاستقرار ، وتمكنت من احتواء المغول وهضمهم وامتصاصهم داخل الإسلام بأن أعلنوا إسلامهم ، بل وتم تحويلهم إلى دعاة للإسلام !! وعدت عقيد الإسلام وحضارته قوية قادرة على إثبات قدرتها على امتصاص الأزمات مهما كانت شديدة وتحويلها إلى عناصر قوة ، هكذا كانت عقيدة التوحيد المكافحة ، وهكذا كانت حضارتها مكافحة مثابرة كذلك .

الفصل الثامن

الانقطاع لا يعني الفناء والانتهاء

ثم نصل إلى ختام متابعة حضارة الإسلام بعد أن نشأت وقويت وارتكنت على مقومات عظيمة وأفرزت أشكالاً مبهرة ونماذج بديعة وتركت رصيداً للإنسانية ستظل تعتمد عليه إلى الأبد ، بعد كل ذلك تعرضت الحضارة الإسلامية لانقطاعة مؤلمة على أثرها توقف العطاء وتعطل الإبداع ، إنها المأساة التي ذكر بها الزمن وتألم لها الدهر وبكت عليها السماء والأرض ، ولكن هل يعني ذلك الانقطاع الفناء والانتهاء ؟ .

كيف حدثت عملية الانقطاع ؟ وما هي أسبابها ؟ وما هي معالمها ؟ وما هي نتائجها ؟ أسئلة لا تزال وستظل تحتاج من أبناء الإسلام إلى إجابات ، كيف قدّر لأبناء خير أمة أخرجت للناس أن يفرّطوا في حضارتهم ويفرطوا في الاتكالية والتبعية ، وهم يملكون أسمى عقيدة وأثمن حضارة ؟ وإلى متى سيظلون هكذا لا ينفرون جميعاً مستهدفين وصل ما انقطع وإصلاح ما أفسدوه بأيديهم ؟! .

إن نشأة حضارة الإسلام وتطورها في أحضان العقيدة الإنسانية العالمية المكافحة وما مرت به من تجارب وما اكتسبته من خبرات وسوابق تابعها المتابعون ودرسها الدارسون لتوصل إلى نتيجة مفادها أن ما حدث لتلك الحضارة من انقطاع وتعطل لا يعني بحال الفناء والانتهاء ، لأن تلك الحضارة لا تزال تتسم بالكفاحية ومن سماتها كذلك الخلود والأبدية ، ولكنها تحتاج إلى قيام حالة من التلاحم والتلازم والتكتل مرة أخرى بينها وبين عقيدة التوحيد ، فلابد من إحياء العقيدة في نفوس أبناء الإسلام حتى تنشط الحضارة وتُبعث من جديد وتواصل بحثها عن ذاتها ، فلقد خفي عن الأذهان أن حضارة الإسلام حضارة عقيدة لن تُبعث بدونها ولن تزدهر وتينع إلا وهي في أحضانها ، فإذا أراد أبناء الإسلام بصدق وصرامة بعث حضارتهم فعليهم أن يحيوا عقيدتهم أولاً ، فهل هم إلى ذلك راغبون وفيه صادقون ؟! .

في هذا الفصل نتناول ما تعرضت له الحضارة الإسلامية من انقطاع وتعطل ثم نستشرف

مدى استعداد الكفاحية الكامنة لدى تلك الحضارة والتي يمكن أن تستلهمها من العقيدة السامية للانبعاث والنشاط وإعادة التواصل مرة أخرى ، وسيتم ذلك التناول من خلال المبحثين التاليين :

المبحث الأول : فترة الانقطاع .

المبحث الثاني : كفاحية البحث عن الذات والتواصل معها .

المبحث الأول

فترة الانقطـاع

لعلها أعنف الأزمات وأقساها ، وأشدها وطأة ، وأطولها زمناً ، تلك كانت أزمـة الانقطـاع وتوقف الحضارة الإسلامية عن العطاء ، متى بدأت تلك الأزمة المستعصية ؟ وكيف بـدأت ؟ وما هي الأسباب التي وقفت وراء بروزها بهذا الشكل وبهذه الكيفية الرهيبة ؟ ومـا هـي مظاهرها وأشكالها التي مثلت في ذات الوقـت نتائجهـا وآثارهـا ؟ كـل ذلـك نتناولـه مـن خلال الآتي :

أولاً : بداية أزمة الانقطاع :

يمكن القول بأن أزمة الانقطاع قد بدأت بوادرها قبل الاجتياح المغولي للدولـة الإسـلامية ، حيث ضعفت الدولة العباسية ووهنت سـيطرتها علـى أجـزاء وأقـاليم الدولـة ، في الوقـت الذي مالت تلك الأجزاء إلى الانفـصال عـن جـسد الدولـة ، وبـرزت العنـصرية والإقليميـة بشكل بشع ومدمر ، وشرعت العناصر المختلفة في صراع مرير للسيطرة والقيادة .

ثم أكد تلك المقدمات الاجتياح المغولي للدولة الإسلامية ، وعجّل بانهيارهـا بـشكل قـاطع ونهائي ، وتحولت تلك المقـدمات إلى واقـع ، وحـدثت الانقطاعـة ، وتوقفـت الحـضارة الإسلامية عن العطاء ، وتحولت إلى تـراث وتـاريخ وماضـي ، وأصـبحت أزمـة مزمنـة في جسد الإسلام وعقيدة التوحيد التي بُعثت مكافحة ولا تزال تبحث عن علاج لتلك الأزمة .

ثانياً : أسباب أزمة الانقطاع :

أما عن أسباب تلك الأزمة فقد تعددت وتنوعت ، ويمكننا تناول تلك الأسباب فيما يلي :

❖ انهيار مركز الدولة :

لم يعد ثمة دولة إسلامية مركزية واحدة بعد انهيار مركز الخلافة العباسية في بغداد أمام الهجمة المغولية ، فقد تفتتت دولة الإسلام إلى أجزاء عبارة عن ولايات وأقاليم متناحرة أو منصرفة إلى شئونها الخاصة ، وبات وضع الدولة الإسلامية موزعاً على شاكلتين : الأولى ، دويلات واقعة تحت الاحتلال المغولي ومدمرة مادياً وممزقة معنوياً وبشرياً ، الشاكلة الثانية ، دويلات مستقلة أو متناحرة .

❖ الاضطراب والتفكك والانهيار :

الوضع العام الذي ساد العالم الإسلامي على أثر الاجتياح المغولي تعين في الاضطراب والتفكك والانهيار ، وبصفة خاصة داخل الأجزاء التي وقعت تحت الاحتلال المغولي ، فقد دمرت مدن بأكملها وشُرد أهلها وطمست معالمها ، فلقد أتى أولئك الهمج على الأخضر واليابس في المناطق التي مروا عليها أو وقعت تحت سيطرتهم .

❖ عدم القدرة على العطاء :

إذا كان ما تقدم هو وضع المناطق التي سيطر عليها المغول ، فإن وضع المناطق التي لم يطئوها لم يكن بأحسن حال من الآخرين ، فقد أصابها هي الأخرى الاضطراب وانعدام الثقة وعدم القدرة على العطاء لفترة طويلة ، حيث هالها وأرهبها ما تعرضت له الدولة الإسلامية وحضارتها التي تناثرت تحت سنابك خيل المغول .

❖ سيادة العنصرية والإقليمية :

كان من المنطقي أن تسود العنصرية والإقليمية معاً ، فلقد تجزأت الدولة وكان من الطبيعي أن يستقل كل عنصر بجزئية أو إقليم تحت حكم أسرة أو حاكم معين ، وهكذا تحولت

دولة الإسلام إلى دويلات تحت حكم أسر وحكام لا يهمها إلا مصلحتها الذاتية ومآربها الخاصة .

❖ التنافس بين العناصر من أجل السيطرة :

العناصر التي قُدر لها الاستقلال بأجزاء أو أقاليم من الدولة الإسلامية دفعها طموحها إلى التفكير في السيطرة على العناصر الأخرى وقيادة الدولة الإسلامية ولمّ شملها وإعادة وضعيتها التي كانت عليها قبل الاجتياح المغولي هكذا أعلن مماليك مصر والشام ثم الصفويون في إيران والأتراك في وسط آسيا ، وأخيراً العثمانيون الذين حوّلوا هذا التفكير إلى واقع عندما اجتاحوا العالم الإسلامي مرة أخرى ، وأخضعوا المناطق التي فلتت من المغول لسيطرتهم باستثناء إيران ومراكش .

❖ بداية الاعتداءات الأوربية :

عندما ضعفت الدولة التي أسسها العثمانيون من جماع شتات دويلات العالم الإسلامي ، أصبحت مطمعاً لأوربا في خروجها الثاني الذي مهدت له الكشوف الجغرافية ، وابتدره نابليون بونابرت بحملته على مصر في عام ١٧٩٨ م ، وتلاه السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي دولة بعد أخرى .

❖ الانفصال بين الحضارة والعقيدة :

تزامن مع كل ما تقدم وعمّق من آثاره حدوث انفصال مدمر وشرخ عميق بين العقيدة بكفاحيتها العظيمة وما تبثه في النفوس من عزم ومضاء وبين الحضارة الإسلامية المعطاءة ، وكان من شأن هذا الانفصال أن يحرم الحضارة من سمة الكفاحية ويجردها كذلك من القدرة على العطاء والإنجاز .

ثالثاً : مظاهر وأشكال ونتائج أزمة الانقطاع :

ثلاثة مظاهر وأشكال ونتائج ترتبت على أزمة الانقطاع التي أصابت الحضارة الإسلامية ، وتتمثل في الآتي :

❖ **الاعتماد على النقل وغياب الاجتهاد :**

لقد غاب الاجتهاد والابتكار وانعدمت الثقة في القدرة على العطاء والإنجاز ، وفضّل المسلمون الموروث والنقل عنه ومنه ، ولم يملّوا من ترديد ما فات ، فقد أصبح الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الذات التي صارت في حكم الماضي والتاريخ .

❖ **فقدان الحضارة لهويتها الإسلامية :**

لقد برزت الهويات العنصرية الإقليمية وارتفع شأنها وطغت على الهوية الإسلامية التي فقدت ذاتها رويداً رويداً ، وأصبحت كل قومية تتحدث عن الإسلام وعن حضارته من خلال رؤيتها الذاتية سواء كانت عربية أو فارسية أو تركية أو بربرية أو مغولية .. إلخ .

❖ **التبعية للآخر :**

فُقدت الذات ، ولم يعد لها هوية أو ماهية ، ولم يكن أمام المسلمين من بد إلا إتباع الآخر الذي كان قد عشعش في عقول المسلمين ، وطرد منها الفكرة الإسلامية بمحتواها المعتقدي المكافح ومفادها الحضاري المعطاء ، وأصبح المسلمون صدى للآخر ومسخاً لا شكل له ولا ملامح ، وإن لله وإن إليه راجعون .

المبحث الثاني

كفاحية البحث عن الذات والتواصل معها

إذا كان ما تقدم هو واقع الحضارة الإسلامية ووضعيتها التي كانت منذ الانقطاع الذي حدث علي أثر الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي وتدميره لعاصمة الخلافة في بغداد ، فمن المحتم على أبناء الإسلام في الوقت الراهن أن يعمدوا إلى البحث والتنقيب في ذلك الواقع وتلك الوضعية عن المخرج المحتمل والمنفذ المتوقع ، وذلك من خلال دراسة الإمكانات والمقدرات الكامنة في الحضارة الإسلامية والخصائص والسمات التي يمكن أن تسمح لتلك الحضارة بأن تنبعث من جديد وتبحث عن ذاتها وتتواصل معها ، وفيما يلي استشراف لتطور محتمل نورده باختصار :

أولاً : الكفاحية الكامنة :

تكتنز الحضارة بداخلها طاقة جبارة تتعلق بالكفاحية التي عاشت معها منذ نشوئها وهذه الكفاحية ربما يكون قد أصابها الفتور والسكينة بسبب ما ران عليها من أحداث الزمن وتداعيات الدهر ، ولكنها في حاجة إلى من يزيل عنها ذلك الران ، وينفث في جذوتها ، ويطلق لها العنان ، من خلال الحركة الجادة والصادقة من أبناء الإسلام ، لاستقراء تاريخ الحضارة الإسلامية ، ودراسة تطورها ، وتحليل أسباب الضعف والوهن اللذين حلاّ بها ، وكيفية إعادة التواصل .

تعتبر إذن مسألة إثارة الكفاحية الكامنة في الحضارة الإسلامية هي الخطوة الأولية والإجراء الأساسي الذي ينبغي على أبناء الأمة الإسلامية التحرك من أجله في الوقت الراهن ، وهذه الخطوة تحتاج إلى جهود فكرية جبارة من المفكرين الثقاة .

ثانياً : إحياء عقيدة التوحيد وإقرانها بالحضارة :

مما لا شك فيه أن عقيدة التوحيد تحتاج إلى بعث في قلوب ونفوس وعقول أبناء الإسلام ، وذلك بالعودة بها إلى سالف عهدها من النقاء والقوة ، وإقرانها بالحضارة من خلال علاقة التلازم والتوافق التي كانت من قبل ، وفي هذه العملية دعم لا حدود له للكفاحية الكامنة في الحضارة الإسلامية .

إن فيما تقدم تأكيداً على طبيعة الحضارة الإسلامية في كونها حضارة عقيدة ، ترتبط بها ، ولا تنشط ولا تتفاعل إلا في حضرتها ومعيتها .

ثالثاً : تحقيق الهوية الإسلامية ودمج كافة العناصر :

المسألة الثالثة فيما يتعلق بالبحث عن الذات الحضارية للإسلام والتواصل معها ، تختص بتحديد معالم الهوية الإسلامية من جديد تحديداً يتفق عليه ويستوعبه كافة العناصر والأعراق الداخلة في نطاق الإسلام ، ثم استخدام تلك الهوية كأداة لدمج كافة تلك العناصر وتذويبها في بوتقة الإسلام من جديد واستيعاب التمايزات الذاتية واحتواء المكونات ذات الخصوصية .

رابعاً : خصائص الحضارة الإسلامية تأبى إلا الخلود والأبدية :

إن حضارة الإسلام حضارة خالدة وأبدية بحكم ارتباطها بعقيدة التوحيد أساس الوجود ومحور الكون ، ومن ثم فلا يُخشى على حضارة الإسلام ، فهي لن تنتهي ، ولن تفنى ، وستظل إلى الأبد بالرغم من توقفها عن العطاء وتعطلها عن الإنجاز ، وستبقى في انتظار أبناء الإسلام لينبروا إلى تحريك تلك الحضارة وتفعيل مفرداتها ومقوماتها ، فالحضارة الإسلامية بخصائصها وسماتها ومقوماتها عفية صحيحة ، ولكنها تحتاج إلى من يحركها ويفعلها ، وذلك يزيد من عبء أبناء الإسلام ، فهم وحدهم القادرون على إعادة التواصل

وإنعاش روح الحضارة الإسلامية .

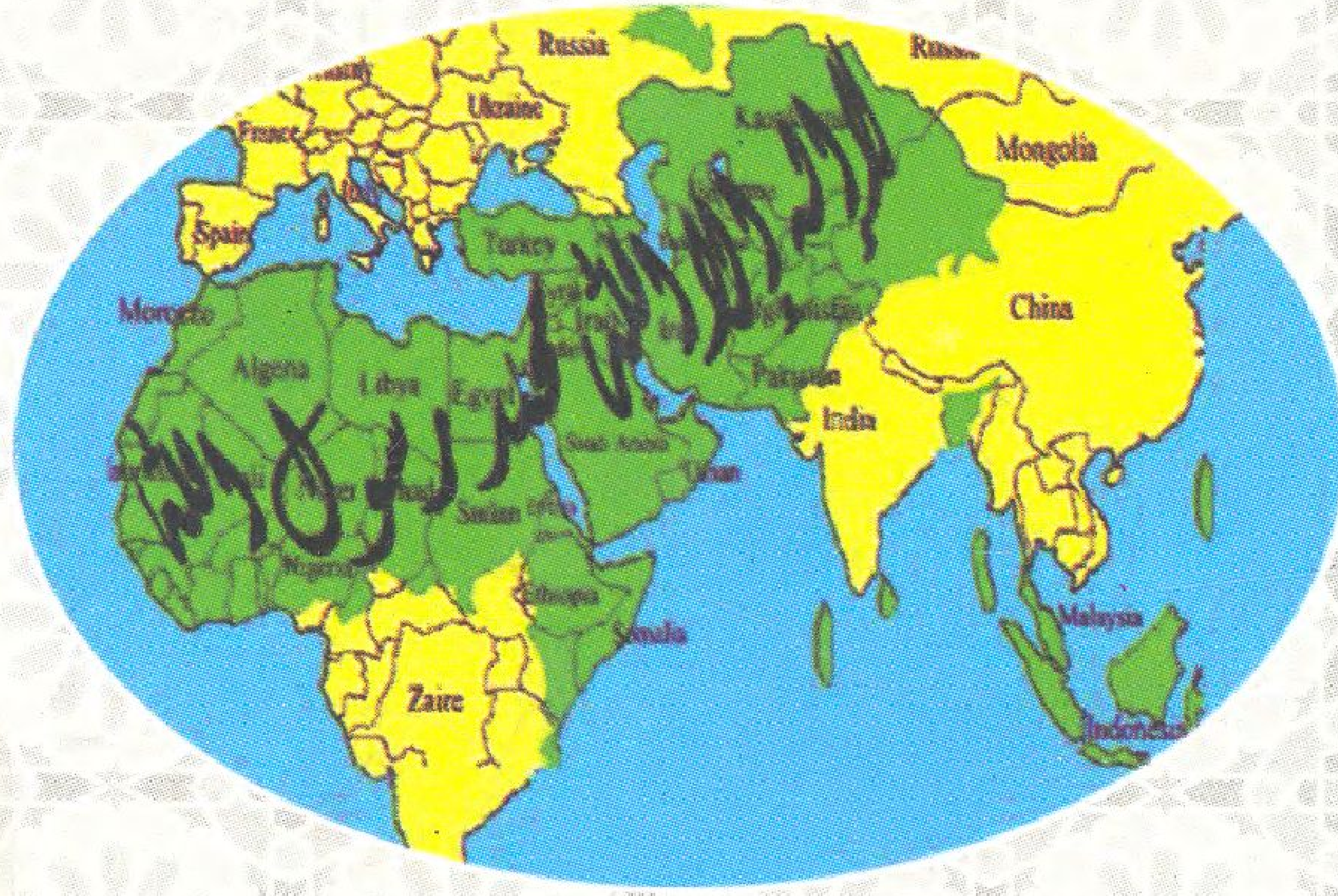
مما تقدم نستخلص أن حضارة الإسلام تكمن بداخلها كفاحية جبارة ، وأن محركات ومفعلات تلك الكفاحية تتوقف على أبناء الإسلام الذين عليهم أن يحيوا العقيدة ويقرنوها بالحضارة ، ويحددوا لتلك الحضارة هويتها المعبرة عن ذاتها وماهيتها ، وينخرطوا جميعاً في إطار تلك الهوية وهم مطمئنون إلى أن حضارتهم أبدية خالدة ، ولكنها تحتاج منهم إلى أن يجعلوها أصيلة معاصرة .

والله من وراء القصد



البريد الإليكتروني
ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

من أجل
منهج إلهي محقق
وعالم إسلامي موحد
وحياة اجتماعية طيبة
ومسلم صالح حصيف
وخاتمة سعيدة



نهدي هذا
الجهد المتواضع
العبد الفقير إلى عون ربه